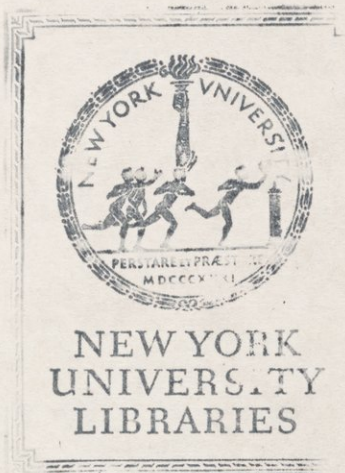


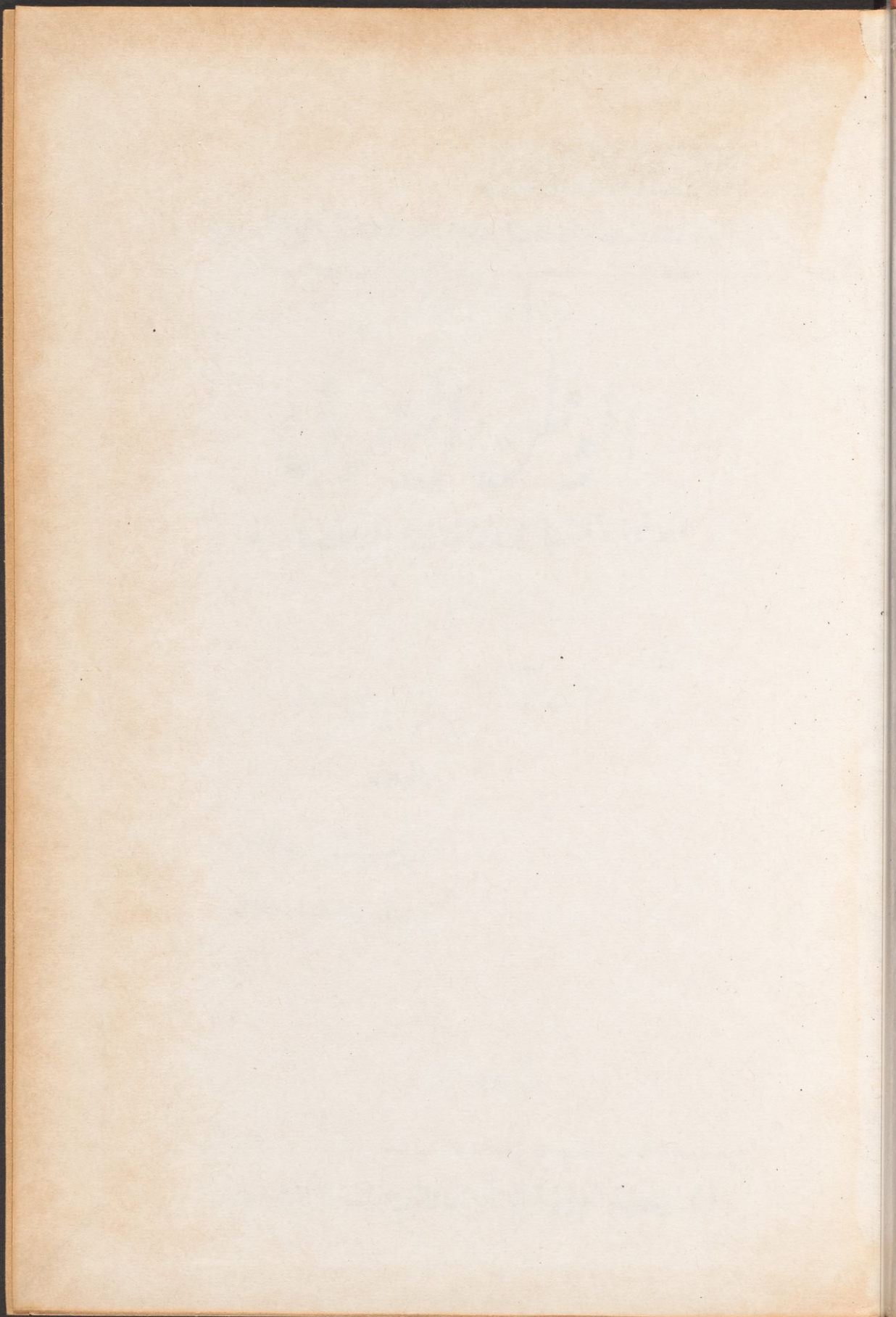
BOBST LIBRARY



3 1142 02841 0036

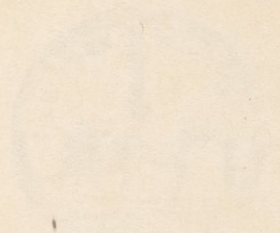


GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



7.26

1



6

دراسات عربية

سلسلة بشرق على إصدارها غزوة النص وسامي الدروبي

al-Waṭan al-'Arabī....

الوطن العربي

الاتجاه التياجي والملاحم الاقتصادية

front

al-Nuṣṣ, 'Izzat

تأليف

الدكتور غزوة النص

استاذ بجامعة دمشق

[1959]

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

١٩٥٩

Near East

HC

498

N8

C-1

تعهد

المؤسسة الثقافية

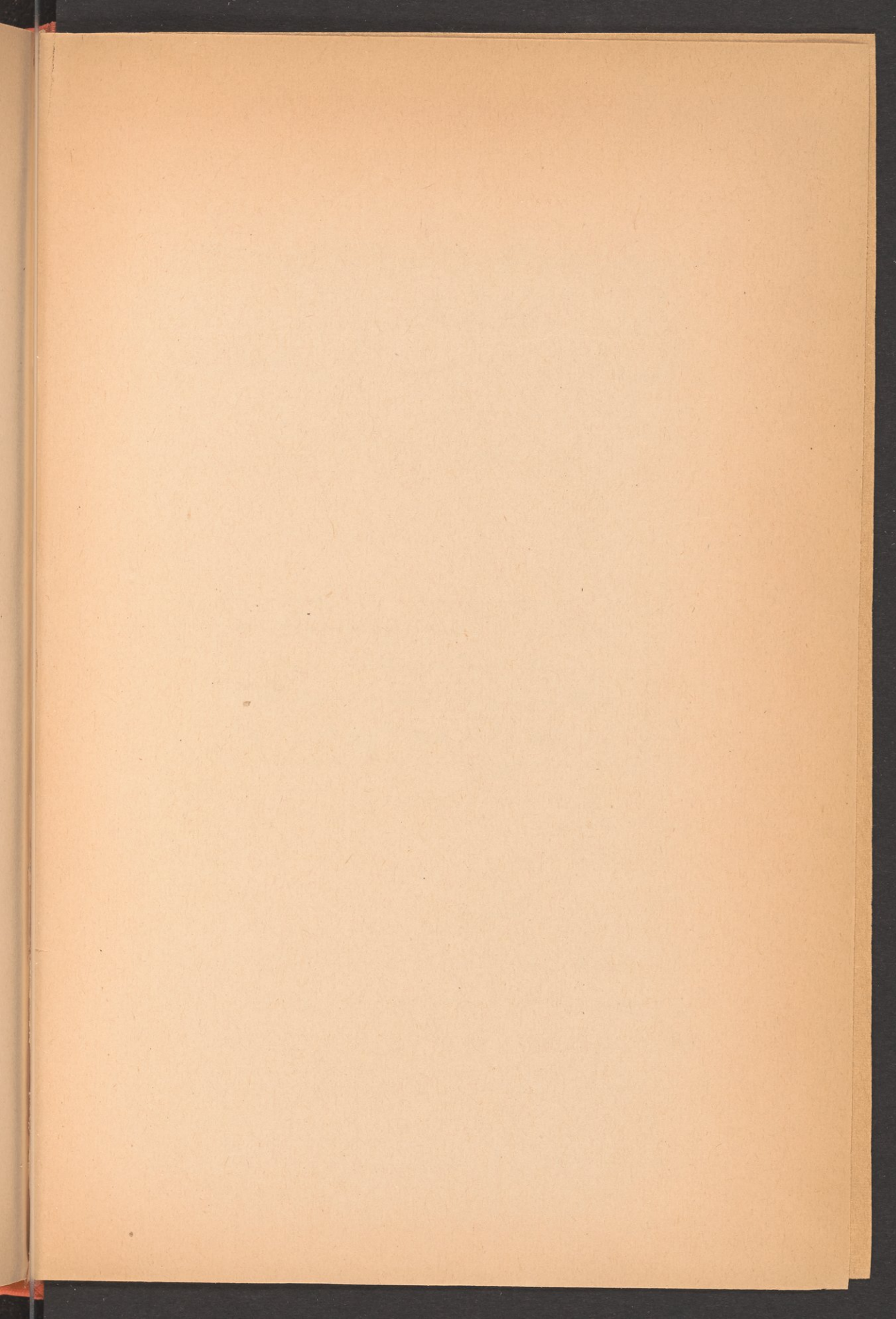
للنشر والتوزيع

بدمشق

الناسرون

دمشق : دار اليقظة العربية : شارع المتنبى تلفون ١٢٢٦٤
القاهرة : مؤسسة الحانجي : شارع عبدالعزيز تلفون ٤٣١٤٨
بغداد : مكتبة المثني : شارع المتنبى تلفون ٨٣٥٨٨
بيروت : المكتبة الشرقية : شارع المعروض تلفون ٣٣٢٣٤

محاضرة أُلقي ملخصها في مدرسة الأركان بعنوان :
العالم العربي - عدا الجمهورية العربية المتحدة -
دراسة اقتصادية وسياسية واستعراض للامكانيات
الحربية وذلك يوم الاثنين في ١٨ آب ١٩٥٨



أيها السادة :

يطيب لي في هذه الأمسية الرخية أن أتقدم بالشكر خالصاً سخياً لمن جادوا ، متفضلين ، بهذا اللقاء المؤنس ، لقاء من يبسطون ظلالهم المهيبة على حوزة الوطن ويسبغون السلامة الهائلة على المواطنين ويرعون في نفوسهم اليقين المطئن بالمصير العظيم .

وما دنا سنتدارس هنا أموراً تتصل بالاقتصاد والانتاج فمن واجبي ، ومن حقكم ، أن تكون البداية ثناءً عليكم لأنكم ، بنشر آلاء الأمن ، تتيحون للصانع أن يعمل وللمزارع أن يحراث ويحصد ، وللتاجر أن يعكف على تجارته ، وحتى المفكر ان ينصرف الى تفكيره . فان كان لكل فريق من الناس مساهمة انتاجية محدودة فمساهمتم أشمل وأوفى .

واجتماعنا هنا بعيد المغزى . فانه لمن الدلالات المفرحة في دنيا العرب أن يتوثق هذا التعاضد النبيل ، وينعقد هذا التشارك المنحصب ، بين طوائف القوى الحية ، الزاحفة معاً على درب الأمان القومي .

ويتأبى على الإدراك أن يدرك كيف تستدلّ بعد اليوم أمة تهيأ لها هذا الانسجام المؤلف في أهبى صور الشجاعة الفكرية والحربية .

والباحث في كيان الأقوام لا يستطيع الا أن يسجل ما تكشفت عنه عنه التاريخ وما يتكشفت عنه كل يوم وهو ان ترابط مقومات الدولة المادية والأدبية ، العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وتناسقها وتوازنها ، شرط ضروري أصيل لبقائها . وكل افتراق او تخلخل او تجاوز يزلزل البناء ويميد بالكيان .

وليس الابغية السهولة العملية تصنيف مسالك النشاط الانساني الى اقتصادية وحربية وعلمية . فليس ثمة من جدران فاصلة بين هذه المسارب المتلاقية . وهي في تداخلها وتشابكها ترمم نهج الحضارة وتحدد مركز الدولة . ويدرك بالبداهة أن كل عنصر حضاري يتأزج مع العناصر الأخرى ، فيكيّفها وتكيّفه ، وتفرض عليه امتداده وتعين إطاره .

و حين نعرض بالبحث لقوام العالم العربي من زاوية السياسة والاقتصاد - سواء في حيز الواقع ام في مجال الامكان - فلا ندحة أولاً من تقدير حشوده البشرية وجسّ ركائزه المادية . على أن المهم هو استيعاب التفاعل المتبادل بين ما تقدّمه الطبيعة وما يصنعه الانسان . وترون أن مخطّط هذه اللمحات السريعة يرسم نفسه بنفسه ، فالسياسة والاقتصاد يسبقهما بترتيب المنطق صانعو السياسة والاقتصاد ، أعني السكان ، والسكان مستندهم ومستقرّهم على الأرض .

قلت : مخطّط هذه اللمحات ، فمهي بالفعل - ولا يمكن أن تكون - سوى قطوف ملامحة من هنا وهناك ، نستطيع ، إن شئتم ، العودة بالتفصيل الى ما يستوقفكم منها ، عندما يفتح لنا باب النقاش الحر . وسوف تلاحظون انني لا أمنح الواقع ، المكبّل المتعثر ، أكثر مما يستحق ؛ فهو منحدر نحو الفناء . ويتّجه بصرفنا الى المستقبل المتألق وهو يدنو اليانا قوياً حيث الخطو .

آ - رأسمالنا البشري

في حقيقة الأمر ، إن كل واقع سياسي هو في الوقت ذاته واقع اقتصادي ، وكلاهما ربيع او حصيلة لرأس مالٍ من البشر وفيه اوضاعهم ، متقدّم او متخلف .

واسمحوا لي أن أستجيب لنزعة الاجتماعيين المحدثين ، فأجعل الثروة الآدمية للدول أساساً لخيراتها العامة ومجرباتها السياسية . فقديماً كان العكس هو مظنة الصواب ، وكانت مصائر الشعوب - اذا لم تعلق بمشيئة غيبية - تربط وتعلل ببنية أرضها وموقعها وامتدادها وذخايرها الدفينة ومزاجها الحار او البارد .. الى آخر ما هنالك من موهبات طبيعية بجنّة . وعلى أن ظروف البيئة لا يحدد دورها - كما يتبدى ذلك في سياق هذا الحديث - فانها على كل حال ليست بذات الأثر الأوّل والآخر .

ولعل من الأجدى أن نستبق اضطرار البحث ، وأقرّر منذ البداية أن عصرنا الذي نعيشه قد حطم الأوثان البليدة ، وزحزح مقاييس القيم كلها ، فأحلّ الحركة محل السكون وجعل التطوّر المبدع ، والدائب الابداع ، في الصميم من عملية التقدم واستكمال القوة والحفاظ على دفء الحياة .

ان المدنية المعاصرة لاتستمدّ نماءها من المنح الأزلية الجامدة ، ولا من عفوية التقاليد المتوارثة بالتلقين والمحاكاة ، وانما هي تستند الى التصميم والتنهيج والتوجيه : أعمدة ملكوت العقل وحده .

وحتى المفاهيم السلوكية ، التي كان موهوماً فيها الثبوت الأبدي ، أصبحت - كلها أو بعضها - موضع شبهة وتساؤل . فما أشقانا من جيل

عليه أن يحاسب نفسه في كل خشعة عين ويروز أخلاقه ومعتقداته وآراءه ،
ويخضعها للعقل الهادئ ، فيتخفف من الثقل والتالف ويتزود بما هو أدمى
الى الرقي وأدعم للوجود . ومن هنا كان هذا المهم اللاهف - ألم العصر -
الذي يعبى نفوسنا ويسوقنا متسارعين نحو تبديل نظرنا الى الامور . قلت
ما اشقانا ، وأقول ايضاً ما أسعدنا ، لأن هذا القلق الحافز هو بالذات سر
النهوض وأصل الحضارات .



ففي معاير الامكانيات ينبغي النظر اذن الى رأس المال البشري من
ناحية الكم والنوع معا . فالعدد وحده ليس له الوزن الأوفى في تقويم
الفاعليات الانسانية . وكثيراً ما يُعني النوع عن الكم في كسب الأيجاد
المخلّدة .

ومن المؤكّد أن الطاقة السياسية والوسع الاقتصادي والسمعة الدنيوية
لبلدٍ ما تنتفع أكبر الانتفاع بوفرة سكانه ، اذا كانت هذه الوفرة مقترنة
بخصائص معينة ، كالوعي والتضامن والمعرفة والقدرة على الخلق والابتكار
والجراحة الباسلة على التجديد والتلاؤم .

وأسمى مدرسياً مثال الصين العجيبة ، المترعة بعدد النمل من أناسي
عاشوا الدهور المترامية يجتروّن المذلة المرة ، لأنهم عاشوا يجتروّن حضارة
مكتملة ولكنها امتدت عبر الأزمان أطول مما ينبغي لها أن تمتد . فما نفع
الصينيين عديدهم الضخم مع الجمود ، وما انتهضت الصين الحديثة الى
مستويات الدول المعظمة الا حين عمّقت الصينيون فضيلة التطور ؛ فتركوا
عبادة الأموات ، ونضوا عنهم الأبراد القدسية العتيقة ، وتجمّلوا بالصبر بل
بالتمرّد على الصبر ، وارتفعوا بمرافق الحياة كلها الى مرتبة التخطيط العقلاني .
لقد كان في الصين القديمة قديسون وحكماء وشعراء ورجال جدّ
مهذبين ... الا انه لم يكن فيها مواطنون ... أعني انها لم تعرف التفتح
الاجتماعي الذي يحو الطبقات ويحكم العدالة ويقبى كرامة الفرد في نطاق

كرامة المجتمع . وصين اليوم بسبيل أن تصبح غداً دولة العالم الأولى .
ذلك لأنها أضحت تجمع على الحرية والتعاون ستامة مليون مواطن .
الصين اذن مثال على أفق الأمل الرحب الذي يطلّ على كتلة بشرية
ضخمة مترابطة . والاتحاد السوفياتي (٢١٠ مليون نسمة) والولايات
المتحدة الاميركية (١٧٢ مليون نسمة) مثلان آخران على كتل بشرية
عظيمة تجاوزت حدود قوافل الخيال في بسطة العلم وعزّ السلطان .
فلنفرض الآن أن التجزئة السياسية المصطنعة قد زالت - ولا بد أن
تزل - من الدنيا العربية ، وأن الشعوب العربية قد التأمّت - وسوف
تلتئم حتماً - في وحدة بسيطة او ائتلافية ؛ لنفرض هذا الأمل الخلو قد
تجسّد سويّاً ، وهو آخذ بالتجسد فعلاً ، ولنحسب رصيدها البشري العتيد
ومدى إمكاناته في كل ميدان .

ولن أقوم الآن بتحديد دقيق لتخوم الوطن العربي ، فليس من شك
في أن هذه التخوم واضحة كل الوضوح في أكثر الجهات ؛ غير انها تلتبس
بعض الشيء حين تلف الصحراء الكبرى وتلامس افريقيا السوداء . ومهما
يكن الأمر ، فمن الممكن ان نعتبر - مؤقتاً - حدود الدول
والامارات العربية القائمة الآن أساساً في تقدير عدد القاطنين بالارض
العربية . وبالاعتماد على احصاءات الامم المتحدة لعام ١٩٥٧ يمكن الجزم
بأن وطننا الأكبر يضم سبعة وثمانين مليون نسمة ، وهو يزداد بفضل
التكاثر الطبيعي مليوناً ونصف مليون كل عام .

وإذا أخرجنا من الحساب - بانتظار أن نخرجهم - من الديار -
المستوطنين الأجانب المحتلين والمغتصبين ، وهم الفرنسيون والاسبانيون في
المغرب والصهيونيون في فلسطين المحتلة ، كان رصيدها البشري الأصل ثلاثة
وثمانين مليوناً .

ومادونا بصدد رأس مالنا البشري المستثمر او القابل للاستثمار ، فيحسب
ان نضمّ اليه أربعة ملايين - على أقل تقدير - من العرب والمتعربين ،

المغتربين خارج بلادهم كالشاميين في الامريكيتين والمغاربة في فرنسا ، او المقيمين منذ بعيد العهود في أرض غير عربية وهم الجماعات العربية المنتثرة ، كالجزر وسط الحضم ، في ايران وافغانستان وباكستان والملايو واندونيسيا وتركيا وافريقيا الشرقية والاستوائية . فاذا كانت الأسباب موصولة الى حد ما بيننا وبين المغتربين في العالم الجديد ، فان اولئك الذين صانوا لغة الضاد ، رغم بعد الدار وتقادم الأجيال ، في الربوع الآسيوية والافريقية القاصية او الدانية ، يستحقون دون ريب ان نعرف عنهم الشيء الكثير ، وأن نجد معهم صلات المودة والقربى . وانها لمفاجأة تعقل اللسان ان يحطّ العربي منا عصا الترحال في ضاحية من جزيرة جاوة ، فيستقبله أهلوها بلغة الأهل ويحدثوه عن أجدادهم من ربيعة او مضر .

أعود من هذا الاستطراد الى الوطن المتعارف عليه ، لأذكر مرة أخرى أن سكانه الاصليين يصلون الى ثلاثة وثمانين مليون مواطن . فلو أن الدولة العربية الموحدة او المتحدة قد تبلورت الآن لكان ترتيبها الثامنة بين الدول بالنظر الى مقدار السكان ، بعد الصين الشعبية ، والهند (٣٩٥ مليون) والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، واليابان (٩٠ مليون) ، والباكستان (٨٥ مليون) ، واندونيسيا (٨٤ مليون) .

ان الوطن العربي يمتلك اذن غزارة سكانية موفورة ، وستتعرف بعد قليل الى آثار هذه الكثرة المباركة في مجرى حاضرنا ومرتمس آتينا . وقبل ذلك ، يجب أن نبذّ غموضاً لا يبدّ من تبديده على نحوٍ شديد من الصراحة والشهامة ، لأن له أشدّ المساس بهذا الحاضر وذلك المستقبل .

قلت ان وطننا الاكبر يؤوي على أديمه ثلاثة وثمانين مليون مواطن .

فهل هؤلاء كلهم عرب ؟ وهل يجب أن يكونوا كلهم عربا ؟

ليس لي ، ايها السادة ، أن أبالغ في الاستطراد ، وان أتجسّع هنا في شرح معنى القومية ، وفي تفريق الدولة عن الأمة ؛ ولكنني أحب أن يتوطّد في الأذهان عدد من الحقائق الأساسية :

أولاً - ليس في العالم دولة واحدة تتفق حدودها الجغرافية مع حدودها القومية . والوجود معاً في دولة موحدة لا يجب حتماً أن يتوافق مع وحدة الأصل والدم ، او يستند الى تماثل السمات والخصائص الفيزيولوجية .

ثانياً - ان الشركاء في وطن واحد لا يفرق بينهم وبين الفرقاء في أمة شركة عادية ، فالشريك ذو النصيب الأكبر من رأس المال هو الذي يحمل اسم الشركة ويوجه نشاطها حيث يتأكد النفع العام .

ثالثاً - ان من عوامل تثبيت الدولة العمل على نحو الانعزال بين العناصر المؤلفة لها وذلك بتشجيع التمازج والتقارب .

رابعاً - ان وجود لغة تفاهم مشتركة يتعلمها جميع أبناء الدولة الواحدة ضرورة لا محيد عنها ، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة الا تلك التي يتكلمها أكثر السكان . ولا ينبغي ذلك بقاء لغات ثنوية في مداها المحدود .

ونحن شركاء في الوطن العربي مع طوائف عنصرية ولغوية ملتحمة بكيان الأكثرية التي تعاشها ؛ وليس لأي منها غالبية عددية في أي قطر عربي ؛ وهي في جملة الوطن كله لا تمثل أكثر من ١٤٪ من السكان كافة ؛ وبعضها أصيل قديم المحدث كالبربر في المغرب ، والنيليين الزنوج في جنوب السودان ، والأكراد في شمال العراق والشام ؛ وبعضها طارئ بالهجرة كالترك والتركمان والأرمن والجر كس .

ونحن نعتبر مواطناً كل من يعيش في الوطن العربي ويقو له بالولاء ، ونعتبر عربياً كل مواطن ينطق بالعربية إرثاً أو اكتساباً ، بصرف النظر عن الأصل والدم والملاصق والقسيمات ، ودون تفريق بين المغترب والنازح والمقيم .

وحين نقرر هذه المبادئ ، فانما نقرر واقع التاريخ ، فلاميزة في مقياس العروبة لنجدي أصيل على بربري تعرب لسانه منذ أمد طويل أو وجيز . ونجد اليوم ، كما وجدنا بالأمس ، عديداً يضيق على الحصر بين قادة العروبة

ونوايع الفكر العربي بمن نفرّعوا أصلاً عن غراس لم يكتب لها أن تنبت في
تربة قحطان وعدنان .

وبعد ، بوسعنا غير هيّأ بين أن نردّد حقيقة اتنوغرافية لا يرتقي اليها الشك ،
وهي أننا في التجانس البشري لسنا أقل حظاً من الدول ذات الشان والحول .
وهل هناك من يجهل أن العنصر الانكليزي الخالص لا يمثّل في الولايات المتحدة
الاميركية سوى ٤١،٤٪ من جملة السكان ؟ ، وأن في الاتحاد السوفياتي
١٨٠ قومية ولغة ؟ ، وان افرنسياً من كل عشرة افرنسيين معاصرين هو
متجنّس جديد ؟ ، بالاضافة الى تنوّع الاعراق الافرنسية منذ القدم ،
وبالاضافة الى مليونين ونصف من الاجانب المقيمين على ارض فرنسا . واذا
تحوّج المتفرنس الحديث أن يفخر بالأجداد الغالين فان أبناءه وأحفاده لن
يقعوا في مثل هذا الحرج .

لقد عمدت ، ايها السادة ، الى هذا التباعد الظاهري عن الموضوع ، لأطمئن
الذين قد يخجلهم ارتياب في أن الاتحاد السيامي بين سكان الوطن العربي يحمل
في ذاته بدور فشله من الناحية القومية .

اننا نستطيع ان ننعّم بالثقة المتفائلة ، ونرتقب من ثرائنا البشري شيئاً كثيراً .
فمن الوجهة الدفاعية المحضة ، ليس عسيراً عليكم أن تقدروا عدد الجيش
العربي الموحد ؛ وقد أعلن عمدة مدينة بكين منذ أيام أن الصين الحديثة
يمكنها في حالة حرب شاملة أن تسوق الى الميدان مائة مليون مقاتل .

وتعلمون ان نسب التجنيد تختلف من شعب لآخر تبعاً لعوامل عديدة
كسلم الأعمار وتوزيع الذكور والإناث والضرورات العائلية والتقاليد
الاجتماعية والسعة المالية الخ... فاذا وضعنا هذه الاعتبارات جانباً ، وأخذنا
بالتعبئة الصينية كمقياس تقريبي ، فان جيش الوطن العربي يمكن أن يبلغ ١٤
مليوناً ، وفي الاحوال العادية لا يقلّ هذا الجيش عن مليونين .

وليس في نيتي أن أدخل معكم في تفاصيل ذات طابع مهني ، فأنتم أهل
الدراية في الموضوع ، وأجزم أنكم تشاطرونني الايمان بأن امة لها مثل هذا
الجهاز الدفاعي الكثيف لا يمكن أن تصاب حرقتها بسوء ؛ وأن تجهيز القوى

يتيحاً على نحوٍ أكمل في المجتمعات ذات العدد الأكبر ، وبالتالي ذات القدرة الانتاجية الأوسع والحصيلة الضريبية الأجمع ؛ وأن أكلاف الدفاع قد تنوء بها الجماعة الصغيرة ولكنها تخف في المجموع الكبير ، وأن حشد المحاربين في خطوط الخطر يكتسب مزيداً من المرونة مع توافر هذه الاسباب .

ومن وجهة الاقتصاد تؤول الكثرة في عدد السكان الى ضخامة الاستهلاك وبالتالي الى ضخامة الانتاج وترقيته والاقبال من نفقاته ورفع المستوى المعاشي للمجموع .

فالمنطق الاقتصادي لا يسمح لشعب قليل العدد أن تكون له غابات من المصانع ، تعتمد في تصريف منتوجها على أسواق داخلية ضامرة او خارجية متأرجحة . ولكن هذا المنطق نفسه يفرض أن تمتد المصانع وتتلاحق حين يكون زبائن السوق الداخلية كثرة مضمونة .

فنحن لا نتصور مثلاً أن تقوم في امارة قطر - وسكانها الآن نحو ٤٠ ألفاً - معامل وفيرة المتنوج ، تصمد في أقل الاحتمالات للمزاحمة الاجنبية .

وعندما تصبح البلاد العربية سوقاً موحدة متكاملة متكافئة ، فان وفرة سكانها ستتيح لها فرصاً مؤاتية للتخصّص ، وتوزيع الانتاج حسب القابليات المحلية ، والتحرّر من التبعية الاقتصادية للدول الأجنبية المستأثرة .

وفي مجالات العلم والأدب والفن ، تبعث الكثرة على المباراة والتنافس فتبرز العبقريات وتحتشد المواهب . ولا عجب أن لاتنجب الأمة العربية حين تكون مبعثرة تمنع الرماح الأجنبية اللثيمة تأصرها وتواشجها ، لا عجب أن لاتنجب سوى القليل القليل من النابغين وأنصاف النابغين .

ان دولة من مليون او عشرة ملايين لاتؤهلها خزائنها المالية لأن تغدق على العلماء ، وتنفق عن سعة على الجامعات والخبر ومراكز البحث والتعمري ، ولكن دولة من ثمانين مليوناً تقدر على ذلك بيسر وسماحة .

والمؤانف من في القوقعة الضيقة يضوي ويختمق ، وينطوي معه كل ما كان يمكن أن يجوده لطائف وروائع . انه لا يجد زبائن لبضاعته الغالية بالقدر الذي يسد

نفقة المداد والورق .

شاهدان فقط ندعم بها ماسبق : يُنشر في الاتحاد السوفياتي ٤٤٠٠٠ كتاب وسطياً في العام ، يُطبع منها مليار نسخة . وتصدر دور النشر في الولايات المتحدة الاميركية ١٢ الف مؤلف في السنة ، تباع منها نصف مليار نسخة ..

* * *

ألح مرة أخرى - أشدّ الاحاح - على أن الكثرة ليست هي الشرط اللازم الكافي لسمو المجتمعات . والبحث في رأس المال البشري - من حيث أثره في الدعائم الاقتصادية والايوضاع السياسية - يقتضي النظر اليه من جوانب متعددة ، كالتوزيع الجغرافي والتوازن الديموغرافي والنضج العقلي والعافية الجسدية والزاد الخلقي والوعي الجماعي الخ ...

ولاجمال لنا في هذا الحديث أن نلامس هذه الموضوعات المتراكبة ، الابالقدر المقيد لابرار المشكلات الاقتصادية وتفهم الاحداث السياسية وتحمين الامكانيات الدفاعية .

فمن الجدير بالملاحظة أن عدد الرجال متفوق على عدد النساء في جملة الوطن العربي . ففي عدن والكويت مثلاً يبلغ عدد الذكور ضعف عدد الاناث ، وفي سائر البلدان العربية يقابل كل ألف رجل بين تسعمائة الى تسعمائة وسبعين امرأة . ونجد عكس هذه الظاهرة تماماً في أكثر البلدان الأوروبية والأميركية . والنتيجة المباشرة لهذه الخاصة الديموغرافية أن السواعد المحاربة في البلاد العربية أعلى نسبة منها في البلاد الأخرى ، وكذلك الأيدي العاملة في المجالات التي لاتتصدى المرأة لاقتحامها .

وظاهرة ثانية تستحق التسجيل وتتصل بسلم الاعمار ، ذلك أننا ندخل في زمرة الشعوب الفتية ذات الكثرة من الأحداث والمراهقين والقلة من المكتهلين والشيوخ .

ومن المعروف ان الفئة العاملة المنتجة بين المواطنين - وهي في الوقت

ذاته فئة المحاربين - تتراوح أعمارها بين ٢٠ و ٥٩ سنة ، وعلى كواهلها عبء
إعالة الاطفال والطاعنين في السن والنساء الملتزمات بيوتهن .

ان هذه الفئة الراسدة تنخفض نسبتها في جميع البلاد العربية الى ٤٢ او
٤٣ بالمئة من مجموع السكان ، بينما ترتفع في السويد مثلاً الى ٥٦ ٪ ، ولا تقل
في الولايات المتحدة الاميركية عن ٥٠ ٪ . ومقابل ذلك تتضخم لدينا نسبة
الأطفال ومن هم دون سن الكسب الى ٥١ او ٥٢ ٪ أي أكثر من نصف
السكان ، ولا تتجاوز هذه النسبة ٣٠ ٪ في السويد و ٣٧ ٪ في الولايات المتحدة .
وانكم مستخلصون بسهولة النتائج المترتبة على هذه القسمة المتباينة في
زمر السن ، وأوضح ما فيها ان العاملين المنتجين ، وبالتالي المكلفين بأداء
الضرائب العامة ، هم أقل السكان عدداً ، وهم يكسبون دون تبرم
ليحفظوا الحياة على جيش الاطفال اللجب ، فضلاً عن النساء غير العاملات
والشيوخ العاجزين .

وبالنظر الى الضرورات سمحت التشريعات العربية ان تبدأ سن العمل
منذ الثانية عشرة .

ومها يكن الأمر ، فلا يجب أن يحملنا الوهم على الدعوة الى تحديد
النسل والاقبال من الذرية ، فتلك دعوة شؤم لا يتحمل وزرها من يتطلّب
العزة والقوة لامته وبلاده . ان الأحداث هم منتجو الغد وهم عدة الوطن
وأمله ، وفي تكاثرهم فال مستقبل المشرق . ولن يقبل مخلص أن تضمّر
أتمه وتقف عن النمو بدافع الأفانية المحضة ، بينما يحيط بها أعداء
أشداء وكثور .

صحيح ان نسبة المنتجين تقلّ مع ازدياد النسل ، ولكن عددهم المطلق
يتصاعد ، ومهمتهم للعمل نشط وتوقّد . واذا كان الافراط في التكاثر قد
يدعو أحياناً الى القلق الاقتصادي ، بسبب تقصير الموارد عن إرضاء
الحاجات ، فان انتشار التعليم - وبالتالي نمو الاحساس بالمسؤولية - لكفيل
بأن يقيم التوازن الكيبيس في هيكل الامرة العربية .

ويجب أن لا يفوتنا أن الفتوة المتزنة لدى الشعوب تضع شؤون الاقتصاد بيد رجال يمتازون بالحركة والحيوية والجرأة . اما في الميدان السيامي فهي تحتم بالضرورة ان يتسلم الحكم والادارة رجال لم يتقلمهم مرّ السنين بوقر التقاليد ، ولم يألفوا الحركة في مناهات الروتين ، ولا يعوقهم عن الاقدام حذر جبان او تخوّف مستكين .

* * *

بقي أن نعترف — والاعتراف بالنقص هو المرحلة الاولى في اصلاحه — أن جهازنا البشري بعيد البعد كله عن أن يبلغ الطاقة الانتاجية التي يؤهله لها عديده ، سواء من حيث الخبرة والمعرفة ام من حيث الصحة الجسدية . لقد قلت ، وأعيد القول ، أن الانسان — كل انسان — هو أداة انتاج اقتصادية ، وكلما زادت هذه الاداة احكاماً واثقناً زادت قدرتها على الانتاج . ان المواطن هو ثروة تنمو وتعتظم كلما نمت قدرة هذا المواطن الفكرية وكفاءته الجسمية ومهارته العملية . فالتربية الشعبية والعناية الطبية ليست أمورا تنفق عن ترف ، بل هي وسائل فعالة في انماء الثروة القومية ونشر الرخاء العام ، والمال الذي تصرفه الدولة في هذا السبيل يرجع اليها اضعافاً مضاعفة من سبل أخرى .

وأرجو أن لا تدلف السامة اليكم اذا تمت أمامكم بعملية حسابية بسيطة ، وعرضت عليكم بعض الارقام . فقد حددت موازنة الاقليم السوري للعام المقبل بنحو ٤٦١ مليون ليرة ، ويعني ذلك بكل بساطة أن كل مواطن في هذا البلد يعدل ريعاً سنوياً مقداره ١١٥ ليرة ؛ ويقابل هذا الربع رأس مال قيمته ٢٣٠٠ ليرة ، على افتراض ان المئة تنتج خمسة . . . ، وقيمة شعب سورية لا تنقص في هذا الحساب عن ١٠ مليارات . وبتعميم النسبة عينها على جملة الوطن العربي ، نستطيع الحدس بالتقريب أن قيمته البشرية — من وجهة نظر الدولة — تربو على ٢٠٠ مليار . والحساب من وجهة النظر القومية يضاعف الرقم مرات اربع في أضعف احتمال .

ولقد أجرى علماء مشهود لهم بالفضل حسابات جدية لتقدير الثمن المادي لسكان الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٣٠ ، فوصلوا الى ١٥٠٠ مليار دولار ، بينما كانت الأموال العامة والخاصة كلها لاتزيد في ذلك البلد عن ٣٢١ مليار دولار .

فاذا كان المواطن يمثل قيمة مالية معينة ، فمن البديهي أن فقدانه يمثل خسارة بقدر ذلك . والزيادة في معدل الوفيات بسبب سوء الشرائط الصحية تؤول الى نقص محتوم في الموارد الاقتصادية . ولقد قُدِّر في بلجيكا أن موت الأطفال قبل سن الثالثة عشرة يساوي من حيث القيمة المادية ثلثي موازنة الدولة . ويكلف المرض سنوياً في الولايات المتحدة الأميركية ١٠ مليارات من الدولارات . وداء السل وحده يكبد فرنسا خسارة مادية سنوية لاتنقص عن ١٥ مليار فرنك قبل الحرب الأخيرة .

وتعداد الأدلة والشواهد ليس بالصعب ، وقد أوضحت أمثال هذه الحسابات تؤلف علماء مستقلاً يدعى : علم الاقتصاد الانساني ، وهو يُقدَّر في جملة ما يُقدَّر القيمة المالية للرجل والمرأة في كل عمر ، وتزايد هذه القيمة مع درجة الثقافة .

وغني عن البرهان أن من المقاييس الواضحة للنمو الاقتصادي مقدار ماتتفق الدولة على شؤون التربية والتعليم . ففي عام ١٩٥٧ أصاب الطالب الأميركي ٤٠٠ دولار ، من مجموع ما أنفقته الحكومة المركزية والولايات على المدارس والمعاهد ، وأصاب المواطن نحو من ٩٠ دولاراً . وفي العام ذاته أنفق الاتحاد السوفياتي ٧٩ مليار روبل على منشآت الثقافة . فكان نصيب التلميذ ١٥٨٠ روبل ونصيب المواطن ٣٩٥ .

وإذا سئنا المقارنة قلنا ان الولايات المتحدة تتكلف في السنة (١٤٤٠) ليرة على كل طالب من أبناءها ؛ وليس في الوطن العربي كله دولة تنفق على الطالب في مدارسها أكثر من (١٥٠) ليرة ، باستثناء الكويت حيث ترتفع النفقة الى نحو من ضعف ذلك .

يصل بنا مطاف البحث ، أيتها السادة ، الى الحلقات المفرغة - وما
أكثرها - التي ندور فيها ، او التي كنا ندور فيها الى زمن قريب . وهذه
نماذج منها وليست كلها :

فمنها أن التعليم لا ينهض الا بزيادة الثروة ، وزيادة الثروة لا تحصل الا
بنهوض التعليم ..

وأن تحسّن الصحة العامة لا يتأتّى الا بالرخاء ، والرّخاء نفسه لا يتوفّر
الا بتحسين الصحة العامة ..

وأن تنمية الانتاج تقتقر الى المال ، والمال لا يجتمع الا بتنمية الانتاج ..
وأن خلاص الوطن العربي من ربة الاستعمار لا يتيسّر الا بالقوة ، ولكن
وجود الاستعمار يمنع القوة ..

وأن الجهل المنتشر يمنع النخبة الصالحة من الأمة أن تتسلّم دفعة الحكم
والتوجيه ، ولا يمكن لغاشية الجهل أن تبدّد الا اذا استلمت النخبة الصالحة
دفعة الحكم والتوجيه ..

فمن أين نبدأ ، وكيف السبيل الى كسر هذه الحلقات ؟
السبيل نتملّسه على ضوء الأحداث التاريخية التي مرّت بها قبلنا شعوب
وأقوام كانت بمثابة لنا في التخلّف ، وهو بالفعل السبيل الذي بدأت تنتهجه
كثرة الشعوب العربية :

تبدأ قلة مخلصة متمسكة بنشر الوعي السياسي في صفوف الجماهير ،
وتعبيء حماسها حتى تقودها الى التحرّر ، ومن ثم يبدأ التنهيج والتنظيم
وتعبئة المرافق والامكانيات لتحقيق الاهداف المرسومة الأهم قبل المهم .
وكل تساند او اندماج بين شعب عربي وآخر يختصر هذه المرحلة ويكرّر
في اجتناء ثمارها .

ان اللحاق بالدول العظمي لن يكون سهلاً ميسوراً ، ولن يتمّ الا بتعبئة
كاملة للجهود والعزائم العربية وللثروات والمدخرات القومية . ولن آتي
الا بمثال واحد عن معجزات التعبئة الكاملة ، وهذا المثال استمدّه من

الصين أيضاً ، ذلك البلد الذي كان حتى عام ١٩٤٩ يلوذ باغفائة مسترخية في
فيء الأوهام والأساطير . انه أنقذ من الأمية بعد انطلاقة المظفرة ثمانين
مليوناً من العمال والفلاحين ، ورفع نسبة الطلاب في المرحلة الثانوية عام ١٩٥٦
الى ٤٤٦,٥ ٪ عما كانت عليه عام ١٩٤٩ ، وزاد عدد الطلاب في كليات
المعلمين ٩٨٠ ٪ في الحقبة القصيرة ذاتها ، وارتفع بعدد التلاميذ في المدارس
الابتدائية وحدها الى ٦٥ مليوناً . واما في الميدان الاقتصادي فحسبنا دلالة
على وثبة الصين الحديثة أنها استصلحت من الارض الموات ١٣,٥ مليون
هيكتر في مدة سبع سنوات فقط .

التنميج والتعبئة ، أيها السادة ، سيجعلان من رأس مالنا البشري قوة
اقتصادية وحرية لا غالب لها . ولنتقل الآن الى رأس مال آخر ، هو
المحيط المادي الذي يقسرناعلى المعيشة فيه ، ولكنه لا يقسرنابحال ما على أن
نجيا حياة معينة ، تخضع لسنن لا قبل لنا بتبديلها .

ب - عن الطبيعة

للبيئة الطبيعية أصدقاء مناصرون ، ولها في مثل عددهم أعداء ألداء .
والقضية ليست قضية حب أو كره ، وإنما هي قصة ايمان : ايمان بهيمنة العقل
وقدرته على استعباد الطبيعة ، او استخذاء أمام القوى المحيطية واستسلام
لعبوديتها . والفارق بين الموقفين هو الفارق بين المعتقدين بالقضاء والقدر وبين
المؤمنين بالمشيئة الكلية او الجزئية للانسان .

اما أن الظروف الطبيعية قد تتحكم في الأسس الاجتماعية والاقتصادية
لحياة البشر فأمر لاشك فيه ، ولكن هذا التحكم ليس ذا طابع قاطع نهائي . ولعل
خير مقياس للموازنة بين الحضارات الانسانية هو مبلغ مغالبتها لشرائط
البيئة ونجاحها في تذليلها .

والموضوع يعيننا في هذا الحديث ، لأننا بصدد الكلام عن مجتمع
لاتزال طائفة كبيرة منه قريبة من حياة الفطرة ، في حين جاوزت طائفة
أخرى هذه المفازة ، وبلغت مرحلة لا بأس بها في درب الخلق والاصطناع .
وتبدى آثار البيئة الجغرافية في أنماط معيشة البشر وتوزعهم على
سطح الارض وأماكن اقامتهم وطرز مساكنهم ونوع غذائهم وشكل
كسائهم الخ .. فالانسان مدفوع بغيريزته الى التحري عن وسائل المعيشة
والبقاء ، وهو في تحريه هذا مقاد الى حد جزئي او كلي بالظروف الطبيعية
المحيطة به . فمن الطبيعي مثلاً أن يشتغل سكان السواحل البحرية بالملاحة ،
وأن ينصرف سكان السهول الفيضية الى الزراعة ؛ وليس من قبيل الصدفة
اضطراب بعض الأقوام الى حياة الرعي والبدواة ، بينما اشتغل البعض الآخر

بالصناعات واستخراج المعادن وصهرها .

وللبينة أيضاً أثر في تكوين الانسان وقوته أو ضعفه ، كما لها مساس ملحوظ بأخلاق الشعوب وعاداتهم ولون تفكيرهم وطبائعهم النفسية . حتى أن هناك علماً جديداً يعني بدراسة نفسانية الأمم حسب جوّها المحيطي ، وهو علم الجغرافية النفسانية .

ان سكان الغابات الاستوائية تقدّم لهم الطبيعة متنوع الثمار دون عناء ، ولذا لم تتفتح قواهم العقلية ولم تظهر لديهم مواهب الابداع والاختراع ، ولم يشتغلوا بالزراعة أو بالرعي ، ولم يلعبوا دوراً ما في تاريخ الانسانية او يسهموا في تقدّم الحضارة العالمية ، وقد آمنوا بالسحر والحرافات في غياهب الغابات الرهيبية .

والرعاة في السهوب يعيشون في حل وترحال دائمين ، ولذلك طبعهم محيطهم بالشجاعة واحتمال المشاق ، وهم يجهلون معنى الوطن وتتحكمّ بينهم رابطة القبيلة .

والمزارعون يشتهرون بالمسألة وعدم المغامرة وحب الارض ، وهم يدركون ضرورة الحكومة لتقوم بأعمال الري المشتركة وحماية المزرع والغلال . اما سكان الجبال فهم يميلون الى الحرية والاستقلال والانزال ، بسبب صعوبة الوصول اليهم واستطاعتهم حماية بلادهم من الغزو .

ويبالغ بعضهم في أثر البيئة فينسب اليها اختلاف النظم السياسية ، ويعزو اليها تخطيط تاريخ الامة ، وقد قال أحدهم : أعطني جغرافية قوم أعطك تاريخهم . وينسب الاستاذ سيغريد الأحزاب السياسية في فرنسا الى طبيعة الارض الفرنسية من الناحية الجيولوجية .

ونحن لانرتاب في أن الجغرافية والسياسة بينهما نسب وصلة ، وهذا هو موضوع علم الجغرافية السياسية .

على أن جميع هذه الآثار والمؤثرات تتبدل باستمرار ، مسيرة جبروت الانسان في نموه واشتداده . وسأعمد الى تحليل سريع للبيئة الطبيعية

العربية ، فيما يتصل منها بشؤون السياسة والاقتصاد . وأول مظاهر البيئة بالنسبة للوطن العربي هو امتداد الرقعة . فالحوزة العامة لهذا الوطن تزيد عن ١١٥ مليون كم^٢ ، أي أنها تفوق مساحة القارة الأوربية (عشرة ملايين كم^٢) ، وتعادل تقريباً نصف مساحة الاتحاد السوفياتي . ونسجل من هذه الناحية الملاحظات التالية :

أولاً - تشكلت البلاد العربية مجموعة متصلة من الأراضين ، تمتدّ دفعة واحدة من البحر المتوسط الى أواسط افريقيا ، ومن حدود ايران الى المحيط الاطلسي . وهذا الاتصال الجغرافي يساعد على التوحيد السياسي والدفاع العسكري والتعاون الاقتصادي .

ثانياً - ان انشاء دولة اسرائيل يقطع الصلة بين أجزاء الوطن الواحد ويؤلف جسماً غريباً نابياً في قلب الامة الموحدة .

ثالثاً - من طبيعة الامتداد أنه يجمع في الوطن الواحد أقاليم وأجواء مختلفة ، تساعد على تنوع الامكانيات الاقتصادية ، وترفده بالمنتجات المختلفة . وهو بذلك يخلق الحاجة الى التكامل والتكافل . فاليمن مثلاً لا تؤهلها الطبيعة لما تؤهل به اقليم مصر ، ولا تشبه الجزائر هضبة نجد ، ولكن اجتماعها معاً يؤلف كتلة اقتصادية متراصة .

رابعاً - ان افريقيا العربية تمتدّ على ٧٣ بالمئة من جملة المساحة العامة للوطن العربي ، وهي تضم أكثر من ثلثي السكان . ويشتمل هذا القسم أيضاً على أكبر دولة عربية من حيث المساحة وهي السودان ، وعلى أعظم مجموعة سكانية مرتبطة بدولة واحدة وهي مجموعة سكان الاقليم المصري ، وقد يعني ذلك أن الثقل الاقتصادي والوزن السياسي لا بد وأن يتركزا في افريقيا العربية .

خامساً - إن الوطن العربي شرقي وغربي ، فلا يصحّ ان نطلق عليه اسم الشرق الأوسط او الشرق الأدنى كما اعتاد أن يدعوه الساسة الأجانب ، لأننا بذلك نعزل عنه بلاد المغرب العربي ، كما ندخل فيه بلاداً لا صلة لها

بالوحدة العربية كتركيا ويران والحبشة .

سادساً - ان الامتداد الأقصى للموطن العربي على ٥٠٠٠ كم عرضاً و ٣٠٠٠ كم طولاً لا يضير في شيء توحده السياسي ، فامتداد الولايات المتحدة الأميركية لا يقل عن ذلك ، والمسافة بين شرق الاتحاد السوفياتي وغربه تصل الى عشرة آلاف كم .

سابعاً - رغم ان الحدود الطبيعية للدول لا تتفق حتماً مع حدودها السياسية ، فان حدود الوطن العربي الطبيعية تعتبر سبباً داعماً لتجمعه السياسي ؛ وهذه الحدود بحرية في أعظم اتساع لها ثم صحراوية وجبلية . وجدير بالملاحظة أن تخومنا البحرية هي في غالب الاحيان مترافقة مع أسوار جبلية عالية تلائم خطط الدفاع من الغزو الخارجي .

ثامناً - ان اجتماع الشعوب العربية في مجموعة سياسية مؤتلفة ومستقرة على رقعة مديدة متصلة يجعل جميع الدول المجاورة لها مباشرة أقل منها سكاناً ومساحة ، وأضعف بالممكنات الاقتصادية والحربية .

ومن دعائم البيئة الطبيعية الموقع الجغرافي ، وليس يخاف عنكم ما كان لهذا الموقع من عميق الأثر في تاريخنا السياسي والاقتصادي ، ويكون هذا الأثر سلبياً او إيجابياً ، مهدماً او بناءً حسب ظروفنا الخاصة في الضعف او في القوة ، فنحن نعيش في ملتقى قارات ضخمة وعلى مفترق طرق عظيمة ، نفيد من ذلك تمازجاً سهلاً في الحضارات واستثماراً مربحاً للتجارات والمبادلات ؛ ولكننا في الوقت ذاته نتعرض لشر الغارات والغزوات ؛ ودفع هذا الشر كان دوماً - وسيظل أبداً - منوطاً بتكتل العرب وتماسكهم .

أمرٌ من الموقع الى الهيكل الجغرافي العام من حيث توازن الجبال الصعبة والبطائح المنبسطة وتناوب السهوب المعشبة والقفار الموحشة ؛ وأهون ما قيل في هذا الصدد أن بلادنا غنية بالكيلومترات المربعة ، ولكنها فقيرة الى درجة الادقاع بالكيلومترات المربعة المفيدة ، وأن الصحارى المرملة والوادي المتربة تحتل القلب من وطننا الأكبر فتميت فيه الحياة ، تلك الحياة التي

لا ندبّ الا على الأطراف ؛ وأن التضاد العنيف المفاجيء بين الذرى الشم والوهاد البعيدة الغور ، والتقابل بين الجبال الثلوجة والفيافي المتلظية . . . كل ذلك يجعل لنا - نحن السكان - جبلة عنيفة متناقضة ، ومزاجاً لا يتسم بالاعتدال والثبوت .

وقيل أكثر من ذلك وأمعن في الافتراء . . . قيل ان آفاقنا الصحراوية المديدة الوحيدة اللون والمظهر ، لا تعين على عمق التفكير ولا تبعث على تيقظ الوجدان .

ولو كنا بمعرض البحث عن الطبائع والأمزجة لما تركنا هذه الأفاويل دون تمحيص ، ولكننا مضطرون هنا الى تقصي الاعتبار الجغرافية وحدها من حيث تماشها او تعارضها مع مقتضيات السياسة ومتطلبات الاقتصاد .

حقاً ان في بلادنا صحراوات ، تكاد تحتل نصف مساحة الوطن ، ولكنها على جديها تمتلك أغلى ما يطمع فيه البشر من ثروات دفيئة . سلوا عن ذلك الأوربيين والأميركيين . . . ولعل آمال البشرية كلها في الحيات المعدنية معقودة الآن على ماتخفي في جوفها تلك الصحراوات المذمومة .

والصحراء ، بعد ، 'تكسب الدفاع العربي عمقاً وارتداداً لا يستهين بهما من يدركون خطط القتال .

ولم تكن الصحراء أبداً حاجزاً يمنع الاتجار أو يعوق تلاقي المواطنين وتخالطهم . أليس عبر الصحراء قد احتكر العرب قديماً تجارة الشرق والغرب ؟ ! وهل عن غير طريقها تم التوسع العربي والاندماج بين شعوب الأرض العربية ؟ !

والجبال أيضاً في أرضنا العربية أدت - وتؤدي كل يوم - وظيفتها الدفاعية المقدسة ؛ ففي الجبل الأخضر يدافع العُمانيون عن عُمان ، وفي متون القبائل وجرجورة وأوراس يناضل الجزائريون عن حرية الجزائر ،

وفي شواحق اليمن يتأهب اليانبيوت لاستغلال الجنوب العربي من فك الاستعمار .

وصحيح أيضاً أن طبيعة بلادنا لا تلائم الاسكان المتصل المكتظ ، وأن السكان بحكم انبجاس الماء في أماكن محدودة يضطرون الى التجمع حول الينابيع في واحات وبلديات تفصلها مفاوز خالية ، وأن هذا الوضع ، بالإضافة الى الجبال ، قد يؤدي الى نوع من الانعزالية المحلية لا تستقيم مع الضرورات الوطنية ولا مع المطالب الصناعية .

ولكن كل هذا يفقد معناه في عصر المواصلات السريعة والاختلاط السهل . والاسكان المتصل المكتظ قد يكون من أكبر الاخطار في الحروب الجماعية المعاصرة . وذلك واحد من جملة الأسباب التي تجعل الاتحاد السوفياتي أقوى شكسية من الولايات المتحدة الأميركية .

ولن أتكلم مطولاً عن جو بلادنا وتناقضه في البرد والحر بين الصيف والشتاء والليل والنهار ، ولا عن الندوة المنحسبة نصف السنة والمتغيرة في الكم من عام لآخر . انها حقاً عوامل غير مؤاتية تماماً ؛ ولكنها هي بالذات قد رافقت أعظم حضارة بهرت العالم حتى العصور الحديثة ، وهي حضارة حوض البحر المتوسط . وقد يقال الشيء الكثير عن نقص المياه على سطح أرضنا العربية . ولكنكم تتساءلون معي هل استنفدنا ما نملك من هذه الثروة؟ وهل أعطى النيل ودجلة والفرات والعاصي والليطاني والمجردة والشليف والملوية وأم الربيع .. هل أعطت هذه الانهار وغيرها كل ما يمكن أن نعطي؟ انها بالكاد تهب ربع ماؤها لمرافق الناس وتهدر الباقي في البحر . وهل استنبطنا المياه الجوفية الثروة؟ أبدأ ، وهي بتقدير الاخصائيين تقوق في المقدار مياهاً الجارية السطحية .

لنتكلم اذن عن سوء الافادة من المياه بدلاً من الكلام عن نقص الماء .

* * *

أشعر ، أيها السادة ، أنني أطلت . ولكن ما العمل اذا كانت بلاد
العرب طويلة عريضة ! .. فلأجاوز الآن هذه المقدمات الى نتائجها ،
ولأعرض أمام نواظركم أولاً فلمنا السياسي ، على أن اجتزىء منه بالأحداث
ذات الخطر وبالتطورات المثيرة للغزائم .

ب - دنيا العرب تتحرر وتتوحد

'كتب علينا أيها السادة ، بحكم موقعنا الجغرافي ومواردنا المتنوعة الوفيرة ، ان نضطر مع الاستعمار منذ عصور . فاذا كان لغيرنا من الأمم عيد تحرر واحد فلنا أعياد وأعياد.

ولن أرجع الى الوراء أكثر من نصف قرن . منذ نصف قرن فقط لم يكن في عالم العروبة بلد واحد ينعم بحريته واستقلاله على الوجه الكامل ؛ واليوم لم يبق من الأرض العربية تحت حكم الغاصبين سوى ربع المساحة العامة للوطن العربي الكبير .

منذ نصف قرن كان يشقى بحكم المستعمرين جميع العرب تقريباً ، واليوم قد تحرر منهم اثنان وسبعون مليوناً ، ولا يزال أحد عشر مليوناً يصارعون ويكافحون ، وهم لا بد منتصرون .

هذه مرحلة التحرر قد شارفت على خاتمتها المحتومة وبدأت مرحلة التوحد . وبدلاً من عشرين مجموعة سياسية تتوازع وطن العرب اليوم سنصل في وقت أقصر مما نتصور الى المجموعة الوحيدة .

وإذا اعتبرتم جامعة الدول العربية نواة بدائية لهذه المجموعة العتيدة ، وجدتم أنها تلم الآن ستين مليوناً من المواطنين العرب يمتلكون مساحة تقرب من ثمانية ملايين كيلو متر مربع .

ومع التحرر والتوحد ، حركة مبرورة أخرى تشغل العالم العربي ، وهي حركة السير نحو الحكم الشعبي الديمقراطي . فالجمهوريات الخمس التي توّطدت في الوطن العربي - الجمهورية العربية المتحدة ، العراق ، لبنان ،

السودان ، تونس - تضم قرابة ٥١ مليون عربي ، في مساحة تعدل أربعة ملايين وربع من الكيلو متوات المربعة . وليس اصطناعاً للون من الحكم جديد أن نجمع الى هذه الجمهوريات خلافة جمهورية - ان صح التعبير - وهي مملكة المغرب حيث ينهض العمل دائماً لبناء النظم الدستورية الجديدة على أسس شعبية واسعة .

على انني لا أستطيع حبس لواعج الأمل أن تتدافع على اللسان كلمات متلهبة حين أذكر أن أربع دول عربية فقط لاتدنس أرضها في هذه الساعة جيوش اجنبية محتلة او لايشوّه روعة استقلالها وجود قواعد ومطارات للعدو الغشوم ؛ وهذه الدول هي الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية وجمهورية السودان ، ومملكة اليمن ؛ ومجموع حشدها البشري واحد واربعون مليوناً .

ومن المضحك حقاً أن تطول قائمة الدول والامارات العربية الراهنة ؛ والمضحك فيها أن بعضها لايعادل قرية محترمة ، لافي الاتساع ولا في عدد الرعايا .

وحرصنا الباسل البطل على لمّ الشمل العربي يجب أن لايعدله في البسالة والبطولة سوى رغبتنا الصادقة في تركيز هذا الشمل ، حين يتم تأليفه ، على أسس الحرية والديمقراطية : أعمق ماتكون الحرية وأوسع ماتكون الديموقراطية . ذلك ان وحدة العرب ليست غاية في ذاتها ، وانما هي طريق لرفاهتهم وكرامتهم وقوتهم ونموّ ذاتهم ؛ وكل ذلك ينسجم في ظل ديمقراطية حرة عادلة تنأى عن الفوضى بقدر تأيها عن التسلط والاستئثار .

ومن المهم جداً أن نتفهّم منذ الآن طبيعة هذه الوحدة وآلياتها . فهل سنبنّي من دول العرب دولة موحّدة بسيطة أم اتحاداً ائتلافياً ؟

لقد قرأت وسمعت مايردّده - عن اخلاص وحسن نية - بعض المفكرين العرب المعاصرين . انهم يقولون : لا يصلح الآخر الا بما صلح به الأوّل ؛ ويعنون بذلك أن العرب لم يؤتوا ملكاً مؤيّداً الا في ظل

حكم جامع مستمر كز ، وأن العودة الى هذا الحكم على صورة حديثة يُرجع
للغرب عزم الذي تهاوى ...

انفي ، أيها السادة ، أنكر هذا الرأي وأستنكره . ولعل الصواب
هو عكسه تماماً ، فلست أشكّ في أن الحكم المركزي ، المفرط في
المركزية ، الذي اتبّعه أكثر الخلفاء فيما مضى ، قد سارع في تفتيت
الامبراطورية العربية الاسلامية . ذلك لانه بالضرورة قد تغافل عن
المتطلبات المحلية ، ووضع شؤون الادارة والحماية بيد مبعوثين مركزيين
لا يتفهّمون رغبات من يتولون أمورهم .

صحيح ، أيها السادة ، أن بعض الخلفاء قد استطاعوا القبض على ناصية
الحكم في بقاع الدولة العربية والاسلامية كلها ، رغم ضعف الوسائل وبطء
المواصلات ؛ ولكن مهام الخليفة آنذاك لا تشبه في شيء مهام الحاكم اليوم
في الوسعة والتعقيد والشمول .

نحن لانشدّ - ويجب أن لانشدّ - عن مجرى التاريخ . وانكم لتلاحظون
في انسابه اتجاهين ثابتين تشترك فيهما الشعوب والدول كافة :

اولاً - التطوّر المستمر نحو الحكم الديمقراطي ، أي حكم الشعب
بالشعب وللشعب . والازمات الانتقاضية كانت وستكون دائماً أعراضاً
مرضية تزول بزوال أسبابها .

ثانياً - توسّع مفهوم الصالح العام وتزايد تبعات الدولة تزايداً مطّرداً
وبالتالي تشعب سلطانها وتدخّله في كل مرفق يمتّ من قريب او بعيد الى
الصالح العام .

فقد يماً اقتصرت مهام الحكومات على الحماية الخارجية وتوطيد الأمن
الداخلي ، وبدأت شيئاً فشيئاً تتناول الطرق والمعابر وتنظيم الري وعمران

المدن واقامة الكنائس والمساجد وسك النقود والإنفاق على الكهنة
وسائر رجال الدين، ثم امتد نشاطها الى حماية الاقتصاد العام وتشجيع الزراعة
والصناعة والتجارة، وشرعت تهتمّ بالتعليم ومعاهده من حيث نوعه
والإنفاق عليه، وفي مرحلة لاحقة أصبحت تباشر بنفسها الأعمال الاقتصادية
نيابة على المجموع؛ وهكذا اتسع سلطانها من تعهد البيع والمعابد وفتح الآبار
على طريق الحاج الى ادارة المصانع، ومن سق الطرق الى انشاء المسائل
والمزارع وتأميم سبل الاتصال. يقول الفرنسي (دونديو دوفابر) : غير
بعيد أن تمتد أنامل الدولة - او انها امتدت بالفعل - الى احتكار زراعة
الزهور وتقطير العطور وصنع أدوات الزينة، باعتبار أنها من المصالح العامة.
كل هذا يتنافى، أيها السادة، مع الحكم المركزي المتسلسل والمتنهي
بذروة واحدة يسع عليها كل شيء ويرجع اليها البت في كل شيء.

اننا نؤمن بأن الشكل السياسي الأمثل للتجمع العربي العتيق هو
الوحدة اللامركزية، وسموها ان ستم الوحدة الاتحادية. انه شكل
الحكم المتبع اليوم في أكثر دول العالم، شرقية كانت ام غربية.
وهو وحده نوع الحكم الذي يُشرك المواطنين جميعاً في ادارة مصالحهم
على صورة مباشرة ومجدية.

ولا بدّ في كل وحدة او اتحاد من سلطة مركزية تشريعية وتنفيذية،
لكنها تلتزم حدوداً لاتعدوها، كتنقيح أسس السياسة الخارجية، وتهئية
أسباب التكافل الاقتصادي والتمازج الثقافي، وضمان الأمن على الحدود
وداخل الحدود. ويتحتم أن يكون لكل قطر عربي منضم الى الوحدة
الكبرى أداة تنفيذية كاملة وجهاز انتخابي خاص يراقب صحة التنفيذ من
جهة ويسنّ من جهة أخرى ما تقتضيه البيئة المحلية من قوانين موضعية
معينة المدى.

* * *

كان حديثنا حتى الآن لا يخرج عن العموميات في أبسط أشكالها
الراهنة والمأمولة .

وقد آن أن نعرض لبعض المشكلات الخاصة . فلنقم أن نثتم بجولة
سياسية خلال الأقطار العربية ، مستثنين من ذلك الجمهورية العربية المتحدة
التي تُخصّص لها حديث منفصل . ولا بأس أن نتبع الأرض في دورانها من
الغرب الى الشرق .

١ - مملكة المغرب (مواكش)

أحب أن أبدأ حديثي عن مملكة المغرب بجلاء موقفها من تكتل الدول العربية ، وهي تشتبك مع تونس في هذا الموقف على الأقل ..
فلقد دُهِش أحرار العرب في كل مكان أن لا تخرج مواكش الى الانضواء في جامعة الدول العربية بعد فوزها باستقلالها عام ١٩٥٦ ، فلماذا أحجمت عن ذلك ؟

السبب ، أيها السادة ، هو حلف بغداد ومبدأ آيزنهاور ، الذين شطرا العالم العربي في المشرق الى كتلتين متقابلتين ، ولم تشأ دولة المغرب - على ما يبدو - أن تقحم نفسها في هذه الخلافات .

يقول السيد أحمد بلال فريج - رئيس وزراء المغرب الآن ووزير خارجيته من قبل - في محاضرة القاها بمعهد الدروس العليا في مدينة الرباط يوم ٢٩ نيسان من العام الماضي ، ما نقله نصاً :

(... اننا لا يمكن أن ننسى علاقاتنا الودية والروحية مع المشرق العربي والاسلامي ، مع الدول التي اجتمعت في باندونغ ومع الدول القريبة منا في العروبة والاسلام . اننا نتجه الى هذه البلاد دائماً بحكم صلاتنا الجنسية والتاريخية والدينية واللغوية . ولكن الحالة في المشرق الآن لا تبعث على الارتياح ، فان المشرق العربي يكون بركاناً مضطرباً تصطرع فيه الحصومات وتضطرب فيه الاتجاهات . ومع رغبتنا الصادقة في أن تتجه جهود البلاد العربية والاسلامية جميعها اتجاهاً واحداً لمصلحة القومية العربية فانه ليس

من مصلحتنا ولا من مصلحة هذه البلاد أن نتكتمل مع فريق ضد الفريق الآخر ، أو أن نجعل من المساهمة في احدى الكتل العربية وسيلة لزيادة التفرقة بين البلاد العربية ، وان سياستنا لتنتج الى تقوية أو اصر الصداقة والأخوة مع كل البلاد العربية والاسلامية ..)

ونستطيع أن نجمل سياسة المملكة المغربية اليوم في الميدان الخارجي باتجاهات أربعة :

أولاً - تحرير المغرب المستقل من بقايا الجيوش المحتلة الافرنسية والاسبانية .

ثانياً - التفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية على اخلاء قواعدها الخمس القائمة في المغرب .

ويقول السيد بلافريج بهذا الصدد في كانون الاوّل عام ١٩٥٧ :
(انه لا يمكن أن نتصور أن هنالك حرية حقيقية للاختيار في سياستنا الخارجية ، بينما يوجد فوق ترابنا جيوش أجنبية تتمتع بامتيازات لاحد لها ، يرجع تاريخها الى عهد الحماية) .

ثالثاً - استكمال حوزة الوطن المغربي بضم المناطق المراكشية الراححة حتى الآن تحت الاستعمار الأجنبي مثل الصحراء المراكشية والساقية الحمراء وايفني والمدن الاسبانية في الريف .

رابعاً - المساهمة ، ضمن الحدود الدبلوماسية على الأقل ، في تحرير البلاد الجزائرية المجاورة .

وهذا البلد - مراكش - ذو تاريخ عظيم حافل وحضارة أنيقة مشعة ، الا أنه ، مثل سائر بلدان العرب ، قد جمد على القديم وأغلق عينيه عن مبتكرات العلم الحديث وشغل بالطرق الصوفية أكثر من اشتغاله بالصناعة الآلية ، فتمكّن العرب منه وانتزع حريته الغالية .

يقول العالم الفرنسي دره ش (Jean Dresch) - الاستاذ في الصوروبون و صديق العرب - في المقدمة التي وضعها لكتاب السيد البوت عياش عن

مراكش : (لقد استعادت مراكش استقلالها عام ١٩٥٦ بعد ٤٤ سنة من الحماية . وهي لم تفقد هذا الاستقلال سوى حقبة قصيرة من تاريخها الطويل . ولكن تغييرات عميقة وسريعة جداً قد طرأت على مراكش خلال تلك السنوات الأربع والأربعين . ولقد وصف كثرة من المؤلفين تخلّف هذا البلد الذي استسلم الى الرقاد ، كالغاية الحسنة التي أغفت في ظلال الغابة ثم أقبل الفارس الجميل ليوقظها ويبعث فيها الحركة . والفارس الجميل هنا هو الغرب الذي نشر في مراكش الحيوية والتجدد الوثاب) .
وفي هذا القول الشيء الكثير من الحقيقة ، الا أن أثر الغرب في مراكش لم يكن دوماً في صالح البلد وأمله .

ومراكش تزيد في المساحة عن نصف مليون كيلو متر مربع ، وسكانها نحو من عشرة ملايين ، يتكلم اللغة العربية مع اللغة البربرية ٠ / ٠١٤ ، اما الذين لايزالون ينطقون بالبربرية وحدها فهم ٠ / ٠٢٢ . ويعترف الفرنسيون أن الجهود الضخمة المتواصلة التي اضطلعوا بها للتفريق بين العنصرين قد كُتبت لها الفشل الكامل بفضل العقيدة الاسلامية التي تعمر قلوب المراكشيين جميعهم .

وهذا الاشتراك في الموطن بين العرب والبربر جعل الحكم متناوباً بين الفريقين خلال عصور التاريخ ، فبعد الأدارسة تسلّم الملك المرابطون والموحّدون والمرينيون وبنو طاس والسعديون ، الى أن قامت الاسرة العلوية الحاكمة منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى اليوم .

وكان بودّي ، أيها السادة ، أن استفيض في الحديث عن كفاح شعب مراكش المجيد ، ليصون استقلاله ثم ليستعيده بعد فقدانه . واذا كان الوقت يضمن علينا بذلك فلا أقل من أن أشير الى أبرز الأحداث .

ولنتذكر بأن مراكش هي اقرب الدول العربية الى أوروبا ، وبمحكم هذا المركز كان طمع الاوربيين فيها مبكراً وحشياً ؛ وقد ظهر هذا الطمع على شكل عدوان مسلّح منذ أن تضعع الحكم العربي في الاندلس في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد .

ولولا تضارب المطامع الأوروبية لابتلعت مراکش كلها منذ ذلك التاريخ . وقطع هذا البلد القرنين الخامس عشر والسادس عشر في حرب مع البرتغال واسبانيا . والى ذلك العهد يرجع استيلاء الاسبان على مدن سبتة ومليلة والحسيمة وجزر الزعفران ومراكز غيرها منتشرة على ساحل الريف المراكشي ، وتعتبرها اسبانيا الى اليوم بملكات اسبانية ، كما تعتبر فرنسا بلاد الجزائر قطعة من أرضها . وفي ذلك العصر بالذات كانت الممالك العربية الاخرى تسقط تباعاً تحت نير العثمانيين . ومراكش هي الدولة الوحيدة التي تفادت هذا الخطر الداهم .

وفي القرن السابع عشر ظهر الجشع الافرنسي والبريطاني على مسرح الوطن المراكشي . واذا فشلت فرنسا حينئذ ، فان الانجليز سيطروا على مدينة طنجة نحواً من عشرين سنة .

وأفضى التطاحن الأوربي الى التسابق في عقد المعاهدات التجارية مع الدولة المراكشية المستضعفة ، والظفر منها بامتيازات ثمينة . وامتدّ عهد المعاهدات طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم يبق في العالم دولة ذات شأن الا ورغبت في التعاقد مع هذا البلد ، حتى قيل بحق ان مراكش كانت أكثر الدول الحديثة ارتباطاً باتفاقات دولية . ولم تتخلف الولايات المتحدة الاميركية عن الركب فنالت نصيبها من الامتيازات عام ١٨٣٦ .

هذا دستور ، أيها السادة ، لا يقبل الريبة ولا يعتبره الخطأ : ان كل دولة تسخو باستقلالها الاقتصادي هي مقبلة حتماً على اضاءة استقلالها السياسي . ومراكش مثال من ألف على صحة هذا الدستور . ودستور آخر يدانيه في النتائج : وهو ان كل دولة تضمو الشمر لدولة اخرى تشجعها على مجانفة الاصلاح الداخلي ، وتسند فيها العناصر العفنة المتخلفة .

هذه سياسة أميركا وازككترا في دنيا العرب، وهي سياسة التنكيا والزوايا في
الجزائر الذبيحة، وتلك كانت سياسة الدول جميعها في مراكش. ولعلمكم
تذكرون زيارة امبراطور المانيا - غليوم الثاني لمدينة طنجة عام ١٩٠٥
حين أعلن نفسه هناك حامياً للإسلام والمسلمين، وحذر السلطان من الانسياق
في تيار الإصلاح الخطر...

كان التراب المراكشي يهدد ويُسوي بانتظار وصول المحتل. وكان
مؤتمر مدريد عام ١٨٨٠ أشبه شيء بتواطوء عصابة من اللصوص على اقتسام
غنيمة لم يستطع واحد منهم الاستئثار بها كلها، فالأقتصاد المراكشي دُوّل
بالفعل وعمّمت الامتيازات على جميع الدول القوية.

وكانت فرنسا قد أصبحت لمراكش جارة غير كريمة، منذ أن احتلت
الجزائر عام ١٨٣٠، وأخذت تنو بصرها الحاد الى هذه الجارة الثرية المتهافتة.
الا أن منافسة الدول الاخرى سيجعلها على الصبر طويلاً قبل الوثوب على
الفريسة. وحدث أن المانيا تركت سياسة بسمارك التقليدية وجلست منهومة
على مائدة الاستعمار. فاذا استطاعت فرنسا ارضاء اذككترا واسبانيا عام
١٩٠٤، فقد وجدت في ألمانيا خصماً عنيداً يمدّ هو أيضاً يداً من حديد الى
الحيرات المراكشية. وهذا سر اجتماع مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦، الذي أقرّ
سيادة سلطان مراكش على بلاده، وضمن استقلاله فيها، مع تدويل بعض
الادارات الهامة كالشرطة والجمارك وبنك الدولة... وكان ذلك انتصاراً
لألمانيا على فرنسا.

بيد أن فرنسا لم تفقد الأمل، ومنذ سنة ١٩٠٧ احتلت الدار البيضاء
والسهول البحرية المغربية وعسكرت جنودها في مدينة وجدة. وظل الصراع
الافرنسي الألماني يشتدّ او يخفّ، تبعاً للظروف الدولية، حتى عام ١٩١١
حين تخلت فرنسا لالمانيا عن مئات الالوف من الهيكنتارات في الكونغو
لقاء الافراد في مراكش...

توون، أيها السادة، أن مصير الشعوب العربية، حين تكون متفرقة

مصيب مظلم عثم ؛ ولا يراود الغاصبين حتى التفكير بأن يؤخذ رأيا في الثوب المفصل لها ...

بقي على فرانسأن تتسلم مراکش. وهل تعدم ذريعة لذلك؟ بل ماضرة الحجة والذريعة؟ ألا يكفي أن تعلن عن عزمها ونخرجه الى حين التنفيذ؟ وهو ما فعلته عام ١٩١٢ .

تحضرنى بهذه المناسبة قصة طريفة أرويا لكم عن سبيل التفكيته .. في عام ١٩٠٧ النأم مؤتمر عالمي في لاهاي لسن قوانين الحرب، وحضر المؤتمر مندوبون عن ٤٤ دولة ، وانفقوا على صيغة قرارات هامة . وفي نشوة الفرح التي غمرت قلوب المندوبين وقف رجل قصير مهذب وهو مندوب الصين ، وجرت له مع زملائه المحاورة اللطيفة التالية :

— أرجو المَعذرة عن قلة بضاعتي باللغات الغربية ، فهناك قضية بسيطة استغلق عليّ فهمها وأرجو أن تسمحوا لي بالاستيضاح عنها . فقد فهمت أنه منذ اليوم لا يمكن لأحد أن يقوم بحربٍ مادون اعلانها مسبقاً ، وأرى أنكم كلكم مغتبطون لهذا القرار الحكيم ، وما أريد السؤال عنه هو أنكم تقصدون الاثنين معاً ، أليس كذلك ؟

— ماذا تقول ؟ الاثنان ؟ لا ، أبداً ، واحد فقط ..

— اذن يكفي أن يأتي واحد من الناس ويقول لي أريد أن أعلن عليك الحرب ، فأراني مضطراً لحوضها ؟

— اذا حوربت فمعنى ذلك أن هنالك أسباباً جدية لمحاربتك .

— واذا كانت هذه الاسباب غير صحيحة ؟

— يكون شعورك أنت أنها غير صحيحة . أما الانسان الذي جاء

بمحاربتك فهو مقتنع حتماً بصحتها .

— واذا كنت لا أريد الحرب ؟

— عليك اذن أن تقبل ما يُطلب اليك .

— واذا كان ما يُطلب الي من التعسف والظلم بحيث لا أقدر على قبوله ؟

— حينئذ نعلن عليك الحرب رغم ارادتك .

وشكر الصيني المهذب لزملائه تفضلهم بهذه الايضاحات القيمة ،
وأردف قائلاً : اسمحوا لي أن أضيف بأن شيئاً ما لم يتغير ...

تلك كانت مفاهيم العصر .. ولعلها مفاهيم كل عصر . ومهما
يكن الأمر فإن الجمهورية الديمقراطية الفرنسية بسطت حمايتها الثقيلة
على مراكش بمعاهدة فاس سنة ١٩١٢ ؛ وخولت هذه المعاهدة
حكومة فرانساً أن تتفاوض مع اسبانيا، نيابة عن السلطان ، من أجل الريف
المراكشي . وقد تسلّمه الاسبانيون من يد الافرنسيين في العام ذاته . وفي
سنة ١٩٢٣ وضع لمنطقة طنجة نظام اداري دولي . وكانت فرانساً
واسبانيا قد توازعتا الجنوب المراكشي منذ عام ١٩٠٠ .

وأقسمت فرانساً الأيمان المغلظة أنها جاءت الى مراكش لحماية السلطان
الشرعي ، وأن جيوشها ستقاتل المراكشيين استجابة لداعي المروءة
والنخوة .. ولما أبى السلطان — وهو مولاي عبد الحفيظ — أن يصادق
على مطالب المحتلين المسرفة في الشطط أجبروه في العام ذاته على ترك العرش
لاخ له غير شقيق وهو مولاي يوسف الذي توفي عام ١٩٢٧ وخلفه ابنه
الثالث سيدي محمد بن يوسف ، الذي يحكم مراكش اليوم باسم محمد الخامس .
وقد قاتل المراكشيون بضراوة . قاتلوا منذ اليوم الأول ، واستمرّوا
يق تلون حتى كتب لهم ان يتنسّموا من جديد هواة حراً نقياً . وكم أنبت
نجيعهم القاني الزكي ووروداً حمراً عطرة تتعانق على التراب الخضل ! تلك
ورود لا تشبهها في لونها وعبيرها الاورود حمر عطرة أنبتها الجهاد الأقدس
في بقع اخرى من التراب العربي .

وأخشى أن يأسرني الجهاد فلا يسعني الا بسط التحدّث عنه . فلا تقطف
من خمائله زهرات ولا اجتزىء من بطولاته بأمثله .

ويصحّ أن نسمي الدفقة الأولى من كفاح المراكشيين بمرحلة القرويين

والرعاة (١٩١٢ - ١٩٣٤) ، وكان كفاحاً مسلحاً بلغ القمة في البأس والتضحية . والمرحلة الثانية اتخذت شكل المعارضة السياسية في المدن (١٩٣٠ - ١٩٤٢) . وفي المرحلة الثالثة انضمت الحركة العمالية الى المقاومة الوطنية (١٩٤٥ - ١٩٥٠) . وأخيراً التحمت فئات الشعب كلها في تيار قومي شامل وعنيف غمر المدن والقرى على السواء (١٩٥٠ - ١٩٥٥) . ونحن في الشرق العربي نذكر أسماء كثيرة من مجاهدي المغرب وأبطاله وزعمائه ، كحامو أرْمُحا ، وعبد الكريم الحطايي وعلال الفاسي وأحمد بلا فريج ومحمد الوزاني ومحمد اليزيدي الخ .. ولكن هؤلاء ليسوا سوى قطرات في البحر الكبير . يقول القائد الفرنسي غيوم : لم نأت الينا أية قبيلة دون قتال مرير ، وماخضعت لنا قبيلة واحدة قبل أن استنفدت آخر وسائل المقاومة . وإذا كان يهتكم أن تعرفوا الوسائل النذلة التي لجأت اليها فرانساً في محاربة المراكشيين فأجيبكم الى كتاب السيد البرت عياش ، حيث تجدون (عينات) ممتعة عن وسائل التمدين الفرنسي ، كتسميم الآبار وحرق الغلال وتدمير القرى على أهلها الابرياء . وهذا المؤلف نفسه يجمع حقائق رائعة اعترف بها القادة العسكريون ، أمثال ليوطي وغيوم وغورو وغيرهم ، عن بذل المراكشيين أرواحهم الغالية للحفاظ على صخور جبالهم الفقيرة . كان النساء في ساعات الحرج الى جانب الرجال يوزعن الزاد والماء تحت القذائف الحاصدة ويحملن الجرحى ويأخذن مسكان المستشعدين في خطوط النار . وكان الرجال والنساء والأطفال ، يبين لا يبيدون ماءً ولا طعاماً ، يستسلمون الى الموت ولا يستسلمون الى العدو .

تجدون في اعترافات قواد فرانس الكبار أن ثورة الامير عبد الكريم التي أخذت عام ١٩٢٦ كان قوامها ٧٥ ألف مراكشي ، بينهم عشرون ألف مسلح فقط . وكم حشدت لهم فرانساً ؟ ٣٢٥ ألف محارب يقودهم ستون جنرالاً .. فضلاً عن مائة ألف محارب من الاسبان ..

نعم ، لقد استطاعت فرانساً أن تربط الى ذيلها بعض الاقطاعيين النخريين

والمشايخ الضالين ، كالجلاوي والجندافي والمتوجي وعبد الحفي الكتّاني ؛ الا
أن هؤلاء - سكارى الحيانة المعتقة - كانوا في مراکش على كل حال قلة
يسيرة بالقياس الى من سار بركاب المانيا من الافرنسيين حين علمتهم النعال
النازية في الحرب الاخيرة .

واليكم الآن اشارات عابرة الى بعض نقاط الارتكاز في التطور
السياسي لمراكش الحديثة :

١٩٣٠ - صدور (الظهير البربري) الذي هدف الى التفريق بين العرب
والبربر واخراج هؤلاء الاخيرين من نطاق التشريع الاسلامي ، بانتظار
الجو الملائم لادخالهم في الديانة المسيحية . وقد أثار هذا الظهير ضجة مدوية
في العالم العربي والاسلامي .

١٩٣٤ - تأليف أول حزب سياسي مراكشي باسم (كتلة العمل
الوطني) . وضع برنامج الاصلاحات المغربية ومطالبة السلطان وفرانسا
بتطبيقه .

١٩٣٧ - انشطار كتلة العمل الوطني الى حزبين : الحزب الوطني
والحركة الشعبية . اندلاع الثورة في المدن المراكشية الكبرى . تعطيل
الاحزاب وتشيتت القادة والزعماء .

١٩٤٢ - نزول الجيوش الانجليزية الاميركية في سواحل مراكش
واعادة البلاد الى حكم فرانس .

١٩٤٣ - اجتماع السلطان والرئيس الأميركي روزفلت في الدار البيضاء .
أمريكا تعد بمنح مراكش استقلالها .

١٩٤٤ - انصهار الحركات الوطنية في (حزب الاستقلال) واعلان
ميثاق الاستقلال . قمع فرانس بمعونة اميركا الحركة الاستقلالية ، اغلاق
المدارس واعتقال الالوف وقتل المئات من الاحرار .

١٩٤٧ - زيارة السلطان للريف ومنطقة طنجة ، حيث ألقى خطاباً
تاريخياً أكد فيه وحدة مراكش وطالب باستقلالها ، وأعلن أن بلاده جزء

لا يتجزأ من الرطن العربي ، وأثنى على جامعة الدول العربية .
 مذبحه الدار البيضاء : الجنود السنغاليون وضباطهم ينهبون المدينة
 ويفتكون بأهلها .
 هرب الامير عبد الكريم من باخرة كانت تقله من جزيرة الريثونيون
 الى أوروبا اثناء مرورها بقناة السويس واقامته في القاهرة .
 ١٩٥٠ - دعوة السلطان لزيارة باريز . فشل المفاوضات مع فرانسوا .
 ١٩٥٢ - ادراج القضية المراكشية فى جدول أعمال هيئة الامم . حل
 الاحزاب المراكشية وتعطيل الصحف ونفي الزعماء .
 ١٩٥٣ - عزل السلطان محمد بن يوسف ونفيه الى مدغشقر بالاتفاق مع
 لندن وواشنطن ، وتنصيب العميل محمد بن عرفة . ثورة مراكش كلها على
 الاستعمار . استبدال فرق (الفلاحة) المراكشية .
 ١٩٥٥ - عودة السلطان محمد بن يوسف الى بلاده وعرشه وتأليف أول
 حكومة وطنية .
 ١٩٥٦ (٢ آذار) - توقيع التصريح المشترك المغربي الافرني في
 باريز لالغاء الحماية .
 (٧ نيسان) - توقيع التصريح المشترك المغربي الاسباني لالغاء نظام
 الحماية عن منطقة الريف .
 (٢٦ تموز) - مجلس الامن يوصي بالاجماع الجمعية العامة لهيئة الامم
 بقبول المغرب عضواً في الهيئة الدولية .
 (٨ تشرين الاول) - عقد مؤتمر فضالة للاتفاق على عودة طنججة الى
 الحكم المراكشي .
 ١٩٥٧ - ثورة الاحرار في منطقة إفني على حكم الاسبان وايقاف
 الحركة بالسلاح الاميركي .

نبأ عجيب ذلك الذي اقتحمت به الاذاعات الاجنبية آذان العالم في الشهر الماضي: السيد الحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس، والمجاهد العربي الكمي، يلبس مسوح الوعظ وينصح جهة التحرير الجزائرية بأن تلقي السلاح أرضاً وتدخل في مفاوضات ودية مع الجلادين الافرنسيين ... انه يريدون ان يتفاوضوا مع من لا يتقبلون المفاوضة الا على اساس الاعتراف بأن العرب الجزائريين افرنسيون، وأن الوطن العربي الجزائري قطعة من فرنسا. بل انه يريدون ان يتفاوضوا مع من لا يريدون المفاوضة أصلاً ...

يقول السيد بورقيبة - ان لم يكن نصاً فروحاً - : يُنال باللطف مالا يُنال بالعنف. فكأنه نسي أن استقلال تونس بالذات قد انتزع بمجد الصمصام. لا، انه لم ينس، فهو مؤلف كتاب (٢٥ سنة من الصراع مع فرنسا) بالفرنسية. انه حتماً لم ينس، وهو لا بدّ ذاكر الاعتداء الفرنسي الدنيء في العام الماضي على قرية ساقية سيدي يوسف التونسية.

ولعل فخامة السيد بورقيبة قد عاودته أزمة الثقة بفرنسا، وبالجنرال دوغول على وجه التخصيص. ومن أجل ذلك يحسن أن يقرأ من جديد صفحات الماضي القريب. يحسن أن يقرأ ما كتبه هو بالذات او مانشره الحزب الحر الدستوري التونسي الذي كان له شرف قيادته في معركة التحرير. هذا كتيب أصدره الحزب المذكور عام ١٩٥١ عن (الحبيب بورقيبة - صفحات من كفاحه) نقرأ فيه حقيقتين ناصعتين :

أولاً - ان فرنسا في أي عهد ، ومهما كان لون حكامها ، لا يوثق بوعودها
ولا تؤتمن نواياها .

ثانياً - ان مساعدة الدول والشعوب العربية للبلد التونسي كانت ضخمة النتائج
في دعم جهاده وتحقيق حريته .

اننا نقرأ في هذا الكتيب : (ان بورقيبة كان وضع كل آماله في الحلفاء
وفرنسا الحرة) أثناء الحرب العالمية الثانية ، وانه (دعا الشعب التونسي
الى تأليف جبهة افرنسية تونسية بدون قيد ولا شرط للاشتراك في تحقيق
النصر للديموقراطيات) ، ثم تتالت الاحداث وأصبح بورقيبة (مقتنعاً انه
ليس له أن ينتظر شيئاً من فرانس ، سواء فرانس المحاربة ، او فرانس المحلصة
للمحور ، فرانس الجمهورية الرابعة او الجمهورية الثالثة . وما الاعتماد على
روح التفهم التونسي وحسن الادراك التونسي الامضية للوقت) .

يعزّ علينا ، أيها السادة ، ويعزّ على العرب كلهم ، أن يوصم السيد
بورقيبة بأنه انزلت الى مساومة فرانس على حساب الجزائر الضحية ، ابتغاء
مكاسب جزئية لبلاده . وهو قد ظفر بالفعل من حكومة دوغول الجديدة
ان تجلو الجيوش الفرنسية عن مراكزها في داخل تونس وتجمع في ميناء
بنزرت ، وقال أيضاً أن يمر انبوب النفط الجزائري عبر بلادنا الى البحر
المتوسط .

نخشى ، أيها السادة ، أن نخبيء للسيد الحبيب بورقيبة مغالته للغرب
خيبة امل جديدة ...

وحقيقة الوضع في الجزائر أن فرانس جعلت من تلك البلاد مستعمرة
اسكان واستثمار في آن واحد . فالمتوطنون الافرنسيون والمتفرنسون
لا يزيدون عدداً عن مليون ، ولكنهم ينتمون الى طبقات متفارة في الثراء :
رأسمالية وبورجوازية وعمالية ، مستمسكة كلها بالبقاء في البلاد . ولذا فان
جميع الاحزاب الفرنسية ، يسارية كانت ام يمينية ، تحرص الحرص كله على
ملاءمة موقفها مع مشيئة أنباعها ومريديها هناك .

وفي وضع مثل هذا يصعب أن يتوَّلد في فرنسا تيار عتي جارف يعصف بالحكومات والاحزاب ويحملها على ترك الجزائر لاصحابها الأصليين . ومن هنا كانت مهمة جبهة التحرير الجزائرية عبءة كل العسر ، فهي لا تريد الحرب مع فرنسا لتقتيل جنود فرنسا - وأكثرهم من المرتقة - بل لتكره الرأي العام الفرنسي على قلب موقفه من الجزائر عن طريق تقويض الاقتصاد الفرنسي وانهك الحزينة الفرنسية . ويمكن القول - رغم عون الولايات المتحدة ، وكدت أقول رغم أنفها - ان جبهة التحرير قد جرفت إليها بعد اربع سنوات من الجهاد المستميت أكثر من ثلث الرأي العام في فرنسا .

وسياسة فرنسا في الجزائر تخبَّطت ولا تزال تتخبَّط بين الحكم المدني والحكم العسكري . الا أنها فيما يخص السكان الاصليين سياسة صريحة واسعة هي سياسة التمثل والادماج ؛ وقد أتى الجتروال دوغول الآن يعمق جذور هادستور الجمهورية الخامسة بعد ثورة العسكريين الفرنسيين في الجزائر خلال شهر ايار الماضي . على أن شيئاً جديداً في مشروع دوغول يستلزم الحيطه والحذر . وذلك أن الجزائر العربية اعتبرت قطعة من الارض الفرنسية منذ عام ١٨٤٨ ؛ ولكن هذا الاعتبار كان وحيد الطرف ، أعني أن أصحاب البلاد الشرعيين لم يعترفوا ولم يطلب اليهم الاعتراف بوثيقة الادماج . فكان مثل الفرنسيين مثل اللص المفرق في الصفاقة الذي يقتحم داراً بملوكة لاهلها فيجلبها ويكتب بيده صك استملاكه لها ويبرزه على الملأ كوثيقة شرعية أصولية . والجديد في مشروع دوغول أنه يرمي عن طريق الاستفتاء بالاكراه الى حمل الجزائريين على تثبيت عبوديتهم بخط ايديهم . (١)

ومن المؤكد أن فرنسا انتوت ضمّ الجزائر منذ ان غزتها جيوشها يوم ١٤ حزيران عام ١٨٣٠ ؛ ولذا بادرت الى الغاء مظاهر الادارة الوطنية وأطاحت بحكومة الدايات التي كانت تدبر البلاد

(١) جرى الاستفتاء في ٢٨ ايلول ١٩٥٨ على نحو ما تنبأنا به .

برضاء السلطنة العثمانية البعيدة .

وأحب هنا ان أسجّل واقعة تاريخية غير ذائعة بيننا ، وهي اشتراك محمد علي والي مصر في التآمر على الجزائر مع صديقه المخلص فرانسوا . ومن الغريب حقاً أن ينسب اليه بعضنا المحاولة الاولى لوحدة العرب في الازمنة المعاصرة ؛ فهو بعيد البعد كـه عن التفكير في القومية العربية بالمعنى الذي نفهمه ؛ ولكنه فكّر دون ريب في انشاء امبراطورية على أرض العرب ، ضد العرب ولانتهاج العرب ..

هذا الألباني المطامع تقدّم الى صديقه الوزير الفرنسي بولينياك بمشروع مريع ، يتعهد فيه أن يحتلّ الجزائر وتونس وطرابلس الغرب لحساب فرانسوا ، حتى يمتدّ نفوذها - كما جاء في المشروع - من الضفة الافريقية للبحر المتوسط الى قلب آسيا . ودام التفاوض على هذه الخطة المجرمة ستة أشهر ، كما يروي الكاتب الافرنسي (غابرييل ايسكر) ، وآثرت فرانسوا في النهاية أن تحتلّ القطر الجزائري بجيوشها هي ، حتى لا تستثير الغضب البريطاني . وبعد سنتين من ذلك اقتحم محمد علي سورية بتشجيع فرانسوا ومؤازرتها . وسوف نشير الى تأييده فكرة التوطن اليهودي في فلسطين منذ ذلك التاريخ .

وماذا أقول ، أيها السادة ، عن كفاح اخوتنا الجزائريين المتعدّم المثل في سجل الشرف الانساني ؟ ماذا أقول عن جراحاتهم النبيلة دائماً والندية دائماً ؟ وآلامهم المقدسة المتصلة الهدير ؟

ففي يوم واحد من شهر أيار عام ١٩٤٥ فتكت مدافع دوغول وطائرات دوغول بثمانين ألف جزائري لا ذنب لهم الا التعلق بتراب الوطن الطيب . وفي الشهر ذاته كان دوغول يصب علينا الحمم في دمشق وغيرها من مدن الاقليم السوري .

هذه صفحة من حضارة فرانس - حضارة الدم - اقرأ لكم بعض
سطورها من منشور حزب الشعب الجزائري . يقول المنشور :
« في اللحظة التي أكرهت فيها الجيوش المتحالفة قوات النازي
على الاستسلام ، وفي اللحظة التي احتفلت بحبو الحرية والسلام
وسط معالم الفرح والسرور بالقضاء على الفاشية ، مستبشرين ببداية
عهد جديد من العدالة ورعاية الحقوق ؛ في هذه اللحظة المجيدة التي
اهتمت لها القلوب النقية والنفوس المؤمنة بالحرية ، جاءت حوادث
شهر مايو ١٩٤٥ التي وقعت في بلاد الجزائر قاضية على آمال شعبنا
ذلك الشعب الذي ضحى بثروته وأمواله وبنخبة طيبة من بنيه في
سبيل النصر المشترك .

ولم يكن ذلك الدم الجزائري المسفوح هذه المرة جريرة أخرى
من جرائم النازيين او الفاشيين ، بل ان الذين أراقوه هم بعينهم
الذين حرّروهم الجزائريون انفسهم - بالاشتراك مع سائر القوات
المتحالفة - من نير الاحتلال النازي ..

فياله من اسلوب رائع ، ذلك الاسلوب الذي اتخذته فرانس
المتحررة للتعبير عن شعائر الشكر لمُحرّريها .. مذكرة ايّاهم أن استعمارها
المقيت لهم باق فوق صدورهم أبد الزمان ..

وان الشعب الجزائري الذي كان قد بنى الآمال الكبار ، اعتقاداً منه
أن بنيه لم يموتوا في الحربين العالميتين الاخيرتين عبثاً ، ليرى نفسه ، وقد
رُدّته الى الواقع الاليم تلك الصدمة الفادحة ، ذلك الواقع الذي ظل الشعب
الجزائري يزرع تحته منذ سنة ١٨٣٠ .

فالرابع عشر من شهر يونيو من تلك السنة المشؤومة هو تاريخ ابتداء
هذه المصائب المتصلة التي ظلت تنصب فوق الجزائر ..

أجل ، في الرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٣٠ انقضت علينا أمة
منهومة الى التوسع ، ظمّانة الى السطوة والاتراء ، معلنة الحرب ، حرب

فتح وغزو سيخلدها التاريخ مثالا للعدوان المسلح ، وصورة كريمة لمبدأ الحق للأفوى .

فماذا كانت سمات هذا الفتح الفرنسي ؟

لقد كانت - وما أكثرها - تتميز بالاستهانة بالارواح الانسانية ، وبأعمال الوحشية التي تقشعر لها الابدان ، مثل احراق الجزائريين احياء داخل كهوف مغلقة عليهم لكي لا يستطيعوا من النار فراراً ، اورفع الاطفال الابرياء فوق أسنة حراهم المسنونة محترقة أحشاءهم بارزة من ظهورهم ، كأنها أعلام النصر ..

وكم من مدينة أحرقتها على أهلها ، أو نهبوها واستباحوا أعراض نسائها ، وكم من قرية أحرقتوا زرعها وأهلكوا ضرعها وأفنوا أهلها افناءً منتظماً ، بادئين بالشيوخ والاطفال والحريم ، لانهم أسهل منالا ، ولا سلاح لهم الا الصراخ الى السماء أن تصب لعنتها على رؤوس الظالمين ...

تلك المحازي يروها بفخر ومباهاة كلوزهل وبوجو وفاليه وسانت آرنو وغيرهم من قواد فرانسا العظام الذين كانت لهم يد أئيمة في بسط الاستعمار الاسود على الجزائر البيضاء . وما يجري اليوم في هذا البلد الشهيد ليس بدءاً في التقاليد والاعراف الفرنسية العريقة في الحزبي . ولجئمة بوحيرد في ماضي العذاب الجزائري عشرات الالوف من الاخوات . واذا بلغ عدد صرعى الحضارة الفرنسية في صرود الجزائر وجرودها ثلاثة أرباع المليون منذ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ حتى الآن فقد سبقهم على درب الشهادة مليونان على أضعف تقدير .

وقد جربت فرانساً هنا كما جربت في مراکش أن تنصم عسرى الود والاخوة المتوثقة بين العرب واليهود منذ سالف الدهور ؛ وهؤلاء الاخيريون يمثلون في البلاد ٣٠ بالمائة من جملة السكان ، ومنيت فرانساً هنا أيضاً بالحياة وتبديد اليهود .

عنصر وحيد من عناصر السكان استطاعت الدولة المستعمرة اجتذابه

اليها هو عنصر اليهود ، وعدددهم نحو من مائة وعشرين ألفاً ، وقد أهداهم
الوزير اليهودي الفرنسي كرميو الجنسية الفرنسية منذ عام ١٨٧٠ . وهذه
مناسبة حسنة لنذكر أنه كان لتاجر يهوديين علاقة مباشرة بسطو فرانسوا
على الوطن الجزائري .

ونحن في الجمهورية العربية المتحدة لنا مواطنون كثير يتحدرون أصلاً
من أسر جزائرية وفدت الينا مع الأمير عبد القادر او هاجرت أنفأ من
الخدمة العسكرية في الجيش الافرنسي التي فرضت على المسلمين منذ
عام ١٩١١ .

وانني لعاجز ، أيها السادة ، أن أعدّد قادة النضال الجزائري الشهداء منهم
والاحياء ، فليكن ذكري لبعضهم على سبيل النموذج لا على سبيل الحصر
أمثال الأمير عبد القادر والمقراني والشيخ محمد الحداد وابو مزراق وأولاد
سيدي الشيخ وأبو عمامة والامير خالد الجزائري والشيخ عبد الحميد بن باديس
والشيخ البشير الابراهيمي والشيخ الطيب العقبي ومصالي الحاج وبلقاسم
وايماش وعباس فرحات واحمد بن بيلا وغيرهم . . وهم على اختلاف منازلهم
وأساليبهم كرام برة ، مخلدون في ديوان المروءات العربية ، هم والأحزاب
والمؤسسات التي انضوا فيها ، كنجمة الشمال الافريقي والنجمة المجددة
والاتحاد الوطني لمسلمي الشمال الافريقي وحزب البيان وجمعية العلماء المسلمين
وحزب الشعب ، وأخيراً جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي احتضنت جميع
اليهود وعبأت خير العزائم وأمسكت بمقود المبادهة منذ أربع سنوات ،
وأقسمت — وبرّت بقسمها — أن تحرق نبتة الاستعمار من جذورها فلا توفر
الأرض الافرنسية ذاتها من لهب المعركة الرهيبة .

تلك عصبة مؤمنة ينحني لها أحرار العالم تجلّة ومحبة . وبفضل التكتل
الآسيوي الافريقي اخترقت القضية الجزائرية أسوار الأمم المتحدة فقررت
المنظمة الدولية في دورتها الثانية عشرة مطالبة فرانسوا بالرجوع الى نهج
العدل والحق والديموقراطية الصحيحة .

ولابأس ، قبل اختتام رحلتنا في ماضي الجزائر وحاضرها ، أن نلهج الى وضعها الاداري وكيانها التشريعي بموجب النظم المفروضة عليها ، ولا سيما القانون الاساسي للجزائر الصادر في ٢٠ أيلول من عام ١٩٤٧ .

ينص هذا القانون على ان الجزائر تؤلف بمجموعة ولايات افرنسية ذات شخصيه مدنيه واستقلال مالي وتنظيم خاص .

والحاكم العام - عسكرياً كان او مدنياً - له في الجزائر صفة مزدوجة . فهو اولاً ممثل للجمهورية الفرنسية ، ومسؤول امامها وحدها ، يحمي مصالحها ويضمن ارتباط البلاد بها ؛ وهو يطبق القوانين الفرنسية النافذة ، ويتولى زمام الامن الداخلي والخارجي . وصفته الثانية انه يمثل للجزائر ذاتها ، يرأس جميع مصالحها وادارتها - عدا شؤون القضاء والمعارف التي ترتبط بالوزارات الفرنسية المختصة - ويضع موازنتها وينفذها ، بعد عرضها على الجمعية الجزائرية وتصديقها من الحكومة الفرنسية .

والجمعية الجزائرية - هذا البرلمان الكاريكاتوري - تتألف من ١٢٠ عضواً ، يمثل نصفهم ناخبي الدائرة الاولى وهم طبقة المتوطنين ومن هم في حكمهم ، ويمثل النصف الآخر غالبية السكان المسلمين .

وتنظر الجمعية في مشروع الموازنة المقدم لها من الحاكم العام ، ولها ان تتخذ بعض المقررات المحلية شريطة أن يقبلها الحاكم العام وأن لا تتعارض مع القوانين المقررة من الجمعية الوطنية الفرنسية .

وفي الجمعية الوطنية الفرنسية (مجلس النواب) ثلاثون ممثلاً عن الجزائر ، نصفهم عن الدائرة الاولى . وللجزائر ايضاً ١٤ ممثلاً في مجلس الجمهورية

(مجلس الشيوخ) موزعون بالمناصفة بين الدائرتين الانتخابيتين ، ولها
كذلك ممثلون في المجلس الاقتصادي ومجلس الاتحاد الفرنسي .
يقول الفرنسيون بجد يشبه الهزل : ماذا يريد الجزائريون اكثر
من هذا ؟ .. (١)

(١) اعلنت جبهة التحرير الوطني الجزائرية تشكيل حكومة جزائرية حرة يوم
الجمعة ١٩ ايلول ١٩٥٨ ، برئاسة السيد عباس فرحات . وابتهج العالم العربي كله بميلاد
الجمهورية العربية الجديدة .

٣ - الجمهورية التونسية

لعلّ خير بداية نفتح بها الحديث عن تونس هي الحديث عن السيد الحبيب بورقيبة ، الزعيم الذي استحقّ من مواطنيه لقب المجاهد الأكبر . والرجل اليوم قد جاوز وقدة العمر ، فهو في الخامسة والخمسين . ولكنه الى اليوم ملء العين جذوة وهمة وحماسة . وقد أُلّف المحاسن والمنافي حتى ملئت مقامه فيها . واذا كان السجن يُتوارث لقلنا أنه ورثه عن عمه وجده اللذين ثارا على حكم البايات فعرفا عتمة المحبس زمناً طويلاً .

والسيد الحبيب من مواليد مدينة (المنستير) على الساحل التونسي ؛ ولكنه أمّ العاصمة في سن الطفولة ، وهناك احتضنته المدرسة الصادقية فزوّده بالثقافة القديمة والحديثة . ويبدو أن المرض الذي ألمّ به في سن المراهقة لا يزال يطبعه بسرعة الانفعال حتى النزق . . ، وأتمّ تحصيله الثانوي في مدرسة فرنسية ، ثم أعانته المدرسة الصادقية على السفر الى باريز والفوز بشهادة الحقوق . وبدأ العمل الحر محامياً في العاصمة التونسية ، الا أنه وهب وقته كله ونشاطه كله للصحافة الوطنية ولل كفاح السيامي . وهو متزوج بافرنسية ، ويشغل ابنه الآن منصب سفير بروما ، ويحمل اسم ابيه . وسيرته الوطنية سنعرض لها بالضرورة لدى التحدّث عن دقائق الجهاد التونسي . اما آراؤه ومنعاه السيامي فنحب أن نستخلصها من خطبه ومقالاته الكثيرة .

أنقل لكم أولاً فقرات من مقال كتبه رئيس الجمهورية التونسية السيد الحبيب بورقيبة عام ١٩٥٧ في كتاب (هذه تونس) .

يقول السيد الرئيس :

« تونس التي تتقدم اليكم في هذا المجال هي تونس المستقلة . وهي فتية حيث احتفلت منذ وقت قصير بالذكرى السنوية الأولى لاستقلالها ، ولكنها مسنة بتقاليدها الوطنية العتيقة وبتقافتها التي يرجع عهدا الى آلاف السنين ؛ وهي صغيرة لاثراء لها ، وشعبها ضئيل العدد ولكنها كبيرة بالمركز الذي تحتله في قلب البحر الابيض المتوسط ، وثرية بجيوبتها وبأمالها وعزمها على الرقي . وان القيمة الروحية لاتقاس بالاحصائيات والارقام . وقد شاعت العناية الالهية ان تنبعث تونس في موقف يمتاز وسط البحر باعمت الحضارات . وتونس تطل من شرفتها المغربية على اوروبا وعلى الشرق . وسواحلها المضيافة تستقبل الرجال والآراء المتواردة من الشاطئين ، وهي الى ذلك مرتفع ينتصب حاجزاً وسط البحر عندما تعصف فيه عواصف يثيرها البشر .

وهذه المكانة الجغرافية الاستثنائية هي بلاشك التي حبت تونس بشخصيتها القوية ورسمت لها مصيرها . فهي أداة وصل ، وفي امكانها أن تقوم سداً بين العالم الشرقي والعالم الغربي . وتربة تونس مثقلة بدماء المعارك التي دارت فوقها عبر التاريخ ، وقد تجابه فيها أول الامر الغرب اللاتيني او الجرمانى مع الشرق الفينيقي أو الاسلامي قبل أن يمتزجا . وتبرز تونس اليوم في عالم يبحث عن التفاهم في صورة بلاد رسالتها التوفيق وقرار المودة بين الرجال والاديان والامم .

والصبغة التي اكتسبتها تونس بفضل موقعها الهندسي على مسافات متائلة بين اوروبا الغربية وافريقيا الشمالية وآسيا الصغرى أسندت اليها حقوقاً وواجبات ، منها اولاً وبالذات حقها في الاستقلال وسط خضم المنافسات والمطامع التي قد تؤدي بهذه القارات الى التناحر ، ومنها حقها في اسماع صوتها في المجتمعات الاممية وهو صوت يستمد قوته من الضمير ولا يستمدها من قرعة السلاح او من وهج الذهب .

اما واجباتها فيفرضها أيضا موقعها ، وهي عدم اغلاق الباب في وجه اصحاب المقاصد الصادقة الذين يحملون معهم طاقة روحية او مادية ، وهي أيضاً عرض التآون السلمي على أجوارها ، والسعي للتوفيق بين العالم العربي وعالم الغرب . وهناك أيضاً ضرورة فرضتها الجغرافيا وهي ان تيارات المبادلات تدفعها الى الأمم المتقدمة في ميادين التجهيز والواقعة على الساحل المقابل : انها في الوادي الاقتصادي لاوروبا الغربية ، لذلك فان عليها ان تختار مسلكها وترسم خطة لحياتها في العالم الغربي بوصفها دولة حرة تتساوى امام القانون مع الدول الاخرى .

ولست تونس في حاجة الى التغلب على اي احساس بالاحتشام كي تشارك مع الدول الغربية الكبرى ، لانها هي ذاتها امة قديمة تمّ تماسكها وبرزت شخصيتها منذ قرون . ولا تدعو الحاجة الى الرجوع الى عهد الأغالية الذين أسسوا مملكة القيروان بل يمكن القول بان الدولة التونسية قائمة الذات في حدودها الحالية منذ اتخذ الحفصيون في القرن الثالث عشر مدينة تونس عاصمة لمملكتهم ، ولم يتمكن الاحتلال التركي في القرن الخامس عشر ولا الحماية الفرنسية طيلة سبعين عاماً من النيل من وحدة تونس ولا من سلامة ترابها .

وتلمس هذه الروح التاريخية لتونس بصفة خاصة في تلك المئات من المدن والقرى التي تتناثر مزدحمة على طول الشواطئ الشرقية الممتدة على الساحل بين بنزوت وجرجيس والتي تكسّلتها الزياتين ومز الحكمة والسلم . وفي حياة هذه المدن وفي الهياكل التي مازالت أحجارها تنطق بذكرى المدينيات القديمة تكون الوعي القومي ونهضة الثقافة العصرية من عناصر حية . وفي هذه المدن التونسية امتزج البشر ، فداخلت الطينة البربرية عناصر متواردة من آفاق البحر الأبيض وشمال افريقيا ، وجاء الاسلام فكسا المدينة الفينيقية واللاتينية بردائه الذهبي ، ثم تفتّحت العقول للحياة العصرية بفضل اللغة الفرنسية وغنمت القومية التونسية غنماً كبيراً بكل ماتوارد

عليها دون ان تتنكر لماضيها او تفقد ميزاتها ..
وتونس لا تملك ذهباً في طبقات أرضها ، ولم يعثر حتى اليوم على النفط
ولكن مواردها مع ذلك ليست تافهة . وهي لاتعاني الفقر المدقع بل خطت
خطوات في سبيل الرقي بمساعدة الفرنسيين ..
وبعد ، أيها السادة ، ألا يُخَيَّل اليكم انكم كنتم تستمعون الى بيان
لأحد اقطاب الحزب القومي السوري ؟ مع الفارق بأن تونس تحل هنا
حل سورية .

لقد أشاد الرئيس بالذات التونسية وبالقومية التونسية وبالروح التاريخية
لتونس .. وكنا نحب له وللعرب جميعاً ان يفيض في الحديث عن الذات
العربية والقومية العربية والروح التاريخية للامة العربية .
ولا أحسب الا انكم قد دوّتم ايضاً عبارات الرئيس المغلّفة او السفارة
التي تحسر الاقنية الحديثة الموصلة بينه وبين الغرب ، وفرانسبالذات .. وتلك
وجهة نظر يخالفه فيها كثرة العرب بالرغم من المبررات الجغرافية والتاريخية
التي ساقها ؛ ولكن مالاخلاف فيه هي انها وجهة نظر يزكها الاخلاص .
وفي كتاب (هذه تونس) الذي أخرجه الحكومة التونسية نقرأ
ايضاً وصفاً لابس فيه ولا التواء لسياسة تونس الخارجية . نقرأ « ان تونس التي
ترتفع فوق الخلافات الزائلة ولا تتنازل عن شيء من ميزات شخصيتها تسعى
للظفر لدى الدول العربية باحدى مقومات سياستها القائمة على التوازن .
والتوازن هو بلاشك الميزة الجوهرية للسياسة الخارجية التونسية . وهو ليس
توازناً يقوم على حياد لا بد ان يصطبغ بالالتباس . بل ان تونس تريد الانتساب
لمجموعة الدول الحرة دون ان يخامرها اي عدااء لكتلة الدول الشيوعية .
وهي لاتخفي ميلها الى الديموقراطية الامريكية الكبرى . واجتماع الرئيس
الحبيب بورقيبة بالرئيس آيزنهاور في نوفمبر ١٩٥٦ بواشنطن سمح بادراك وحدة
وجهات النظر حول مشاكل دولية كبيرة .. »
تري ، هل أدرك سيادة الرئيس بورقيبة « وحدة وجهة النظر » مع

الرئيس الاميركي حول فاجعة فلسطين العربية ؟
توى ، هل يستسيغ الضمير العربي ان تميل تونس الى « الديموقراطية
الامريكية الكبرى » تلك التي تفنك في السر والعلن بحرية العرب وتقف
في وجه انبعاثهم ؟

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٥٥ يقف الزعيم بورقيبة في مؤتمر
صفاقس الذي عقده الحزب الحر الدستوري لبيور ملاينته التكتيكية
لفرنسيين ويدافع عن الاتفاق المعقود بين تونس وفرنسا في ٣ حزيران
من ذلك العام ، ذلك الاتفاق الذي منح تونس استقلالاً قزماً
أشوه ، والذي عارضه نفر من اصدقاء بورقيبة الحليص وعلى رأسهم الاستاذ
صالح بن يوسف .

وخطاب الاستاذ بورقيبة في ذلك اليوم المشهود يستحق ان يورد كله ،
فهو وثيقة تاريخية وانسانية في آن واحد ، وهو ايضاً سجل لتموجات
الرأي لدى الزعيم الكبير .

وانكم لتلاحظون الشبه القريب بين حجج الاستاذ بورقيبة في ذلك
التاريخ وبين حجج من أرادوا - عن حسن نية ايضاً - ربط سورية مع
فرنسا بمعاهدة عام ١٩٣٦ ، انسياقاً مع النظرية السائدة حينئذ ، وهي
نظرية (خذ وطالب) .

وانني موجه انظاركم الى الحاح السيد بورقيبة ، في ذلك الحين ، على
الصفة العربية الاسلامية لتونس ، وهذه ظاهرة تختلف فيها دول المغرب عن
شقيقتها في الشرق العربي ؛ ففي تونس وليبيا والجزائر ومراكش الاسلام
هو العروبة ، والمسيحيون هم الاجانب المهاجرون والمحتلون ، اما اليهود
فهم قلة منعزلة وقد هاجروا أصلاً من اسبانيا . ولذا يصعب على المغاربة
التفريق بين مفهوم القومية العربية ومفهوم الجامعة الاسلامية . ومن هنا
كانت سياسة الدول المغربية متقاربة في الولاء لتركيا ويران وباكستان
والدول العربية .

والبيكم الآن المقاطع الهامة من الخطاب :

.. « ان الأمة التونسية عربية مسلمة منذ اكثر من ١٣ قرنا ونصف قرن . وهي أمة مسلمة الاقلية ضئيلة . وستبقى عربية مسلمة الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين . وقد كافح هذا الشعب وفي مقدمته هذا الحزب للابقاء على عروبة هذه الديار واسلاميتها ، وضحي بالنفس والنفيس ، وسالت دماؤه ، واستشهد رجاله وابطاله منذ سنة ١٩٣٣ ، قاوم سياسة التجنيس التي كانت ترمي الى اخراج الجانب العظيم من الامة التونسية الى الجنسية الفرنسية ، وكافح ووقف في وجه الرصاص حتى اغلق باب التجنيس نهائياً ، وبقيت الأمة مسلمة عربية الى هذا اليوم وستبقى الى يوم يبعثون . وكافح سياسة اخرى لم تكن ترمي الى اخراج التونسيين من الجنسية التونسية بل الى ادخال الفرنسيين والجالية الفرنسية في الأمة التونسية لكي تصبح السيادة مشتركة دائماً ويبقى للجالية الفرنسية الاجنبية حق مشاع في سيادة البلاد . وحاول الاستعمار اعتبار الفرنسيين والاجانب مواطنين تونسيين يشاركون في الانتخابات كجزء من الامة التونسية ، فقام الشعب التونسي بأمره وقاوم ، واستشهد من استشهد ومات من مات . وكانت فرانس مستعدة لتمنحنا استقلالنا على هذا الأساس وباعتبار ان الامة التونسية اصبحت خليطاً ومزيجاً من فرنساويين ومسلمين عرب . فكان جواب الامة جمعاء ان لا يمكن ادخال الاجانب ، مهما يكن عددهم ومهما تكن قوة فرانس ، في صميم الامة التونسية ..

غير ان الشيء الذي من واجبي ان اصرحكم به هو انه بعد تصحيح وضعنا السياسي كأمة ودولة يجب ان تعلموا — وأنتم أعلم الناس بذلك — ان عربتنا وكوننا امة اسلامية لا ينبغي لنا ولا يفرض علينا ان ننزل عن الدنيا ، عن جاورنا من شعوب وامم ، بل يفرض علينا اذا كنا نريد خير هذه الامة ان نتعاون مع من لا يمانع في التعاون معنا من الدول العربية والاسلامية ، وغير العربية والاسلامية ممن ربطتنا بهم ظروف سياسية

وتاريخية ومصالح اقتصادية ، لكن على أساس واحد وعلى شرط هو ان يكون هذا التعاون حراً غير مفروض بالهيمنة بل في دائرة المصلحة المشتركة .
عندما نقول هذا لانقول شيئاً جديداً ، فنذ قديم الزمان ، منذ قرون ، منذ العهد القرطاجني والبلاد التونسية مرتبطة ومتعاونة بطبيعة موقعها مع كل من جاورنا من شعوب ودول وامم . ولما كنا نقاوم الاستعمار ، ونطالب ، وندعو لعدم التعاون مع النظام الفرنسي لم يكن ذلك لأنهم فرنسيون ولا لأنهم مسيحيون غير مسلمين ، بل لأنهم كانوا يريدون هذا التعاون على أساس القهر وأساس الاستعمار . فكنا ندافع عن كرامتنا ونقاوم كل تعاون ، ونعتبر كل من يتعاون مع المستعمر خائناً ، لان كرامتنا وشرفنا اغلى واشرف من المصالح المادية التي ربما تنجر عن ذلك التعاون ..

ان تونس الشرقية بثقافتها العربية ودينها الاسلامي ، الغربية بموقعها الجغرافي .. حرية متى أصبحت مستقلة لتكون همزة الوصل بين حضارتين عظيمتين يحق للبشرية جمعاء ان تفتخر بهما على حد السوى .

وهذه النظرية معقولة لانتشوبها العاطفة . واننا كافيحنا فرانساي حين كانت مستبدة ، وعندما نتخلص من استبدادها يجب ان نكون عقلاء ولانضم الحقد او العدا ، فالخلاف الذي كان بيننا وبين فرانساي زال او هو بصدد الزوال شيئاً فشيئاً ، لذا لانرى مانعاً من التعاون الحر ، بقدر ما يعظم حظنا من الحرية بقدر ما نزيد تشبهاً بالتعاون ..

ويسرني ان يشار كذا في هذا المؤتمر نواب من ابناء عمومنا ومن جميع الدول المحبة للآخي والسلام ، اولئك النواب الذين اتوا ليتعرفوا الى احوالنا ومشاكلنا وربما ليعينونا ، وهم الذين حنكتهم التجارب وتقدموا اشواطاً ذات بال في هذا الطريق الشاق ، طريق الحرية والاستقلال ؛ فمن واجبي ان أبسط امامكم باعتبارهم متضامنين معنا وباعتبار ان مصالحهم واحدة هذه الحقيقة :

لقد كانت الروابط التي تربطنا ببني عمومنا ضعيفة ، والاستعمار لم يعمل على تقويتها ، فأخواننا في الشرق يتذكرون انه منذ عشر سنوات تقريباً ، لما أردت ان اخرق النطاق الحديدي الذي كان بيننا وبينهم لم يكن بيدي جواز سفر ، ولم امتط الطائرة ، ولم اعلن عن وصولي ببرقية حتى أحلّ بارضهم مبعجلاً ، بل اضطرت ان اغادر بلادي خفية متنكراً وان اقامر بجياتي فأركب قارباً شراعياً واجتاز البحار ثم اقطع القيا في والصحاري في ظروف قاسية ثم ادخل مصر بصورة غير قانونية ، فيلقى عليّ القبض بقرية تبعد عن الاسكندرية بما يزيد عن المائة كيلو متر ، واصل القاهرة مخفوراً بضباط ، وافرج عني ، فأمكن لي ان اتصل برجال العرب وزعماء الجامعة العربية . كل ذلك يقيم الدليل على اننا كنا نعيش في ظروف لا يتصورها العقل وكان اخواننا بالشرق يجهلون عنا كل شيء ، فكانوا في كثير من الاحيان يعجبون لانني اتكلم عربياً ويقولون :
انت تتكلم عربياً ..؟

لقد كنا منعزلين ، وبعد جهود بذلتها اثناء اقامتي قويت رابطة الاخوة والتآلف . ولا يمكن للشعب التونسي ان ينكر أيادي اخواننا العرب في المشرق وفضلهم ، فقد اقبلونا كابناء بل مواطنين ، ومكنونا من مواصلة الكفاح وتصدوا لعداء الاستعمار الفرنسي والحكومات الفرنسية ومضايقتها ، ولم نسمع منهم رغم احراجنا اياهم - وهم الذين لم تكن بينهم وبين فرانس خصوصية - لم نسمع اي تدمر ولم يسبدوا اي رجاء في ان نعتدل في لهجتنا وان لانقول اي شيء عن فرانس ، بل كانوا دائماً وابدأ بالرغم عن مشاكلهم الخاصة وابتلائهم باستعمار آخر انجليزي او غيره يطلبون منا ان نعتبر انفسنا في بيوتنا مواطنين مثلهم لنا مالهم وعلينا ماعليهم . من واجبي ان اشهد اليوم بذلك امامهم حتى يسجل التاريخ هذه الأيادي البيضاء ، وسيدكر التونسيون جيلاً بعد جيل ماقدّمه لنا اخواننا العرب من اعانات وما ضحّوا به في سبيل مناصرتنا في كفاحنا .

وما قلته ضروري كذلك ليعرف الجميع كفاحنا والملابسات التي كانت
تكتنفنا ، اي ان يعرفوا الوضع التونسي ووضع الحكومة التونسية
والاستعمار الفرنسي ، وحتى لا ينظروا الى مشاكلنا نظرة سطحية معتبرين
الاستعمار واحداً ، هو هو في سورية والعراق ومصر الخ .. وانني احذر كم
كما كنت افعل دائماً من هذه النظرة البسيطة ، لان تونس لها وضع خاص
أوجب علينا ان نتخذ في سبيل غايقتنا المنشودة اساليب وخططاً ربما لم يقدرها
اخواننا في الشرق حتى قدرها وربما استضعفوها . وموقفهم هذا لا يستغرب
لانهم لا يتصورون الحالة التي نحن عليها ، فمن واجبي ان أبسط لهم الحالة
الحقيقية ...

لقد ابتلانا سبحانه وتعالى بهذا النوع من الاستعمار الذي لا يكتفي
باستثمار خيرات البلاد ولو على أساس القهر ، وباستغلال مواقع جغرافية ، بل
باستعمار كان يرمي جهاراً الى امتلاك الارض ومن عليها معتمداً على قوته
العسكرية ومحاولاً فرنستها ومسح الادمغة والارواح والقلوب ، بوضع
برنامج ثقافي يعلم النشء ذكوراً واناثاً تعليماً مشوهاً ينسبهم لغتهم وثقافتهم
وتاريخهم وجغرافيتهم ويفصلهم عن بني عمومهم . وكان ايضاً يمتلك الاراضي
بجميع الطرق لفائدة الاجانب من ايطاليين واسبان وغيرهم لما لم يجد فرنسيين ،
ويشجعهم على ان يستقروا في البلاد باعتبارهم اصحابها .

فلما دخلنا معمة الكفاح وجدنا الامة التونسية لا تقامى حماية لفظية
تشبه حماية بريطانيا على مصر سابقاً ... لقد كان حكماً مباشراً آل الى
جعل هذه البلاد بعد اجيال اشبه شيء بمقاطعة فرنسية . ولو استمر لأصبحنا
فرنسيين ، بحيث لا يمكن ان نسترجع شخصيتنا منها كان الامر حتى باضمحلال
فرانسا نفسها ..

كل ذلك يوضح موقف هيئة الامم المتحدة في قضيتنا اذ اعتبرتها قضية

داخلية تمّ فرنسا كما يحدث بين حكومة باريس ومقاطعة من مقاطعات فرنسا . وقد شب الفرنسيون منذ صغرهم على الاعتقاد بذلك ...

... كانت فرنسا يتنازعها تياران : تيار الاستعمار الغشوم الرامي الى الحاق الامم الاخرى بالغزو والحرب ، ككثفه ذلك ما كلفه ، وتيار التفهم والمرونة واعطاء كل ذي حق حقه والاستعاضة عن النظام البالي بنظام جديد يحفظ كرامة الشعوب ويمكنها من التعاون الحر .

فكنا دائماً نحاول تقوية القسم الثاني من الفرنسيين ، ونحاول ترجيح كفتهم ، وقد نجحنا . فأصبح البرلمان الذي كانت اغليسته الساحقة تناهضنا يؤيد سياسة حكومته .

والحزب الدستوري التونسي منذ تأسس وضع لنفسه منهاجاً امتاز به عن غيره من الاحزاب المتطرفة ، فكان يقبل كل ما تتنازل عنه فرانساً ليستثمره حتى يخطو خطوة جديدة الى الامام ، وقد سلكنا هذا السبيل لانه لا يمكن التخلص من الاستعمار بهذه البلاد بالقوة والحرب ، وليس في مقدور اي شعب اليوم ان ينجدنا بقوة عسكرية تقضي على الهيمنة الفرنسية رغم انفس المستعمرين ، ونحن أمة صغيرة نعد ثلاثة ملايين ونصف المليون ، دبر الحزب خلاصها خطة فيها الرأي وفيها القوة ، ترمي الى تخليصها من السيطرة الفرنسية بموافقة فرانساً ...»

ونحن ، ايها السادة ، لا ننكر تلك « الستراتيجية » المرنة التي استمسك بها الحزب الحر الدستوري ، ولكننا نتساءل - ويحق لنا ذلك - فيما اذا كانت سياسة اللين هي التي حبت تونس باستقلالها الكامل في النهاية ؟ !

ونحن ايضاً نسجل بامتنان للسيد بورقية شكره الشعوب العربية على احتضانها القضية التونسية ومظاهرتها وشدّ أزرها ، الا أننا كنا نرتقب من الزعيم العربي ، ولا تزال نرتقب ، أن يشير مرة واحدة على الاقل الى عزمه

على قيادة بلاده في طريق الوحدة العربية المنشودة .

وليكن واثقاً الثقة كلها أن استقلال تونس الذي انتزع من خلال الدماء والدموع سيضيع في الدماء والدموع اذا لم تتحقق وحدة العرب وتعظم قوة العرب . ومن المؤكد أن الرئيس بورقيبة قد سمع تصريحات قواد فرانسوا الكبار ، الذين جاھروا دون احتشام أنهم سينقضون على تونس ومراكش اذا تم لهم القضاء على الثورة المجيدة في الجزائر . ومهما يكن الامر فاننا على مثل اليقين بأن تونس ومراكش لا بد وان تخرجا من عزلهما عن الدنيا العربية الواسعة ، وتلتزما سياسة المصير العربي المشترك ، وستكون أول باذرة في هذا التحول المقبل الانتماء الى جامعة الدول العربية (١) .

والآن ، ردة قصيرة الى قصة تونس الحديثة ، مآسيها وآثرها ، نستلها بالحائنة :
في يوم الخميس الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٥٧ أعلن المجلس التأسيسي التونسي الغاء النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري . وقد خلع محمد الامين تاسع عشر امير من الاسرة الحسينية ورفع السيد الحبيب بورقيبة الى مقام رئاسة الجمهورية .
وهذا نصّ القرار التاريخي :

« نحن نواب الامة ، اعضاء المجلس التأسيسي ، بمقتضى ما لنا من نفوذ كامل مستمد من الشعب ، وتدعيماً لاركان استقلال الدولة وسيادة الشعب . وسيراً في طريق النظام الديمقراطي الذي هو وجهة المجلس في تسطير الدستور ، نتخذ باسم الشعب القرار التالي النافذ المفعول حالاً :

١ - نلغي النظام الملكي الغاء تاماً .

(١) أعلنت كل من مملكة المغرب وجمهورية تونس عن رغبتها في الانضمام الى الجامعة العربية في شهر ايلول ١٩٥٨ ، بعد زيارة وزير الخارجية العراقية لها . وقبلت الدولتان في مطلع تشرين الأول . وفي اليوم الحادي عشر منه عندما كانت الجامعة ترحب بانضمام تونس وقف رئيس وفدها وهاجم الجامعة وكال التهم للجمهورية العربية المتحدة .

٢ - نعلن ان تونس دولة جمهورية .

٣ - يكلف رئيس الحكومة السيد الحبيب بورقيبة بمهام رئاسة الدولة على حالها الحاضر ، ريثما يدخل الدستور في حيز التطبيق ، ونطلق عليه لقب رئيس الجمهورية التونسية .

٤ - نكلف الحكومة بتنفيذ هذا القرار واتخاذ التدابير اللازمة لصيانة النظام الجمهوري ، كما نكلف كلاً من رئيس المجلس والامين العام لمكتب المجلس والحكومة بإبلاغ هذا القرار الى الخاص والعام . أصدرناه في قصر المجلس بباردو في ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٦ وفي ٢٥ جويليه ١٩٥٧ .
وهكذا استقر الباي السابق وامسرت به بالمنزل الذي خصص لهم في (منوبة) ، وطويت صفحة عهد بدأ في ١٧ تموز عام ١٧٠٥ ودامت ٢٥٢ سنة .

والبيت الحسيني هذا كريدي الأصل تركي الطقوس والتقاليد . ولقد مرت تونس في ظله بأحداث مماثلة في أكثر من جانب لأحداث مصر في ظل اسرة محمد علي .

فالباي احمد شهد مصير الجزائر المظلم وآلى أن يحوط استقلال بلاده بجيش حديث اوروبي التدريب . والباي محمد رأى في مبادئ الثورة الفرنسية وسيلة للانتهاض بالمجتمع التونسي ، فأصدر عام ١٨٥٧ « عهد الأمان » أي « وثيقة حقوق الانسان والمواطن » . ومنح الباي محمد الصادق دستوراً لشعبه عام ١٨٦١ يُعتبر بحق أول دستور من نوعه في البلاد العربية ، وقد أقامه على أساس الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، حتى أنه جعل للمجلس التشريعي حق خلع الباي اذا تنكّب عن نصوص الدستور .

والشبه بين مصر وتونس يتبدى على وجه الخصوص في سياسة الامراف
ثم الاستدانة من الدول الاجنبية بتشجيع منها ، وبالتالي قبول الاشراف
الدولي ، ذلك الطريق المتهد للاحتلال . وكان مؤتمر برلين قد قرّر لتونس
ومصر هذا المصير منذ عام ١٨٧٨ . وغلب الشعب التونسي على أمره ،
وقرّض الغزاة الفرنسيون على الباى الصادق معاهدة باردو أو القصر السعيد
عام ١٨٨١ ، وألحقوها عام ١٨٨٣ بمعاهدة اشد نكالا وهي معاهدة المرسى .
ودخلت البلاد في عهد الحماية والادارة المباشرة ، ودخلت ايضا في عهد
كفاح وطني يزأر حيناً ويخفت حيناً آخر .

وليسمع الاستاذ السيد بورقية ان نذكره بأن العرب المشاركة لم
يكونوا على جهل بما يجري في تونس الحبيبة الحضراء .. ولعله أدري
الناس بالصلات الحميمة التي كانت تربط دائماً بين مصر والشام والقطر
التونسي . فأين عاش الشيخ عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الحر
الدستوري القديم في خريف حياته ؟ او لم يزر تونس الشيخ محمد عبده
ومحمد فريد ويضعاً مع زعمائها المناضلين خطط الكفاح ، كفاح الافرنسيين
والانجليز في آن واحد ؟ ..

تعتبرني الدهشة ويتملكني الدهول حيناً يروي الاستاذ بورقية اننا
كنا في الشرق العربي لا نعرف انه « يتكلم عربياً » على حد تعبيره .. وانتم
بلا شك ذاكرون كيف زحفت سورية كلها لاستقبال الزعيم الكبير عندما
شرّفها بزيارته في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فهل كانت سورية تجهل من
هو بورقية ؟

لندع كل هذا الآن ، ولنعد الى كفاح تونس . وهنا ايضاً أعفي نفسي
وأعفيكم من التعداد والسرد الطويل ، وأكتفي بالامثلة . فالجهاد على
جميع المستويات بدأ في تونس كما قلت منذ اليوم الاول للاحتلال . وتشريد

القادة والزعماء والفتك بالمجاهدين وذبح المواطنين وتدمير المدن والداكر .. كل ذلك لم يبدأ بعد عام ١٩٣٣ كما أحب أن يدون الاستاذ بورقيبة .
ومن دواعي الغبطة أن كتب التاريخ المدرسية في تونس تذكر الشيء الكثير عن مآثرات القادة الأول ، أمثال الشيخ محمد السنوسي ومحمد العربي زروق والشيخ المكي بن عزوز وعلي بن خليفة ، وهي تروي العجب عن معارك سوسة والقيروان و صفاقس ، وعن الجهاد الشعبي الرائع في الجبال وفي البوادي .

و « أبو النهضة التونسية » السيد البشير صفر ؟ وأساتذة الزيتونة والصادقية والخلدونية ؟ كل اولئك رُسل الوعي وأنبياء القومية العربية .
ويستحق الزعيم الخالد (علي باش حامبه) أن يُفرد له سفر خاص في تاريخ العرب الحديث ، فهو مؤسس صحيفة (التونسي) منذ ١٩٠٤ و منشيء حزب (تونس الفتاة) على غرار حزب (تركيا الفتاة) ؛ وبدافع منه ألف اخوه محمد لجنة الكفاح التونسية الجزائرية ؛ وجعل من تونس عام ١٩١١ معقلاً لمجاهدي طرابلس الغرب ضد الفتح الايطالي ، وقاوم حركة التجنيس ووقف في وجه تسجيل الاملاك التونسية باسم المستعمرين الاجانب ، وكان على رأس ثورة ١٩١١ ، حين بلغ الجشع بفرانسا ان مدت يدها الى المقابر الاسلامية لدرسها وتوزيعها على المستوطنين ، تلك الثورة التي تلاها اعدام الثوار شقاً وبالجملة كالبطل الجرجار وغيره ..

وكان علي باش حامبه ايضاً روح ثورة عام ١٩١٢ التي اتخذت من اضراب عمال الترام ذريعة لاستدامة المعركة مع المعتصين . وكان لا بد لفرانسا ان تنتقم من الزعيم الكبير ، فأبعدته وصحبه عن البلاد ، فقصده الى تركيا ، كما قصد الشيخ الثعالبي الى الجزائر ثم الى فرانسا .

ولم تعق الحرب العالمية الأولى شعب تونس عن مواصلة الجهاد ،
فاستمرت ثورة بني زيد في الجنوب التونسي من ١٩١٥ الى ١٩١٧ ، وتالتق
فيها اسم البطل الكبير سعيد بن عبد اللطيف .

وذهبت عبثاً جهود التونسيين في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ ، وأيقنوا أن
من يطمع في الحرية عليه ان يفوز بها غالباً .. والى ذلك التاريخ بالذات
يعود تأسيس (الحزب الحر الدستوري التونسي) الذي حظي بتأييد الباي
محمد الناصر ونجله محمد المنصف ، وترعاه الشيخ عبد العزيز الثعالبي بعد عودته
من فرنسا عام ١٩٢٠ حيث نشر كتابه المشهور (تونس الشهيدة) .

ولا يسعني المضي إثر الانتفاضات التونسية يوماً بعد يوم . وأستطيع
أن أجمل تاريخ تونس كله ، منذ الحرب العالمية الاولى حتى عام ١٩٥٦ ،
بأنه حلقات من الوعود تجود بها فرنسا حين يصب عود القادة التونسيين
وتنهال على ظهرها ضربات الشعب التونسي القاصمة ، ثم حلقات معادلة لها من
التراجع والكذب والنكول بالعهد ومنح (اصلاحات) ظاهرية ، بعد أن
يلين القادة وتهافت عزائمهم وتهدأ ثائرة الشعب . وبماذا كان يطالب القادة
التونسيون ؟ بالاصلاح الداخلي أولاً ، ثم بالاستقلال الذاتي فقط وعلى
مراحل .. شأنهم في ذلك شأن القادة المراكشيين .

ويجب القول بأن عام ١٩٤٦ كان فجر التبدل الأعظم في تاريخ البلدين ،
وهو العام الذي تلا تأسيس الجامعة العربية وبزوغ قوة العرب . منذ ذلك
العام فقط بدأ الحديث في المغرب عن الاستقلال الكامل غير المنقوص .
في تلك السنة بالذات انعقد في تونس مؤتمر مشهود ، خرج بميثاق تاريخي
خطير عرف باسم (ميثاق ليلة القدر) ، يعلن عزم الشعب التونسي
الثابت على نوال استقلاله الام والانضمام الى جامعة الدول العربية والأمم
المتحدة . وكانت سورية ولبنان قد فازتا بالاستقلال .

هذه المستنتجات تبرز لكم من خلال الوقائع التي سأختيرها لكم من
قصة تونس الحديثة .

١٩٢٢ - تطالب فرانسوا الباي محمد الناصر بالتنكر للحركة الوطنية او
اعتزال العرش . القوات الفرنسية تحاصر قصر الباي . الشعب التونسي
يزحف على الأقدام لاكماله الفرق الفرنسية على الانسحاب . وفاة محمد
الناصر في ظروف غامضة . . وتولية محمد الحبيب . فرانسوا تتقدم بمشروع
(اصلاحات) لاتخدم الا النفوذ الأجنبي وتعلن قوانين قمع وإرهاب
استثنائية . وهن الحركة النضالية بسبب انقسام الوطنيين الى فريق يرى
الرضا بما أعطت فرانسوا ويدعو الى التعاون معها ، وفريق يعتم بموقف
الصلد لتحقيق الرغبات الوطنية .

١٩٢٣ - سفر الشيخ الثعالبي الى الشرق .

١٩٢٦ تشديد الحناق على التونسيين واصدار فرانسوا لسلسلة (القوانين
الغادرة) ، وهو عام القضاء على ثورة الريف المراكشي والثورة السورية .
١٩٢٩ - تأسيس جريدة (صوت التونسي) والتفاف الشباب
الوطني حولها .

١٩٣٠ - اشتداد الحركة الوطنية لمقاومة عقد المؤتمر المسيحي
الأفخارستي في تونس ، ولمنع الاحتفال بمرور خمسين سنة على الاحتلال
الفرنسي . اختيار الحبيب بورقيبة وشقيقه والدكتور محمود المطري
والطاهر صفر لادارة جريدة (صوت التونسي) . إحالة فرانسوا هيئة التحرير
الى المحكمة .

١٩٣٢ - الحبيب بورقيبة وجماعته يصدرون جريدة (العمل التونسي) .

١٩٣٣ - جماعة (العمل التونسي) يخوضون معركة (التجنيس)
ويظفرون . الحزب الحر الدستوري يضمهم اليه . صدور قوانين قمع
وإرهاب جديدة (القوانين فوق الغادرة) وتعطيل جريدة (العمل التونسي) .

١٩٣٤ - الاختلاف يدب في صفوف الحزب الحر الدستوري بين

القدامى المعتدلين والشباب المندفعين . عقد مؤتمر قصر هلال والنخل للجنة
التنفيذية للحزب القديم وقيام الحزب الحر الدستوري الجديد الذي ضم

ديوانه السياسي : الحبيب بورقيبة وشقيقه محمد ومحمود المطايري والطاهر صفر
والبحري قيقة . اعتقال أعضاء الديوان السياسي ونفيهم الى الصحراء .
١٩٣٤ - ١٩٣٦ : الثورة والاضطرابات تعمّ المدن والقرى التونسية .
١٩٣٦ - حكومة فرانسوا تطلق سراح المعتقلين وتسمح بعودة المنفيين .
الحبيب بورقيبة يسافر الى باريز للاتصال بالاحزاب والمنظمات الفرنسية .
١٩٣٧ - سفر بورقيبة مرة أخرى الى باريز . قيام المتوطنين الفرنسيين
باطرابات اجرامية . اصطدامات دامية في اكثر المدن التونسية . عودة
فرانسا الى سياسة العنف .

١٩٣٨ - ١٩٣٩ : أيام نيسان المشهورة : اعتقال فرانسوا لجميع الزعماء
التونسيين (ومنهم الأخوان بورقيبة ويوسف الرويسي وصالح بن يوسف
والهادي نيرة وعلي البلهوان) واحالتهم الى المحاكم العسكرية . قتل المئات
واعتقال الالوف من التونسيين . الثورة التونسية تستمر وتشتد بقيادة الزعيم
الكبير الحبيب تاهر . (ويلاحظ أن هذه الفترة هي ايضاً الفترة التي نكلت
فيها فرانسوا بعودها لسورية ورفضت توقيع معاهدة ١٩٣٦ بعد زوال
حكومة الجبهة الشعبية في فرانسوا) .

١٩٤٠ - نقل المعتقلين من الزعماء والقادة الى فرانسوا .

١٩٤١ - الثورة التونسية تستمر .

١٩٤٢ - تولى العرش محمد المنصف باي المعروف باخلاصه للحركة
الوطنية . احتلال الالمان لتونس وابقاء الزعماء التونسيين في المعتقلات .
رفض الالمان الاعتراف باستقلال تونس .

١٩٤٣ - رفض الزعيم بورقيبة التعاون مع دول المحور . عودة الزعماء
من المعتقلات . الجيوش الفرنسية تسترجع تونس . اعتقال آلاف من
الوطنيين وخلع المنصف باي .

١٩٤٥ - الحزب الحر الدستوري يطالب بالحكم الذاتي . وفرانسوا
تستمر في سياسة الارهاب والقهر . الزعيم بورقيبة يفرّ الى مصر والحبيب

التامر يصل اليها من منفاه .

١٩٤٦ - التيار الارهابي الفرنسي يستمر . انشاء مكتب للحزب الحر
الدستوري في القاهرة . اعلان ميثاق (ليلة القدر) . فرانسا تمثل مهزلة
(الاصلاحات) من جديد وتؤلف حكومة تونسية برئاسة مصطفى الكعك .
سفر بورقيبة الى الولايات المتحدة .

١٩٤٧ - تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة ، ومثله في دمشق
(الاستاذ يوسف الرويسي) . عودة بورقيبة الى الشرق .

١٩٤٩ - رجوع بورقيبة الى تونس .

١٩٥٠ - سفر بورقيبة الى فرانسا . تصريح وزير الخارجية الفرنسية
بأن حكومته تهدف الى (قيادة تونس نحو الازدهار والاستقلال) . قبول
الحزب الحر الدستوري الشروع في مفاوضات مع فرانسا ترمي الى
تحقيق الحكم الذاتي على مراحل . . تأليف وزارة محمد شنتيق للمفاوضة .

١٩٥١ - مرة أخرى تعرض فرانسا مشروع اصلاحات هزيلة . تجدد
الاضطرابات الدامية . سفر بورقيبة الى باكستان والهند واندونيسيا واوروبا
وامريكا . رفض فرانسا مطالب الحكومة التونسية . اضراب عام
واضطرابات .

١٩٥٢ - وفد تونس يعرض قضية بلاده في اروقة الامم المتحدة .
استمرار فرانسا في سياسة الاضطهاد واستمرار الكفاح . اعتقال رجال
الحكومة ونفيهم الى الصحراء . هرب الوزيرين صالح بن يوسف ومحمد بدره
الى مصر . تأليف وزارة من المواليين برئاسة صلاح الدين البكتوش . حرب
حقيقية تندلع في تونس . عرض برنامج جديد للاصلاحات يرفضه الباي بعد
استشارة (مجلس الاربعة) . ظهور حركة ارهابية افرنسية (اليد الحمراء) .
اغتيال زعيم العمال فرحات حشاد . اضطراب الباي الى التوقيع على
(الاصلاحات) بعد تعديلها . نجاح ادراج قضية تونس في هيئة الامم المتحدة
بعد محاولات سابقة لم يكتب لها الفوز . القضاء على الخونة من المواليين

والمعاونين .

١٩٥٣ - اغتيال الزعيم الهادي شاكر عضو الديوان السياسي . تشكيل
فرق الجهاد التونسية . الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة تكرر مطالبة فرنسا
بجمل القضية التونسية على أساس العدل .

١٩٥٤ - فرنسا تعلن عن (اصلاحات) جديدة . يقابلها الشعب
بالازدراء ، وتؤلف وزارة موالية يرأسها محمد صالح مزالي . الحزب
الحر الدستوري يرفع الى جامعة الدول العربية مذكرة يفند فيها الاصلاحات
الجديدة . صالح بن يوسف يزور دول آسيا ومصر .

وتحت ضغط جنود المقاومة في تونس وبتأثير الدول العربية والآسيوية
والافريقية ، يأتي رئيس وزراء فرنسا (منديس فرانس) الى تونس ويعلن
منحها الحكم الذاتي (٣١ تموز) . تأليف وزارة طاهر بن عمار وتشكيل
وفد المفاوضة (محمود المصمودي ، العزيز الجلولي مع رئيس الوزارة)

١٩٥٥ - انتهاء المفاوضات باتفاقية ٣ حزيران ، التي وقعها عن الجانب
الفرنسي ادغار فور رئيس الوزراء وبيير جولي وزير الشؤون المراكشية
والتونسية ، وعن الجانب التونسي طاهر بن عمار رئيس الوزراء والمنجي
سليم وزير الدولة . والواقع ان هذه الاتفاقية تحتفظ لفرنسا بكل سلطاتها ،
وتحولها ادارة ولايات الحدود الجنوبية ومنطقة بنزرت ، وتدع لها مهمة
الدفاع والأمن في الداخل والخارج وتبسط يدها في شؤون الثقافة الخ ..

وكان المجاهد الاكبر السيد بورقيبة قد عاد من منفاه في ١ حزيران من
ذلك العام واستقبل في بلاده بحفاوة عظيمة . وقد تقلب في السجون والمنافي
بين مطلع ١٩٥٢ وحزيران ١٩٥٥ .

عقد مؤتمر الحزب الدستوري في صفاقس (تشرين الثاني)

١٩٥٦ - (٢٢ كانون الثاني) : صدور قانون التجنيد الاجباري على كل

المواطنين الشباب في تونس .

(٢٠ آذار) : توقيع بروتوكول استقلال تونس الكامل من قبل

وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو ، بعد ضغط الحكومة والمعارضة معاً .
(١٥ نيسان) : شكّل السيد بورقيبة أول وزارة استقلالية . اعترض
فرانسا على انشاء وزارة تونسية للشؤون الخارجية وعلى تنفيذ اتفاقية ٢٠ آذار
قبل ان يصادق عليها البرلمان الفرنسي . سلوك الوزارة التونسية مسلك الحزم
ورفضها الاذعان لاحتجاجات فرنسا .

(١٥ حزيران) : رضوخ فرنسا صاغرة تجاه الصمود التونسي وتوقيع
اتفاق جديد يؤكد استقلال تونس التام وتصرفها بكامل الحرية بشؤونها
الداخلية والخارجية .

(١٧ حزيران) : عرض أول وحدة من الجيش التونسي الفتي .

(١٤ تشرين الثاني) : قبلت تونس عضواً في الامم المتحدة .

١٩٥٧ - (٦ كانون الثاني) عقد معاهدة إخاء وحسن جوار بين

ليبيا وتونس .

(٩ آذار) : الاتفاق على الغاء المحاكم الفرنسية بالبلاد التونسية .

(٢٠ آذار) : ابرام معاهدة إخاء وتضامن بين مراکش وتونس .

(٢٥ تموز) : إعلان الجمهورية التونسية .

ملك فقير في بلد فقير .. فقير بالرجال وبالموارد ..
دولة عربية خالصة ، وحكومات مقيمة على الولاء لبريطانيا وامريكا ..
سواء كان على رأسها محمود المتصر او مصطفى بن حليم او عبد المجيد كعبار .
بملكة جارة لمصر . جازة عزيزة - بالاضافة الى الأخوة العربية - لم
تمسك عنها مصر ما يفرضه الجوار وتقتضيه صلة القربى من عون وضيافة
ومناصحة . رفدتها بالمال حين كان المال لديها عزيزاً ، ولم تقبض عنها مكرمة .
أوت زعماءها وأضافت لاجتئها واکرمت مليكها وعلمت اجيالاً من بنها .
طالبت لها بالاستقلال ، وأبعدت عنها الوصاية والاحتلال ، واستقبلتها في
جامعة الدول العربية وناصرتها في المحافل الدولية .
كل ذلك قامت به مصر وفاءً بالواجب اولاً ، وضمناً لحدودها الغربية
ثانياً .

اما حسن الجوار ، فنرجو ان يكون متبادلاً من الجانبين ؛ ولكن
الحدود الغربية لاضامن لها مادام في ليبيا قواعد ومطارات بريطانية واميركية .
هذا بالنسبة الى مصر . أما بالنسبة الى ليبيا ذاتها فالأمور تجري على نحو
لا تدرکه عقولنا المتوالفة قليلاً او كثيراً مع ما يسمى بالحكومة المنطقية .. ولعل
الانجليز - بل هم على التحقيق - مدركون ذلك أعمق الادراك ..
تصوروا ان مصر تعرض على ليبيا بعد استقلالها سد العجز في موازنتها
فترفض ليبيا بإباء .. وتقدم الامم المتحدة بالعرض ذاته بوساطة المجلس
الاقتصادي والاجتماعي فنطلب ليبيا ارجاء البحث في الموضوع .. ثم يُفاجأ

العالم كله بأنها تقبلت المعونة من بريطانيا ، معونة مقيّدة بشروط ومكبّلة
بالسلاسل والأغلال ..
لنبدأ القصة من أولها :

تعلمون ان العثمانيين أضافوا بركة وطرابلس الى مغانمهم العربية في مطلع
النصف الثاني للقرن السادس عشر . واستلبت الحكم فيها أسرة قره منلي
التركية طيلة قرن وربع بعد بداية القرن الثامن عشر . ورجعت ليبيا الى
حوزة الباب العالي منذ سنة ١٨٣٥ حتى الفتح الايطالي عام ١٩١١ .

وفي كنف العثمانيين ظهرت طائفة السنوسيين لتعيد الاسلام الى نبعته
الأصيلة الخالصة ؛ وهي أسرة مؤمنة من أشرف الجزائر ، وفد زعيمها
محمد بن علي الى مصر في عهد محمد علي باشا ، وتمكّن من علوم الدين في الجامع
الأزهر ، ثم طفق ينشر تعاليمه الصافية في أرجاء ليبيا وقلب افريقية ، وجعل
مقره في واحة جغبوب غربي مصر ، وانتقل مركز السنوسيين الرئيسي الى
واحة كفرة في عهد السيد المهدي ؛ وبدأ الغزو الايطالي في ظل زعامة
السيد أحمد الشريف ؛ وفي نهاية الحرب العالمية الاولى تحوّلت الزعامة الى
السيد محمد ادريس ، وهو الآن الملك ادريس الأول .

ولم يكن العثمانيون في ليبيا على نصيب من القوة ليدفعوا عنها الغزاة
الايطاليين ؛ وانما نفر لقتالهم السادة السنوسيون أولو العزم والعقيدة ،
بؤايدهم العرب كلهم ، وشعب مصر خاصة ، بالتبرعات وبالمتطوعين .
يقول السيد عبد الرحمن عزّام ، الليبي الأصل ، والأمين العام السابق
لجامعة الدول العربية :

« .. أنا أعرف ان مصر قد أدّت واجبها كاملاً في مدى أربعين سنة
للدفاع عن حرية جارتها ليبيا ، وابتدأت ذلك في عام ١٩١١ وما بعده ، تبذل
المال والنفس حتى تحول دون سقوط بلد عربي شقيق فريسة للاستعمار
الاوروبي . وفي عام ١٩١١ وحده تبرّع الشعب المصري للمجاهدين في ليبيا
بنحو ٦٠٠.٠٠٠ جنيه من الذهب ، اي ما يوازي ثلاثة ملايين من الجنيهات

الآن .. ولم تنقطع هذه الاعانة في اي وقت ، بل انها استمرت وبكيفية
مكثنت الليبيين من مداومة كفاحهم في سبيل الحرية .. »

وعلى ان الوطن الليبي لا يضم سوى قرابة مليون ونصف فان ايطاليا لم
تنعم فيه بالسكينة ولا استقام لها الاستقرار ، في ليل ولانهار . وذلك ان
الليبيين ، ذكوراً واناثاً ، شباباً وشيباً ، جعلوا من نجوذهم وسباسهم ميداناً
موصول الجهاد . ولم يتروك الايطاليون وسيلة من وسائل « الفاندالية »
الا وزاولوها ، من بطش وسطو وانتهاك وتحريق ، سواء في عهدهم
الديموقراطي او في زمن شرسة الفاشية .

وزكت ارض ليبيا الطهور بالمجاهدين كما تزكو الجنة بالزنايق والرياحين .
وان لساننا ليسعد بذكر رمضان السويحلي وصالح الاطبوش وعبد الحميد
العبار ومحمد بوفروة وابراهيم الفلاح وحسين الجوبفي وفضل المهشش
وخالد الحمري وعبد القادر الفرকাশ وفاضل بو عمر وصالح القوامي ..
ومئات غيرهم من كرام القادة . وفي افئدة العرب كلهم محراب ذكرى
لسيد شيوخ الجنة المجاهد الوقور عمر المختار .

ونبتت براعم الصداقة الانجليزية الليبية منذ الحرب العالمية الاولى . فقد
حدث ان زعماء السنوسيين اختلفوا فيما بينهم على مناصرة العثمانيين او الانضمام
الى الحلفاء وفيهم انجلتروا المسيطرة على مصر وايطاليا المحتلة لليبيا ، فأيد المنحى
الاول السيد احمد الشريف ، وسار في الاتجاه المعاكس السيد محمد ادريس .
وفشل الفريق الاول وهاجر زعيمه الى تركيا فالحجاز ، واصبح السيد محمد ادريس
سيد السنوسية منذ عام ١٩١٨ ، وانفق الايطاليون معه عام ١٩٢٠ - بتأثير
انجلترة - على ان يحكم منطقة برقة تحت سيادتهم ، ولكن موسوليني فجبر
بالعهد ، فهرب الزعيم السنوسي الى مصر عام ١٩٢٣ ، وتسلم قيادة الجهاد
الشيخ عمر المختار حتى أعدم عام ١٩٣٢ على يد الجلاد غرازياني .

ومنذ اشتعال الحرب العالمية الثانية انضم السيد محمد ادريس الى جبهة الحلفاء
واخذ يعيى المطوعين الليبيين من مقره في مصر ، وذلك بتفويض من

« الجمعية الوطنية الليبية » المنعقدة عام ١٩٤٠ في القاهرة ، والتي أعلنت عن ثقتها ببريطانيا العظمى وبالأمر السنوسي ... وأعلنت بريطانيا بالمقابل على لسان المستر ايدن « انها ترحّب بتعاون السيد ادريس السنوسي وأتباعه مع قوات صاحب الجلالة البريطانية في مهمة سحق العدو المشترك ؛ وقد وُطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على انه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين في برقة تحت النير الايطالي مرة اخرى بأي حال من الاحوال » .

وواضح ان هذا التصريح الوحيد التي التزمت به بريطانيا لايشمل ليبيا كلها ، بل لا يذكر كلمة الاستقلال ..

وأصبحت ليبيا ساحة اصطراع بين جيوش إنجلترا و جيوش المحور . ومنذ مطلع ١٩٤٣ رسخت اقدام الجيش الانجليزي الثامن في البلاد ، وهيمنت عليها الادارة البريطانية ، باستثناء منطقة فزان التي وضعت للادارة الفرنسية .

والأمير ادريس كان لايفتأ يسخو بالتصريحات الحارة مطالباً بالاستقلال في ظل التحالف مع بريطانيا العظمى ؛ وبدأ يزور البلاد بعد هجر طويل . وما كادت الحرب تبلغ نهايتها حتى رفع العرب قضية ليبيا الى المحافل الدولية . وظهر دون غموض ان بريطانيا تريد البقاء حيث هي وكذلك فرنسا ...

وتعدّر الاتفاق بين الدول الكبرى المظفّرة في الحرب على مصير ليبيا . وكان الامير السنوسي قد استقرّ نهائياً في بني غازي منذ مطلع عام ١٩٤٩ . واجتمع مؤتمر وطني بايعه ملكاً على برقة ، فأعلن استقلاله التام وعزمه على التعاون مع بريطانيا ، وظل المستشارون الانجليز يدرون دفة الحكم بالفعل ؛ وسافر الامير الى لندن لاستكمال البحث في شرائط التعاون .

وبفضل تضامن الدول العربية اتخذت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قراراً تاريخياً في تشرين الثاني من عام ١٩٤٩ ، ينص على استقلال ليبيا المؤلّفة

من بركة وطرابلس وفزان في موعد لا يجاوز مطلع عام ١٩٥٢ ، على ان
يضطلع بتهيئة هذا الاستقلال خلال فترة الانتقال مندوب عن الامم المتحدة
(السيد بيلت M. Pelt) يساعده مجلس استشاري اشتركت فيه مصر مع
بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وفرنسا وايطاليا والباكستان
بالاضافة الى اربعة ممثلين عن الليبيين والاقليات .

وإثر ذلك التأمت جمعية وطنية تمثل البلد الليبي كله ، ودعت الملك ادريس
الى اعتلاء العرش (تشرين الثاني ١٩٥٠) ، ثم قامت بوضع دستور اتحادي
للدولة الجديدة (٧ تشرين الاول ١٩٥١) .

وانتهت فترة الانتقال حين اعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة استقلال
ليبيا في ٢٤ كانون الاول ١٩٥١ . وجرت الانتخابات لأول مجلس وطني
اتحادي في شباط ١٩٥٢ .

بيد ان غيوم المتاعب لم يبددها الاستقلال ، بل ظهرت غيوم جديدة
أشد دكنة وتلبدا . كان لا بدّ أولاً من ملء الفجوة الواسعة في خزانة
الدولة وكانت بريطانيا من قبل تنهض بهذا العبء ، وبدا أمراً ملحاً تضيق
المنازعات بين الاحزاب على شكل الحكم ولون القائمين به ، كما ظهرت
الضرورة الى حسم الخلافات في صميم الاسرة السنوسية ذاتها ، واخيراً كان
امراً حيويّاً تعمير البلاد واصلاح ما أفسد الحرب والقيام بمشروعات
التنمية الاقتصادية .

فالمتاعب السياسية وجد لها الملك حلاً جذرياً ، وذلك بالاعتماد على
(حزب الاستقلال) والاتكال عليه في الحكم وتشيتت (حزب المؤتمر)
ونفي زعيمه بشير السعداوي ..

وعقب الاضطرابات العنيفة في ولاية طرابلس (شباط ١٩٥٢) سمح لها
الملك بتأليف جمعية تشريعية (١٩٥٣) ، ثم مالبت ان حلتها (١٩٥٤)
لفقدان التفاهم بينها وبين الحكومة الاتحادية .

وقضية ولاية العهد انتهت عام ١٩٥٤ بأن حصر الملك توارث العرش

بسلالته من بعده .

بقيت المعضلة المالية والمشكلة الاقتصادية . وهنا نرجع الى ما بدأنا به حديث ليبيا ..

لقد كان الملك ادريس على اتفاق مبدئي مع بريطانيا للترباط معها بعقود سياسية واقتصادية ومالية وعسكرية فيما يتعلق بمملكة برقة . فلما اصبح ملكاً لليبيا كان من الطبيعي ان تتوسع تلك العقود لتشمل البلد كله ..

وقد اثار مندوب مصر في الهيئة الدولية مسألة العجز المالي المرتقب في الموازنة الليبية بعد الاستقلال ، ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة ان ينظر مجلسها الاقتصادي والاجتماعي في أمر العون الليبي منذ عام ١٩٥٢ . الا ان الحكومة الليبية بمشورة بريطانيا طلبت تأجيل بحث الامر الى الدورة التالية .. وكانت المعاهدة البريطانية الليبية قيد الاعداد ..

وقبلت ليبيا عضواً في جامعة الدول العربية في آذار ١٩٥٣ ، ولم تلتزم من هذه المؤسسة القومية ان تعينها في ازمته المالية ..

وتقدمت مصر الى الحكومة الليبية منذ عام ١٩٥٢ عارضة تسديد عجزها المالي المتوقع ، على شرط ان لا تنفق المعونة المصرية في دفع رواتب الموظفين البريطانيين .

وتقول الحكومة الليبية ان العرض المصري جاء متأخراً ، وقد رافقه اشتراط اعادة النظر في تخطيط الحدود بين البلدين .

ولسنا هنا بصدد اكتشاف الحقائق ؛ فالواقع ان المعاهدة الليبية البريطانية أبرمت في ايلول ١٩٥٣ ، وكان لذلك رجوع أليم في نفوس العرب جميعهم . فالمعاهدة المشؤومة تكبل ليبيا بمواثيق استعمارية ثقيلة ، فتجعل من مرافقها كلها نهياً للبريطانيين ، وتلزمها بعهود عسكرية خطيرة ، وتيسح للجيش البريطاني ان تقيم على ارضها دون قيد ، وتضع الجيش الليبي الفتي بأيدي بريطانيا ...

والقلق الذي ساور العرب بسبب هذه المعاهدة قد تبلور على شكل فاجع

في أزمة السويس عام ١٩٥٦ وفي حوادث لبنان والعراق عام ١٩٥٨ ..
ولعل البيت المالك في ليبيا لا يزال حتى هذه الساعة ملتزماً الحداد على البيت
المالك في العراق ..

كل ذلك لقاء مليون جنيه تدفعه بريطانيا سنوياً للخزانة الليبية طوال
عشرين عاماً في سبيل الانماء الاقتصادي ، ومليون وثلاثة أرباع المليون
لسد العجز في الموازنة .

وعقدت ليبيا معاهدة بمائة مع الولايات المتحدة الامريكية في ايلول
١٩٥٤ ، تسمح نصوصها للولايات المتحدة ان تحتفظ على الارض الليبية بعدة
قواعد ومطارات عسكرية وخاصة مطار الملاحة ، لقاء اربعين مليون دولار
مقسمة على عشرين عاماً .. وجادت امريكا بعد ذلك بمبلغ اضافي قدره
تسعة ملايين دولار عام ١٩٥٦ وأحد عشر مليوناً عام ١٩٥٧ .

وفي نهاية عام ١٩٥٥ دخلت ليبيا في منظمة الامم المتحدة . وفي الوقت
ذاته قبلت فرانساجلاء جيوشها عن فزان ؛ غير ان جيوش فرانساجغير
بين حين وآخر على الحدود الليبية الجزائرية الجديدة ملاحقة المجاهدين
الجزائريين وضاربة طريق اتصالهم بسائر الوطن العربي . (١)

وخلال العامين ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ منحت ليبيا لعدة شركات امريكية
حق التنقيب عن النفط في طول البلاد وعرضها .

(١) رفعت ليبيا شكواها على فرانساجلى مجلس الامن في ٢ تشرين الاول عام ١٩٥٨
بعد تواتر اختراق الفرنسيين لحدودها ومهاجرتهم المواطنين الليبيين .

٥ - جمهورية السودان

بين مصر والسودان ، أيها السادة ، جفوة في المعاشرة ، تطفو وتطفئ حيناً ، وتستنيم في الأعماق حيناً آخر ، او تحتجب بغلالة مبرقشة من عبارات الود والمجاملة .

ومن المؤكد ان السياسة البهلوانية التي مارسها السيد صلاح سالم - وزير السودان في الحكومة الأولى للثورة المصرية - لم تزد أو تنقص من هذه الجفوة شيئاً . ولم تبدل من قرارة الامور ، كذلك ، تنحية اللواء محمد نجيب - السوداني الأم - عن رئاسة الجمهورية المصرية . ان بين مصر والسودان عقدة نفسية وأخرى مائة ..

العقدة الأولى ترجع الى حقبة مضت زحفت فيها جيوش محمد علي ثم اسماعيل غازية السودان على نحو لا يفتقر في الطبيعة ولا في الوسائل عن اي غزو استعماري مقيت . وترجع ايضاً الى سنوات الحكم المصري الانجليزي المزدوج بين عامي ١٨٩٩ و ١٩٢٤ .

فالغزو (العلوي) ترك في النفوس رواسب وجسآن ونفرة لم تذهب السنون بها كلها . والحكم المزدوج خلف صورة للمصريين زيفها الانجليز عن سابق تعمد وتصميم .. كان الانجليز يتخبرون للمصريين المهام الشائكة والوظائف المخرجة ، ويدفعونهم دفعاً الى استشارة حفيظة الشعب السوداني ، ثم يتخذون دور الحكيم العادل بين الفريقين ويلتزمون جهاراً بجانب السودانيين ..

ولعل كبرياء بعض الموظفين المصريين وصلفهم الأجوف المخبث قد

قد ولتدا عند سواد السودانيين مركب نقص لا يجد تعويضاً له الا في
التحدي والمغاضبة ..

تلك حقائق لا يجدي شيئاً تجاهلها اليوم ، بل لعل في عرضها على وضع
النهار تمهيداً لمعاطاة الألفة الصادقة ومبادلة الود الصريح .

والعقدة الثانية تتصل بماء النيل . فبين مصر والسودان اتفاقية معقودة
عام ١٩٢٩ تعين حق البلدين في الارتفاق بمياه النهر الخالد . الا أن سكان
السودان يتضخمون في العدد وتنمو حاجتهم الى ارضين جديدة مروية ،
وما كان يكفي ثلاثة ملايين لا يظفيء ارام عشرة ملايين ونصف . وعلى
أن السودان تزيد في الامتداد عن مليونين ونصف من الكيلو مترات المربعة
فان وسعة المناقع في الجنوب والفلوات في الشمال تضيقت المدى المعد
للزراعات ؛ والسودانيون ساروا في طريق إنشاء الأسداد والأحباس ،
وتوسّعوا وما زالوا يتوسّعون في ازدياد القطن . والمصريون كذلك
يضمرون مجاهلهم الحيوي ، ولا يجدون منفذاً لتسكاتهم السريع اللاهث الا
بالتصنيع وإحياء الارض الموات ، وكلا الأمرين يتطلب الاستزادة من
السدود ومساقط المياه .

والمفروض ان انشاء السد العالي سيغمر جزءاً من ارض السودان الشمالي
ويعطله عن وظيفته الانتاجية ، كما ان توسّع السودان في سياسة الري لابد
وان يهد جزءاً من حقول مصر الخضراء بالعطش والوبار .

كل ذلك يخلق بين البلدين فرقة في المصالح ونبوة في المشاعر وحساسية
مفرطة في العلاقات .. وتتوسط إنجلترا وامريكا بين الاخ وأخيه فتشير
السودانيين على المصريين عن طريق الصحف والاذاعة وبوساطة
السفراء والعملاء .

ولو وحتم الى اهل الخبرة من البريطانيين والامريكيين ذاتهم لوجدتم
الاجماع منعقداً بينهم على القول بأن مياه النيل الفائضة تزيد عن حاجة مصر
والسودان ، لو تقامها وتعاوننا على حسن حجز المياه وتنظيم صيدها .

وهكذا تلمسون ، أيها السادة ، أن قصة مياه النيل تعود في النهاية الى وجود العامل النفساني الذي أسبقت الاشارة اليه . وهذا العامل بالذات يفسر لكم حذر الحكومة السودانية المحموم في الصلات بين البلدين . فاذا ما أقدمت مصر على إرسال بعثة استفتاء الى قرية على التخوم يعتبرها المصريون جزءاً من مصر ويعتبر السودانيون أن ادارتها حق لهم ، هلع المسؤولون في السودان ، وهرعوا الى مجلس الأمن يضحون بالشكوى ، ونشروا وأذاعوا أن جيوشاً مصرية كالتمل عدداً ترحف نحو بلادهم .. تذكرون أن هذا قد حدث فعلاً في يوم ٢٢ شباط ١٩٥٨ .

هذا الحاجز النفساني يوضع لكم ايضاً خيبة الحزب الوطني الاتحادي الذي يتزعمه السيد اسماعيل الازهري ؛ وهو الحزب الذي قام على أساس الاتحاد بين القطرين في « وحدة وادي النيل » ثم انكمش عن مبادئه الاولى ورضي بالامر الواقع . وكانت الاحزاب السياسية المصرية قبل الثورة تضع « وحدة وادي النيل » في رأس المطالب التي لا يمكن التنازل عنها ؛ ولكن مصر الثورة لم يكن بوسعها الا ان تنهاز الى مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ولهذا السبب وقعت اتفاقية شباط ١٩٥٣ .

ولا ضرورة لان نتقهقر في التاريخ مرحلة طويلة لتنتهيم نشأة التطور السياسي للسودان الحديث .

وانتم تذكرون ان (السر هيرت كشتنر) قد أتم فتح السودان في آخر عام ١٨٩٨ ؛ وضمته اليه سلطنة دارفور عام ١٩١٧ ؛ وعقدت بين مصر وبريطانيا اتفاقية الحكم المزدوج (كوندومينيوم) في مطلع ١٨٩٩ . ويطلق الانجليز اسم (دور الحكم الابوي) على تلك الحقبة من الزمن الممتدة بين ١٨٩٩ و ١٩٢٤ ؛ والواقع انها كانت أبوة من النوع القبلي القديم .. فالحاكم العام البريطاني كان يجمع في شخصه جملة السلطتين المدنية والعسكرية ؛ فلما خرجت الجيوش المصرية عام ١٩٢٤ لم يغير ذلك من

حقيقة الوضع شيئاً ؛ غير أن فرقة سودانية مطوّعة تشكّلت لتحلّ محل الفرق المصرية .

وحين عقد الوفد المصري معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ظلّت قضية السودان مستعصية على الحل ؛ وكل ما استجدّ فيها ان الحكم المزدوج عاد من جديد ، أي ان الحاكم البريطاني ظلّ كما كان مرجع السلطات كلها . . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية بدا أمراً لامناص منه تعزيز الجيش السوداني ليستطيع الصمود في وجه الايطاليين الذين كانوا يهدّدون السودان من حدوده الحبشية .

وبين عامي ١٩٤٤ و ١٩٥١ قبلت بريطانيا ان تتألّف مجالس سودانية محلية لتشارك في شؤون الادارة ، حتى ان مجلساً استشارياً لشمال السودان قد تشكّل منذ ١٩٤٤ .

وفي عام ١٩٤٨ تقرّر انشاء مجلس تشريعي لجميع السودان ، على ان يُنتخب بعض اعضائه ويعيّن الحاكم العام سائرهم ، وأعلن الحزب الوطني الاتحادي مقاطعة الانتخابات .

ورأت مصر ان حكومة بريطانيا تسوّف في حل القضية السودانية ، فأعلنت في تشرين الاول عام ١٩٥١ تحلّتها من معاهدة ١٩٣٦ ، وأطلقت على فاروق لقب (ملك مصر والسودان) .

ثم نشبت الثورة المصرية الموفّقة ، فبعثت مصر الى بريطانيا بكرة تطالب فيها بانشاء (حكومة وطنية سودانية) ، وذلك في تشرين الاول ١٩٥٢ . وعلى أساس حق السودانيين في تعيين مستقبلهم السياسي عقدت معاهدة ١٩٥٣ . وحددت المعاهدة مدة ثلاث سنوات للبتّ في الشكل الجديد .

وتألّفت لجنة دولية تضمّ مندوبين عن الامم المتحدة ومصر وبريطانيا والولايات المتحدة للاشراف على الانتخابات النيابية المقرّرة ، برئاسة مندوب الهند . وجرّت هذه الانتخابات عام ١٩٥٣ (تشرين الثاني - كانون الاول) وأسفرت عن فوز المؤيدين لمصر . فقد ظفر الحزب الوطني الاتحادي بمخمسين مقعداً

في مجلس النواب من سبعة وتسعين ، وبواحد وعشرين مقعداً من ثلاثين
في مجلس الشيوخ (عدد الاعضاء المعينين) . ويضم هذا الحزب فريق
(الاشفق) بزعامة السيد اسماعيل الازهري وجماعة (الحتمية) التابعين
للسيد علي الميرغني .

وكان طبيعياً ان يشكل السيد اسماعيل الازهري الوزارة الأولى
منذ مطلع ١٩٥٤ ، وان يتزعم المعارضة (حزب الأمة) وفي عداة جماعة
(الأنصار) التابعين للسيد عبد الرحمن المهدي .

حدث كل هذا والحاكم العام البريطاني باق في منصبه الخطير ..
وسأوقف بعض الوقت عند هذا العام الفاصل في تاريخ السودان
الحديث ، فقد برز فيه الاتجاه نحو الاستقلال بدلاً من الاتحاد مع مصر .
في هذه السنة بالذات بلغ نشاط بريطانيا ذروته ، وبذل الحاكم العام
البريطاني كل ما يملك من نفوذ وجهود لمجمل السودانيّين على طلب الحكم الذاتي
والتحالف مع بريطانيا العظمى ان لم يكن الانضمام الى رابطة الشعوب
البريطانية ..

في هذا العام زار اللواء محمد نجيب الخرطوم فاستقبله المعارضون
بالمظاهرات والشتائم ..

وتشكلت لجنة دولية ثانية من ممثلين عن مصر وبريطانيا والسودان
برئاسة ممثل باكستان ، لمعونة الحاكم العام في سلطاته التنفيذية خلال
مدة الانتقال .

وشرعت (لجنة السودان) لتحلّ الموظفين السودانيّين في المراكز الهامة
محل البريطانيين والمصريين على السواء .

واتضح لبريطانيا ان السودانيّين يميلون الى الاستقلال التام ، ولن
يتقبلوا اي نوع من الارتباط معها ، فجزّرت أمضى سلاح بيدها وهو
الضغط الاقتصادي بتعطيل استيراد القطن السوداني .

وشعر الحزب الوطني الاتحادي ان الارض تميدبه فجاد عن مبادئه العريقة ...

واتخذ في ايار ١٩٥٥ قراراً بتأييد سيادة السودان واستقلاله الكامل .
ولم يُسجِر هذا القرار كيان الحزب ، فانفصل عنه بعض الأعضاء الذين
سيؤسسون عام ١٩٥٦ حزب الشعب الديموقراطي .

وكان لزاماً على بريطانيا ان تبدل نهج سياستها ، بعد ان أصبح
الاتحاديون انفصاليين ، وغدا الاستقلال التام حقيقة لا مهرب منها . فلتحاول
بريطانيا ان تسلخ جنوب السودان عن شماله ...

ومتت هذه المحاولة في آب ١٩٥٥ : تتردت قوى الدفاع الجنوبية
وقُتلت مئات الموظفين الشماليين مع أسرهم .. واختل الأمن
وعمت الاضطراب .

وحدث أيضاً ان فئة من الفلاحين الجنوبيين تظاهروا لأسباب قيل انها
زراعية فاحتُجزوا في حظائر الشرطة وقضوا اختناقاً ..

واجتاز الحزب الحاكم مرحلة حاسمة ثانية حين طالب بريطانيا ومصر
بسحب جيوشهما من السودان . وتمّ الجلاء في تشرين الثاني من عام ١٩٥٥ .

بقيت المرحلة الاخيرة ، وهي مرحلة اعلان الاستقلال . وكان مقرراً
لها اجراء استفتاء عام . الا ان الحزب الاتحادي صرف عن البلاد متاعب
جديدة وفوتت على البريطانيين فرصة استشارات أخرى .. حين جعل البرلمان
يقرر هذا الاستقلال نيابة عن الشعب ويعلن الحكم الجمهوري ، في اليوم
التاسع عشر من كانون الاول ١٩٥٥ . وارتضت مصر وبريطانيا هذا القرار
التاريخي ؛ وتختلى الحاكم العام عن مهامه لمجلس السيادة السوداني .

وقبلت جمهورية السودان في جامعة الدول العربية ؛ ومنذ تشرين الثاني
١٩٥٦ تحلّت مقعدها في منظمة الامم المتحدة .

ولكن حكّام السودان قد تبدّلوا ؛ ففي تموز ١٩٥٦ حجب البرلمان
ثقته عن السيد اسماعيل الازهري ، وانتخب مكانه السيد عبد الله خليل
الامين العام لحزب الأمة . وشكّل الرئيس الجديد وزارة ائتلافية توزّعتها

احزاب الأمة والشعب الديموقراطي والأحرار والجمهوري الاشتراكي .
وجرت انتخابات جديدة في عامنا هذا ، ثبتت أقدام تلك الاحزاب .
وصوت المجلس الجديد على قبول العون الاميركي (١) .

وهمّ العرب كلهم ، أيها السادة ، ان ننسج علاقات السودان بالجمهورية
العربية المتحدة من خيوط الثقة العظوفة والنية الخالصة والود الحميم . فالطبيعة
قد ربطت أرض البلدين بنهر النيل ، نهر الحياة ؛ وصلة العروبة قادرة على
توثيق هذا الرباط في العقول وفي المشاعر .

وليس من ريب في أنه كان لرسول العراق قبل الثورة بعض التأثير في تشجيع
المسؤولين السودانيين على التقرب من الغرب واسترجاع الموظفين البريطانيين
السابقين وانتهاج سياسة تتجانف الود أحياناً حيال مصر . تلك كانت مهمة
فاضل الجمالي سواء في السودان أم في المغرب ولبنان . وانعتاق العراق من
سأته ان يزيل شباك الوقيعة بين الجمهورية العربية المتحدة وبين أكثر من
قطر عربي .

(١) في ١٨ تشرين الاول ١٩٥٨ وافقت انجلترا على تزويد السودان بالعتاد والاسلحة
الخفيفة دون مقابل ...

نبدأ قصة اليمن بالتعرف الى أحمد الجن ..
وأحمد الجن هو جلالة الامام أحمد ..

وشحّه رعاياه بهذا اللقب في ظروف اسطورية حقا :

في مستهل نيسان ١٩٥٥ حاصره في تعز اخوه سيف الاسلام عبد الله
مع ألفين من الرجال الأشداء ، ووقع الامام وثيقة التنازل عن جميع
سلطاته لأخيه ، وكان ابنه سيف الاسلام محمد البدر يضرب في شمال البلاد
معبّئاً المناصرين المقيمين على الوفاء .

وفي فجر يوم سعيد ، صعد الامام الى سطح قصره يحوطه نفر قليل
من الحراس ، وصوبّ قار بندقيته على الثوار مرعداً متوعداً ؛ وذُهل
هؤلاء ؛ وكانت أخبار الأمير البدر قد وافتهم ؛ وتملكهم الذعر ، ثم رموا
بأسلحتهم وجدّوا يبيعهم للامام ..
أليس هذا من عمل الجن ؟ !

ومن الثابت ان الامير عبد الله والامير عباس قد حاكا هذه المؤامرة
على أخيها بالاتفاق مع بريطانيا العظمى ، فكان قتلها ردعاً لتزغات
الطمع والحون .

وقبل ذلك بسبع سنوات حدثت معجزة أخرى :

قتل الامام يحيى - والد الامام احمد - في شباط ١٩٤٨ بقصره في
صنعاء وبالتآمر مع بريطانيا العظمى ايضاً ..
وكان رأس الفئة المتآمرة ابن الامام ، سيف الاسلام ابراهيم ، وصهره

عبد الله الوزير ، مستغلبين طائفة من المنورين اللاجئين الى عدن الذين
أرادوا لبلادهم عن اخلاص قفزة قدسية ديموقراطية .

وتَمَع الثورة وسَحَقَ المأمَين سيف الاسلام أحمد الجن . واعتلى عرش أبيه .
والعداء بين اليمن وبريطانيا ليس وليد الأمس . وتتبعه يقتضينا
الرجوع اكثر من قرن في صفحات الماضي القريب . ولا بد قبل ذلك من
استصفاة تاريخ الأسرة المالكية في سطور ، تلك الاسرة العلوية الزيدية التي
أسست امارة مستقلة في صعدة منذ عشرة قرون ثم مدت جناحها على
الجنوب العربي كله بما فيه حضر موت .

وكان للأئمة الزيديين معارك ضارية مع المستعمرين الأرائل ، ومنهم
البرتغاليون الأشراس . ودامهم الاتراك العثمانيون عام ١٥٢٨
فقارومهم أربعين سنة قبل ان يستسلموا لحكمهم ثم مالبتوا ان طردوهم
عام ١٦٢٨ .

ونعتقد ان العصبية الطائفية هي السبب في الفرقة بين أئمة اليمن والسنيين
الشوافع في الجنوب من شبه الجزيرة العربية ؛ فانفصلت حضر موت في مطلع
القرن الثامن عشر وتلتها (الحَيج) وسائر (النواحي التسع) .

وفي النصف الأوّل من القرن التاسع عشر كان سكان الجنوب العربي
عرضة لغزو مزدوج : غزو المصريين من الشمال والبريطانيين من الجنوب .
فمنذ عام ١٨٠٢ يصل البريطانيون الى مياه اليمن ، ويرغمون سلطان
حُجج على الاذن لهم باستخدام خليج عدن ، ثم يحتلون مدينة عدن عنوة
عام ١٨٣٩ . وفي ذلك الوقت بالذات كانت جيوش ابراهيم باشا تجوس خلال
الجزيرة العربية وتقتحم اليمن ثم تخلها عام ١٨٤٠ وتخلفها الجيوش التركية .
وبين ١٨٤٠ و ١٩١٨ كان سعي الحرب لاجتوب بين الاتراك واليهانيين .
ولئن تمكّن الجيش العثماني من دخول صنعاء عام ١٨٧٢ فان الامام محيي
حميد الدين يخرجها منها عام ١٩٠٥ ويلاحقه في الحزون والأغوار حتى يقر
الاتراك بملكه على اليمن عام ١٩١١ تحت السيادة العثمانية الاسمية .

وبينما كان سادة اليمن بصطرعون مع تركيا كان البريطانيون يأثكون الجنوب العربي، قطعة قطعة ، ففرضوا حمايتهم على النواحي التسع وحضرموت بين ١٨٧١ و ١٩١٥ ، وراضاهم الباب العالي على ذلك في اتفاقيات عقدت عام ١٩٠٤ و عام ١٩١٤ . وبعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى أعلن الامام يحيى حميد الدين استقلاله الكامل في ربوع اليمن .

ومنذ هذا الاستقلال كان الامام يحيى مكين العزم على تحرير جنوبي شبه الجزيرة كله ؛ ولكن الفتن الداخلية اولاً وسوء العلاقات بينه وبين السعوديين من جهة ثانية حالادون تنفيذ هذا العزم . وما سياسة الامام احمد اليوم بالنسبة الى بريطانيا سوى امتداد لسياسة أبيه .

وكانت بريطانيا قد انتهزت فرصة النزاع اليمني السعودي لتوطد حكمها في النواحي التسع وترغم الامام عام ١٩٣٤ على الاعتراف بالحدود الراهنة بانتظار المفاوضات النهائية . وفي عام ١٩٣٧ ضمت بريطانيا النواحي التسع الى حضرموت ومهرة وسمتها كلها بحماية عدن ، ثم قسمتها الى شرقية وغربية .

وانتهت الحصومة بين الملك عبد العزيز ابن سعود والامام يحيى بمعاهدة عام ١٩٣٤ ، فالنتف الامام الى خصوم العرب الأزيين : البريطانيون . واذا كان تحرير الجنوب العربي الركن الثابت في سياسة اليمانيين فان السيطرة على اليمن - كلها أو جزء منها - هي ايضاً أرسخ أهداف السياسة البريطانية الى يومنا هذا .

وقد عمد الانجليز في سبيل تحقيق رغائبهم الى تنويع الوسائل : الهدايا تارة والقنابل تارة أخرى .

ففي عام ١٩٢٠ بعث الملك جورج برسالة رقيقة الى الامام يحيى مشفوعة بسيارة فخمة ، وبعد سنة وصلت بعثة انجليزية تحمل للامام تحفاً ثمينة ولا تطالبه بأكثر من وضع نفسه وبلاذه تحت جناح بريطانيا الرفيق .. ، وظلّت البعثات تتري ومعها الطشرف والأطف حتى عام ١٩٢٨ . وفي هذه المرة

جاءت الطائرات البريطانية تسكب الحمم على قعطة والضالع وذمار وبريم
وتعز وماوية وإب .. ومع الحمم تساقطت منشورات توقظ الفتنة بين
(الزيود) و (أهل المذهب الشافعي) . وظلت الصلات تتأرجح بين التوتر
والتهادن حتى معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤ .

وكان الامام يجهد في تثبيت مركزه الدولي قبل ان يدخل في صراع
مكشوف مع حكومة صاحب الجلالة . فمذ ١٩٣٦ اعترفت له ايطاليا
بالاستقلال التام وأكدت عهدا معه عام ١٩٣٧ . وعقدت بينه وبين
الاتحاد السوفياتي معاهدة صداقة وتجارة عام ١٩٣٩ ، جددت لمدة عشر
سنوات عام ١٩٣٨ . ودخلت معه اليابان في معاهدة بمائة عام ١٩٣٣ .
وكانت اليمن قد ارتبطت مع العراق بمعاهدة ود وأخوة عام ١٩٣١ .
وفرانسا ذاتها اعترفت باستقلال اليمن عام ١٩٣٦ ، وسوف تتخلى عقب
ذلك عن منطقة رأس الشيخ سعيد التي كانت تحتلها في اقصى الجنوب .
وفي عام ١٩٣٧ ينضم الامام الى ميثاق (الاخوة العربية) المبرم قبل
عام بين العراق والمملكة السعودية .

ويروي المؤلف الفرنسي (برّيه بي Berreby) في كتابه المنشور هذا
العام عن شبه الجزيرة العربية ان البريطانيين حزموا أمرهم عام ١٩٣٨ على
اغتصاب جنوب اليمن طمعاً بالنفط ؛ وهو يسرد فقرات من مذكرات
الضابط البريطاني (هاميلتون) يقول فيها أنه استولى في ذلك العام على
منطقة (شبوّة) لانه شاهد ترشحات البترول هناك ...

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، والتزمت اليمن الحياد ؛ وأصبحت عضواً
في جامعة الدول العربية منذ العام الاول لتأسيسها ، وعقدت معاهدة صداقة
مع مصر عام ١٩٤٦ ؛ وانشأت علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة
الامريكية في العام ذاته ، وقبّلت في منظمة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ .
أما صلاتها ببريطانيا فلم تقارب الصفاء ... فلماذا لا تجرّب هذه الدولة المعظمة
أن تحلّ خلافاتها مع اليمن بتدبير مقتل الامام يحيى عام ١٩٤٨ !?

ترو ن ، ايها السادة ، أن اليمين آلت ان تخرج من عزلتها السياسية التقليدية ووفقت الى ذلك . ولكنها حتى ذلك التاريخ - ونقول ذلك بأسف مؤلم - لم تبذل جهداً يُذكر للخلاص من أنظمة الحكم المتقادمة لديها .. ولم تجنح الى التطور المنقذ في حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .. .

ويأخذ العرب كلهم على حكومة اليمين ، كما يأخذون على حكومة العراق ، تهجير اليهود الى فلسطين المحتلة عام ١٩٥٠ ، وفي ذلك دعم مباشر للصهيونية .

ونشهد للإمام احمد انه من الناحية الاقتصادية على الأقل أنفذ نظرة من أبيه وأوفر نشاطاً . فقد تم في عهده اصلاح بعض الموانئ وفتح الطرقات ، وأبرمت اتفاقيات فنية مع الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديموقراطية .

وبلاد اليمين على صغرها نسبياً - تعدل مساحتها الاقليم السوري ولبنان معاً - غنية بالفحم والحديد والذهب والاورانيوم والفضة والنحاس والبوتاس وكلها ترتقب أن تُشق عنها الارض وتُستغل .

ويسعى الامام احمد قبل كل شيء الى استنباط النفط والافادة من موارده ، فقد تشارك عام ١٩٥٢ مع مؤسسة ألمانية للبحث عن البترول ، ثم استبطن عملها وألقى التعاقد معها عام ١٩٥٥ ؛ وارتبط بعقد جديد مع شركة امريكية ؛ واستقدم بعد ذلك بعثة تنقيب سوفياتية وفقت الى العثور على النفط قرب الحديدة . وأظهر الامام احمد معارضة شديدة لحلف الشؤم - حلف بغداد - المبرم آخر عام ١٩٥٤ ؛ وبادر مع سورية ومصر والمملكة السعودية الى توقيع ميثاق جدة في نيسان ١٩٥٦ ، ذلك الميثاق الذي ينظّم قيادة موحدة لجيوش هذه البلدان .

ونحب ان لانضي في حديثنا عن اليمين قبل أن نظري شخصية يمانية فتدة أشرقت فجأة في الجو السيامي العالمي بعد مؤامرة عام ١٩٥٥ ، وهي شخصية ولي العهد ورئيس الوزراء ووزير الخارجية الامير محمد البدر .

هذا الوجه النثير قد ركّز سياسة بلاده على محورين :
أولاً : الاستمرار في مناضلة بريطانيا لتحرير الجنوب العربي .
ثانياً : التكتل مع مصر وسورية .

والى هذا الامير يعود معظم الجهد في وضع (ميثاق الدول العربية المتحدة) الذي وقّعه اليمن والجمهورية العربية المتحدة في ٨ آذار عام ١٩٥٨ .

ولئن رغب في كسب عطف امريكا ، فهو لم يقبل أن يربط بلاده
• معها باتفاقيات سياسية ، ولذا رأينا اليمن ترفض دون تردد عرضاً مالياً سخياً
قدّمت لها بعثة امريكية رسمية عام ١٩٥٧ .

واعتمدت اليمن على الاتحاد السوفياتي لمدها بالسلاح ورفدها بالخبزاء .
ومعاهدة الصداقة بين البلدين نُجّث بنودها في مصر ووقّعت عام ١٩٥٥ .
ولم تلبث اليمن ان استقدمت بعثات سوفياتية وتشيكوسلوفاكية وبولونية
لبحث جوانب التنمية الاقتصادية لديها . وفي حزيران ١٩٥٦ سافر الامير
البدر الى موسكو وبراغ وبرلين الشرقية ولم يعد منها خاوي اليدين .

لقد حصل - بالاضافة الى السلاح - على عقود من الاتحاد السوفياتي
لفتح الطرق بأكلاف تقص ٣٠٪ عن الاثمان العالمية وتُدفع في مدى عشر
سنوات ، وحصل منه أيضاً على وعد بالمعونة الفنية للشروع في انتهاز
البلاد اقتصادياً ، واتفق مع تشيكوسلوفاكيا على تأسيس مصنع للاسمنت
والاسهام في انشاء صناعة يمنية حديثة وتعليم الطلبة اليمنيين في معاهدها ،
وتعمّدت له ألمانيا الشرقية أن تنشئ معامل للاسمنت والزجاج والدباغة
والفواكه المجيئة . وتقوم المانيا الديمقراطية أيضاً مع الاتحاد السوفياتي
باعداد بناء مرفأ الجديدة الذي هدمه البريطانيون عام ١٩١٧ ليجعلوا تجارة
اليسن كلها تسلك بالضرورة طريق مرفأ عدن البريطاني ..

وخطت اليمن خطوة جريئة اخرى عام ١٩٥٦ - لم تحظ برضاء
السياسة الاميركيين طبعاً - حين اعترفت بجمهورية الصين الشعبية .

جرى كل هذا والعلاقات اليمنية البريطانية على حدود اليمن الجنوبية
تتماظم في السوء ، وهي الى هذه الساعة تنذر بالشرر ، والطائرات العدوة
لا تنفك تضرب الأمصار والداكر اليمنية ردعاً لغزو محتمل أو مدبر -
على حد زعم الساسة البريطانيين - . وتذكرون الغارات البريطانية الأثيمة
التي وقعت في مطلع العام الماضي ، والتي أعلن الامام على أثرها تحلله من
الالتزامات السابقة نحو بريطانيا ، وكان من نتيجة ذلك حشد قوى بريطانية
مخيفة في منطقة عدن .

ورفع الامر دون جدوى الى الامم المتحدة ؛ واقترحت بريطانيا
على اليمن الشروع في تفاوض سلمي كان مكتوباً له الاخفاق مسبباً ؛
لان اليمن تصرّ - ولها أن تصر - على عودة النواحي التسع وجزر كمران
الى الوطن الام .

وسافر الامير البدر الى لندن في تشرين الثاني من عام ١٩٥٧ ،
وتأكد له من جديد أن المفاوضة مع بريطانيا مضيعة للوقت وللجهود .
ومختم حديثنا عن اليمن بفقرات من تصريحات لولي العهد أدلى بها
الى رجالات الصحافة في دمشق عندما زارها في نهاية كانون الثاني من
هذا العام .

قال الأمير : « ان خلافاتنا مع الانجليز طويلة ، وأساليبنا معهم
ان نتخذ عدة طرق من المفاوضات الى الدفاع عن النفس ، وقد
'دعينا الى لندن فرحبنا بالفكرة لاننا دعاة سلم ، وهناك بدأنا
نتفاوض ، ومع الأسف الشديد وجدنا ان الاستعمار هو الاستعمار ،
ويمكن القول أن المفاوضة قد فشلت ، ورأيي أنها لم تفشل ، فقد
اطلعتنا على نفسية الاستعمار . . لقد طلب الانجليز منا تحديد
الحدود ، فقلنا لاحدود ، ونحن لانعترف بنظام الحميات ونطالب بها ،
وهم يقولون ان عدن ليست يمنية ... »

ثم اتجهنا الى دول غريبة اخرى كإيطاليا وفرنسا فوجدنا

نفس الحكاية ، ثم اتجهنا الى الشرق فوجدنا هناك أناساً طبيين ولم نجد
عندهم لفاً ولا دوراتا . لقد شاركونا في مواقفنا وأيدوا حقوقنا وعرضوا
علينا المساعدة دون قيد ولا شرط ..

وفي الصين والبلدان الشرقية وقّعنا اتفاقات اقتصاد وتجارة ومساعدة
فنية ، وأخذنا قرضاً بسبعين مليون فرنك سويسري من الصين ...»

٧ - عدن والجنوب العربي

ان ما يُعرف بمستعمرة عدن هو ميناء ومجموعة قرى وجزر تصل مساحتها الى ٢٠٧ كيلو متر مربع ؛ يسكنها نحو من ١٥٠,٠٠٠ نسمة كثيرهم عرب خلّص مع أقلية مهاجرة من الهنود (١٦,٠٠٠) والصوماليين (١١,٠٠٠) والاوربيين (٥,٠٠٠) .

والجزء الرئيسي من (مستعمرة التاج) يتألّف من شبه جزيرتين بركانيتين تحضنان خليجاً مستديراً . ومرفأ عدن يقوم على شبه الجزيرة الشرقية ، ووراءه مطار خور مكسرّ العظيم ، وفي شبه الجزيرة المقابلة (شبه جزيرة عدن الصغرى) مصفاة نفط ضخمة أنشأها البريطانيون عام ١٩٥٢ لتزوّد السفن العابرة بخمسة ملايين طن من البترول سنوياً .

ويتبع المستعمرة ايضاً جزر بريم وكمران الواقعة في البحر الاحمر ، وجزر قورية مورية النائمة في اقصى الشرق على البحر العربي . وفي البر على مقربة من المرفأ بضع قرى وواحات تزوّده بالماء من آبارها الارتوازية (الشيخ عثمان ، العماد ، الحسوة) .

وكانت عدن تدار من قبل حاكم الهند البريطاني المقيم في بومباي . ومنذ ١٩٣٧ جُعِلت لها ادارة مستقلة يرأسها حاكم عام عسكري يشرف هو ايضاً على بحمة عدن الواسعة ، ويعاونه مجلس تنفيذي من ستة اعضاء كلهم موظفون بريطانيون عدا عربي واحد .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية أُلْحِقَ بالحاكم العام مجلس تشريعي

يضم ستة عشر عضواً ، يُعيّن الحاكم العام اغلبيتهم ، ويُختار اربعة منهم بالانتخاب . ومن الاعضاء المعيّنين اثنان من العرب وواحد من الهنود . والاعضاء المنتخبون كلهم عرب .

والنشاط السياسي في المستعمرة ليس منعزلاً رغم ثقل الحكم البريطاني المباشر ، فهناك حزب الجنوب العربي الذي يطالب بخلق دولة جديدة في جنوب شبه الجزيرة تضم عدن المستعمرة وعدن المحمية ، وهناك الجبهة الوطنية المتعددة التي تطالب للمستعمرة بالاستقلال ، وقد انضوى الحزبان في ائتلاف موحد باسم المؤتمر الوطني العربي ، وهناك اخيراً الجمعية العدنية التي لا تتجاوز رغائبها المطالبة باستقلال داخلي للمستعمرة ، ويمثل هذه الجمعية ثلاثة من الاعضاء المنتخبين في المجلس التشريعي .

ومن الطبيعي ان لا تسمح بريطانيا لانصار اليمن ان يتكتموا في حزب معلن ومعترف به .

ولمستعمرة عدن عند البريطانيين شأن خاص لا يدانيه شأن جبل طارق ومالطة وسنغافورة وهونغ كونغ . ذلك انها سوق للمبادلة ومخزن للبضائع ومركز للتأمين بالماء والفحم والنفط ، وهي الميناء الضخم الوحيدة بين الهند ومصر ، ثم انها حصن استراتيجي رابض على ارض العرب لضرب العرب . وقد ازدادت مكانة المستعمرة حين اصبحت مركز القيادة العليا للقوى البريطانية في الجزيرة العربية منذ ١٩٥٧ ، وغدت من اضخم المراكز لتجميع الاسطول الجوي .

والواقع ان عدن ارض يمنية أصيلة ، سيطر عليها الاتراك بين منتصف القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واحتلها البرتغاليون خلال ذلك امدأ قديراً ، وعادت الى نطاق اليمن حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر حين تبعت سلطان حليج ، ومنه تسلمها البريطانيون . وكان هؤلاء قد شعروا بضرورة التمرکز على منافذ البحر الاحمر

عندما هددهم بونابرت بقطع طريق الهند بعد احتلاله لمصر . فمنذ عام ١٧٩٩ تزلوا بجزيرة بريم قبالة ساحل اليمن ، ولكن فقدان الماء اضطرهم الى الجلاء عنها ، فعزموا على احتلال عدن . وراحوا الى سلطان لحج عام ١٨٠٢ وعقدوا معه معاهدة بريئة للصدقة والتجارة . . . تفتح ميناء عدن لسفنهم وتخوّلهم « أن يدخلوا المدينة من اي باب وان يركبوا الخيل والبغال والحمير واي حيوان آخر يستحسنون ركوبه . . . » وتمنحهم حق استملاك قطع من الارض ليؤروا تجارهم ويدفنوا موتاهم . . .

وفي سنة ١٨٣٤ احتلت قوى بريطانية مع موظفي (شركة الهند الشرقية) جزيرة سقطرة القائمة في البحر العربي عند مدخل خليج عدن . وحدث أن مر كبا هندياً غرق في بحر عدن عام ١٨٣٧ فذهب البدو بعض البضائع ، وأدى سلطان لحج الثمن للبريطانيين ولكنهم لم يكتفوا بذلك . . . جاءوا يطلبون اليه بكل بساطة التنازل لهم عن عدن لقاء ستة آلاف ريال سنوياً . . .

وقضَ السلطان ولكنه أذعن عام ١٨٣٩ عندما ضربت بلاده الأساطيل البريطانية .

وظل العبادلة — سلاطين لحج — يهاجمون المحتلين حتى عام ١٨٥٧ حين أبرموا معهم صلحاً دائماً وتخلّوا لهم ايضاً عن جزيرة بريم . وقبل ذلك بسنوات ثلاث استولى البريطانيون من سلطان عُمان على جزر قورية مورية .

وبعد فتح قناة السويس غلت قيمة عدن تجارياً وعسكرياً . وفي السنة الثانية للحرب العالمية الاولى حاول الاتراك استخلاص النواحي التسع وعدن من الحكم البريطاني ، الا ان الانجليز وحكام لحج نازروا على خذلانهم ، وبقي الاتراك في لحج وحدها حتى هدنة عام ١٩١٨ ولكنهم تركوا للانجليز جزيرة كَسْران منذ عام ١٩١٥ . وجاءت معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ مثبتة هذا الوضع .

وتلاحظون ، ايها السادة ، ان اليمن — صاحبة الحق الطبيعي والتاريخي

في عدن - قد أغفل وأبها في جميع هذه المراحل ، وأصبحت أرضها في أكثر جهاتها عرضة لغزو العدو المتربص بها براً وبحراً وجواً ..

وقد عاد الوثام بين سلاطين لحج وأئمة اليمن . وتذكرون الاتجاه جش لحج الى الارض اليمنية هذا العام . وعلى اثر ذلك حالت بريطانيا دون رجوع السلطان علي عبد الكريم الى مقر سلطنته فاحتضنته مصر واليمن ، وقبل ذلك بستة اعوام نحى البريطانيون ايضاً سلفه وشقيقه فضل عبد الكريم لرفضه قبول مستشار بريطاني ، فاستقر في اليمن .

هذه قصة مستعمرة عدن ، وقصة محمية عدن تشبها الى حد كبير .. وما يسميه البريطانيون (محمية عدن) يشتمل على جملة امارات ومشيخات وسلطنات تزيد في الامتداد عن الجزر البريطانية وبلجيكا مجتمعة . ولكن سكانها ، كل سكانها ، لا يساؤون في العدد نصف اهالي مدينة الاسكندرية ..

وعندما أرادت بريطانيا إعادة تنظيم المحمية عام ١٩٣٧ اضطرت لان تأخذ توافيق ١٤٠٠ شيخ وامير في منطقة حضرموت وحدها ... وبين كل شيخ او امير او سلطان وبين بريطانيا معاهدة حماية وصداقة ، ويمثلها لديه مستشار خاص . ومنطقة الحماية كلها موكولة الى حسن تصرف الحاكم العام في عدن .

وكنت أسبقت القول بان محمية عدن تقسم رسمياً الى غربية وشرقية . فالمحمية الغربية ليست في الحقيقة سوى الجزء الجنوبي من اليمن المحيط بـ عدن ، والشرقية هي البقاع التي نعرفها في التاريخ العربي باسم حضرموت والشحر ومهرة .

وكان البريطانيون يعدون في المحمية الغربية تسع حكومات ويسمونها بالنواحي التسع . ثم جعلوها ١٨ دولة .. منذ ١٩٣٧ ، وهي في الواقع تضم أكثر من هذا العدد .. وقد عمد البريطانيون الى دمج عدة مشيخات و امارات في مسمى مشترك وبزعامة اسمية لاميرواحد حتى

تسهل لهم شؤون الحكم . ومنذ ١٩٣٠ جمع والي عدن كبار المشايخ في
 (مؤتمر النواحي التسع) ليوقعوا فيما بينهم ميثاق تضامن على « الامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر .. » . ومهما يكن الامر فان هذه النواحي
 يختلف اسمها ومسماها حسب المشيئة البريطانية ، وآخر تصنيف رسمي لدول
 المحمية الغربية هو التالي :

الدولة	الحاكم
١ - العبدلي (لُحج) :	السلطان علي عبد الكريم المبعد الآن
٢ - العامري :	الأمير شفعال بن علي
٣ - الفضلي :	السلطان عبد الله بن عثمان
٤ - يافع السفلي :	السلطان عيد روس بن محسن
٥ - الحوشي :	السلطان فيصل بن سرور
٦ - يافع العليا :	السلطان محمد بن صالح
٧ - الوسطية :	الشيخ احمد بو بكر علي عسكر والشيخ حسين صالح محسن عسكر
٨ - ظبي :	الشيخ عبد الرحمن بن صالح بوصاية الشيخ صالح سليم
٩ - المفلحي :	الشيخ قاسم عبد الرحمن
١٠ - الحضرمي :	الشيخ محمد محسن غالب
١١ - الشايب :	الشيخ يحيى بن محمد
١٢ - الرقطبي :	الشيخ سيف حسن
١٣ - العلوي :	الشيخ صالح السائل
١٤ - العقربي :	الشيخ محمد فضل باعبدالله
١٥ - العوذلي :	السلطان صالح بن حسين
١٦ - العولقي العليا :	السلطان عوض بن صالح بن عبد الله والشيخ محسن بن فريد

١٧ - العولقي السفلى : السلطان نصر بن عيدروس بن علي

بن عبد الله بوصاية السلطان احمد بن علي

١٨ - بيجان : الأمير صالح بن حسين

هذه الدول العديدة لا تجاوز كثيراً في الرقعة مساحة محافظة دير الزور في الاقليم السوري . . ويقارب القاطنون بها عدد سكان مدينة دمشق ، واكبرها سلطنة لحج تساوي جمهورية لبنان في الحوزة ويسكنها على اكثر تقدير ثمانون الف نسمة . .

وقد جدت بريطانيا معاهدتها مع هذه الدول بين ١٩٤٤ و ١٩٥٢ ، وألحقت بكل منها مستشاراً من الموظفين البريطانيين التابعين لحاكم عدن العام .

ومنذ ١٩٥٤ اكتسبت محمية عدن الغربية قيمة لا تقدر بنظر البريطانيين واليابانيين على السواء ، وذلك حين اصبح من الثابت توفر البترول فيها ، وخاصة في بيجان .

وبدا لبريطانيا منذ ذلك التاريخ ان تنظم المحمية على أسس جديدة ، بحيث تخلق من دولها المبعثرة اتحاداً فيدرالياً قوياً يقطع الطريق على اليمن ويقف في وجهها الى جانب بريطانيا . ففي مطلع عام ١٩٥٤ دعا الحاكم العام امراء المحمية الغربية الى مؤتمر رسمي واقترح عليهم لم اماراتهم في اتحاد فيدرالي يكون له مجلس تنفيذي وجمعية تشريعية ، على ان يقوم مثل هذا الاتحاد في المحمية الشرقية ، وينظر فيما بعد بربط الاتحادين .

وازور اكثر الامراء ، وعارضت اليمن ، واحتجت جامعة الدول العربية ، فأرجىء البحث في المشروع .

واعيد الموضوع الى البحث عام ١٩٥٦ على اساس انشاء اتحاد عام يضم منذ تأسيسه امارات المحيتين الشرقية والغربية ، وكان من عقايل ذلك نشوب الاضطرابات في المنطقتين واستشراء الصراع على حدود اليمن .

وفي عامنا هذا تعود بريطانيا الى ابراز المشروع من جديد ؛ وتأمل

هذه المرة ان تنجح في المحمية الشرقية على الاقل رغم ثورة القبائل .
 والمحمية الشرقية هذه تتاخم من الشمال صحراء الربع الخالي التابعة
 للملكة السعودية؛ والحدود بينها تضيع في الرمال الممتوجة. ويدخل في حساب
 بريطانيا حتماً ان تتخذ من اتحاد دول المحمية الشرقية المقبل قوة مناهضة
 للملكة السعودية . اما من الناحية البترولية فاحتكار التنقيب عن النفط
 يعود في الربع الخالي الى شركات امريكية ، وهي كما تعلمون على تناحر
 دائم مع الشركات البريطانية . ويصح ان تنبأ منذ الآن عن أحداث
 كثيرة ستقع على ملاسة الحدود الغامضة بين جنوب الربع الخالي
 وشمال حضرموت .

وقد جمعت الامارات في المحمية الشرقية ضمن خمس دول هي :

الحاكم

الدولة

- ١ - القعيطي (حضرموت الساحلية) : السلطان عوض بن صالح القعيطي
 - ٢ - الكثيري (حضرموت الداخلية) : السلطان حسين بن علي الكثيري
 - ٣ - مهرة و كشن وسقوطرة : السلطان عيسى بن علي بن عفرور
 - ٤ - البلحاف : السلطان ناصر بن عبد الله الواحدي
 - ٥ - بير علي : السلطان علوي بن محسن الواحدي
- وسلطنة القعيطي هي أعظمها شأنًا وأوسعها ثراءً واثقها صلة ببريطانيا.
 ومؤسس الاسرة القعيطية ينحدر من قبيلة يافع اليمنية ، وقد هاجر بعض
 افرادها الى حيدرآباد الهند ، والتخرط واحد من احفادهم في الجيش وجمع
 ثروة ضخمة وجاء باسطول كبير فاستولى على حضرموت . ووقع السلطان
 عوض القعيطي معاهدة الحماية مع بريطانيا عام ١٨٨٨ ، اما سلطان الكثيري
 فلم يتقبل مثل هذه الحماية الا عام ١٩١٨ ، وفي عامي ١٩٣٧
 و ١٩٣٩ انقبض استقلال السلطنتين مرة اخرى بمعاهدات (المشورة) . .
 التي تلزم حكاهما باستطلاع رأي المستشارين البريطانيين في كل امر عدا
 الشريعة الاسلامية . . ، وفرضت هذه المعاهدات ايضاً عام ١٩٤٩ على

سلاطين الواحدي . اما سلطان مهرة وسقوطة فقد قبل بمعاهدة الحماية منذ
١٨٦٦ ، وكنا ذكرنا ان استيلاء انجلترا على جزيرة سقوطة سابق
لاستيلائها على عدن .

وبعد ، ايها السادة ، لا حد للحدس والتخمين فيما يتعلق بالجنوب العربي :
هل ينضم الى المملكة السعودية ؟ ام الى المملكة اليمنية ؟ ام يؤلف دولة
عربية جديدة ؟

ان ما هم العرب قبل كل شيء هو انسحاب البريطانيين الغاصبين من
تلك الربوع العربية .

٨ - مسقط وعمان

يقول الفرنسي (برّيه بي) الذي سبق لنا الاستشهاد به :
عجّب امر هذه السلطنة - سلطنة مسقط - التي لا حدود بيّنة لها ،
والتي يقال انها مستقلة . . في حين يقود قواتها المسلحة ضباط بريطانيون ،
ويتولى وزارة خارجيتها رجل يدعى نيل انز . . ويعاونه القنصل البريطاني
العام الذي يتبع المقيم السياسي البريطاني في الخليج الفارسي . ان تسمية
هذه السلطنة هي في حد ذاتها امر غريب ، فهي تنسب الى عاصمتها ذات
الثلاثة آلاف ساكن ، مع ان المنطقة تمتد جغرافياً على اكثر من مائتي الف
كيلو متر مربع . ونموض حدودها ادعي الى العجب ، ولذا تمنحها اكثر
المراجع مساحة تتراوح بين ٢٠٠ الف كيلو مربع و ٢٢٠ الف ، بينما تؤكد
شركة نفط العراق - صاحبة امتياز التنقيب فيها - ان هذه المساحة لا تقل
عن ٣٥٠ الف كيلو متر مربع . .

عجيبة حقاً قصة هذا السلطان - سلطان مسقط - الذي لا يعترف
بسلطانه رعاياه الا ساوش في الجبل الاسم ، ويلتمس دوما دعماً بريطانياً
ليثبت على كرسيه . .

والمؤلف ذاته يقول في موضع آخر : اذا كانت سلطنة عمان ومسقط
دولة مستقلة من ناحية القانون الدولي ، فهي في نظر الواقع الدولي محمية
يشرف البريطانيون على شؤونها الخارجية والدفاعية والمالية . .
وأضيف الى قول المؤلف نثقاً اخرى كلها غرائب ، ولعلكم سمعتم
بان مسقط ، الدولة الساجدة على اقدام بريطانيا ، تمتلك مستعمرة تابعة لها في

غربي الباكستان ، وهي منطقة (غوادار) التي قدّمها أهلها هدية للسلطان منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً ؛ وبانتظار المفاوضات الجارية الآن للتخلي عن هذه المستعمرة يستمرّ سلطان مسقط على حكمها ، منيباً عنه في ادارتها موظفاً بريطانياً . . . (١)

ان جيش السلطان العربي لا يفهم اللغة العربية .. لأنه كله من بلوچ (غوادار) بقيادة ضباط بريطانيين وباكستانيين . . وبهذا الجيش الهجين يحاول السلطان سعيد بن تيمور ان يضرب العرب الاقحاح في الجبل العُماني الاخضر .

والسيد الحالي لمسقط ، سعيد بن تيمور ، رجل منور ، رغم حليته المديدة وردائه الفضفاض ، فهو يتقن اللغات الأوردية والانجليزية والعربية ؛ وقد درس في ثانوية بريطانية ببومباي ، وأتمّ تعلّمه للعربية في مدرسة ثانوية ببغداد . ولكن السيد سعيد رجل فقير ، ولذا فقد أجّر بريطانيا في الحرب العالمية الثانية قواعد ومطارات في سلالة ومطرح وجزيرة سقوطرة لقاء ستة آلاف جنيه فقط سنوياً . ولا تزال القواعد والمطارات قائّمة ، ولا يزال السلطان يقبض الجُعل المتواضع . وهو لفقره يزاول التجارة مع الهند ويقبّر على رعاياه ، فلا يشق الطرق ولا يفتح المدارس ولا يبني مستشفيات ولا يعيّن أطباء . . ؛ وتصلح بلاده لأن تكون نموذجاً عالمياً للتخلف الاقتصادي والركود الاجتماعي .

بقي أن نقول بأن العُمانيين كانوا الى زمن قريب من انشط الشعوب العربية وأغناها ، وكانت بلادهم تزدهم بالقصور وتنعم بالرفه ؛ حتى لقد شبّه بعضهم احوالها الذاهبة بما نقرأه في أساطير ألف ليلة وليلة وبحياة العباسيين أيام عز بغداد .

ويظهر أن سهوله العيش شيء قديم في البلاد ، حتى روي عن الرسول العربي قوله : من ضاق عليه الرزق فعليه بعُمان .

(١) ثم التنازل عن غوادار لباكستان في ٨ أيلول ١٩٥٨

اما اليوم فالقصور خراب والرفه بوّس والنشاط خمول .
كانت العاصمة مسقط منذ نصف قرن أو أقل تضم خمسين الف نسمة ..
فعدت اليوم قرية يلقبها العدم .

هذا التطور المنكود ، أيها السادة ، يستحق ان يدوّن ؛ فلنواكب بعض
السنين ؛ وهو ان دلّ على شيء فأعظم دلالاته ان النفوذ البريطاني لا يتراصف
مع الرخاء بالضرورة ..

لقد شارك العمانيون في الانتفاضة الديمقراطية الكبرى التي نهض بها
الخوارج للاطاحة بالنظام الملكي الوراثي ، ذلك الذي أقامه الامويون
واستمسك به العباسيون ؛ ولذا حاربهم هؤلاء واولئك بجيوش لا اعداد لها
ولكنهم لم يظفروا منهم باضطراح مبادئهم ؛ واحتفظ اهل عُمان بالمذهب
الخارجي الاباضي الى هذا اليوم ؛ ولذلك فان الامامة الانتخابية هي لديهم
ركن العقيدة . الا ان بعض الأئمة قلبوا البيعة الانتخابية الى ملك ارثي
مرات ثلاث في تاريخ البلاد ، آخرها في عهد السلالة القائمة الآن في مسقط ،
سلالة البوسعيد ، التي تتحكّم منذ عام ١٧٤١ .

وحدثت لأئمة عمان أو سلاطينهم حروب طويلة مع الفرس واليمنيين
والبرتغاليين والوهابيين قبل ان تتمكن بريطانيا من فرض « صداقتها » عليهم .
وكان العمانيون قد طردوا المستعمرين البرتغاليين من سطان الخليج
العربي في منتصف القرن السابع عشر ، واستولت أساطيلهم على المستعمرات
البرتغالية المنتشرة على ساحل افريقيا الشرقي (مقديشو ، مباسا ، زنجبار) .
وعندما ظهرت أسرة البوسعيد في القرن الثامن عشر ، وحوّلت
الامامة الى سلطنة ، انتقل سلاطينها الى الساحل ، وجعلوا مسقط عاصمة لهم
بدلاً من نزوى ؛ وضمّت امبراطوريتهم الساحل العماني وافريقيا الشرقية .
أما في داخل البلاد العمانية فالامامة الدينية ظلت مستورة في مدينة الرستاق ؛
وتمّ بالفعل الانفصال بين الجبل والسهل الساحلي ؛ على أن سلطان مسقط
ظلّ من ناحية الشكل الدولي حاكماً لمسقط وعمان معا .

ومنذ ذلك العهد السحيق بدأت العلاقات بين أمياد مسقط وأسيادهم
البريطانيين ؛ فان أول معاهدة « صداقة » بين مسقط ولندن ترجع الى
عام ١٧٩٧ ؛ وفي سنة ١٨٠٠ حلّ في العاصمة الساحلية لعمان أول ممثل
سياسي بريطاني .

بيد أن اضطراع الدول الكبرى على النفوذ سيحفظ لعمان كلها استقلالاً
اسمياً حتى اليوم . فمذ ١٨٣٣ عقدت الولايات المتحدة الأمريكية - أيضاً -
معاهدة صداقة مع السلطان ، لاتزال نافذة الى الآن ؛ واضطرت بريطانيا
الى تجديد معاهدتها معه عام ١٨٣٩ ؛ وتلتها فرنسا عام ١٨٤٣ وهولندا
عام ١٨٧٧ .

وتفاهت بريطانيا وفرنسا عام ١٨٦٢ على احترام استقلال مسقط وضمان
سلامة أرضها .

وصدر عن محكمة العدل الدولية في لاهاي عام ١٩٠٥ قرار يعتبر سلطنة
مسقط دولة مستقلة متمتعة بكامل السيادة .

وكان أمراء أسرة (البوسعيد) قد توازعا امبراطوريتهم الوسيعة
منذ ١٨٥٦ ، فاستقل بعضهم في مسقط وآخرون في شرقي أفريقيا ،
ولاحقتهم « الصداقة » البريطانية هنا وهناك .. غير ان يد الانجليز كانت
اكثر حرية في (زنجبار) .

وجهدت بريطانيا في توسيع « صداقتها » مع مسقط عاماً بعد عام ،
وذلك بعقد معاهدات جديدة تعمق نفوذها وتبسط سيطرتها ، كمعاهدات
واتفاقيات ١٨٩١ و ١٩٢٣ و ١٩٥١ و ١٩٥٥ .

وكل هذه المعاهدات والاتفاقيات تنص على استقلال مسقط
وسيادتها الشاملة ...

وحدث في عام ١٩١٥ أن العمانيين نقموا على السلطان فيصل بن تركي
موقفه الواهن الذليل أمام الأسد البريطاني قناروا في قاضي البلاد ودانها وتبرؤوا
من السلطان وشككوا حكومة وطنية مستقلة جعلوا نزوى عاصمة لها . وفي

عام ١٩٢٠ عُقدت معاهدة (السيب) التي تجعل من عمان الداخلية دولة مستقلة عن سلطنة مسقط ، وكان اول إمام انتُخب لها سالم بن راشد الحروصي ثم خلفه الامام محمد بن عبد الله الخليلي .
واعترفت بريطانيا بامامة عُمان المستقلة عام ١٩٢٨ بلسان حاكم الهند العام .

وظل الأمر على استتباب حتى عام ١٩٥٥ .

في ذلك العام كانت حتمى البترول قد نفذت في ضلوع السلطان حتى الاعماق ، وسلبته ما تبقى لديه من صباية صواب ، لقد ولي سعيد ابن تيمور حكومة مسقط منذ ١٩٣٢ . ومرّت به الأيام والليالي وهو ينظر الى جيرانه الأقربين ، في السعودية وقطر والبحرين والكويت ، بعين يرمضها الحسد وتحرقها الحسرة : هم يرفلون في مطارف النعمة ويستصفون المُستعجِل من الذهب السائل ، وهو يتلوّى غيظاً في بؤسه الأسود .

والتعمت عينا السلطان يبريق الأمل المكبوت حين جاءه عام ١٩٥٥ بمثلو الشركة البريطانية لنفط العراق مؤكّدين أن النفط متوافر في الجبال الداخلية التابعة لامامة عمان .

وتواطأت الشركة والسلطان على احتلال عُمان الداخلية على أن تقوم الشركة بدفع نفقات الحملة — هذا ما يؤكّده المؤلّف الفرنسي برّيه — وتتعهد بريطانيا بتبسيّ الغزو واستخدام قواها البحرية والبحرية والجوية في سبيل النصر المشترك .

هذا هو ، أيها السادة ، سرّ الحرب العُمانية المشتعلة منذ ثلاث سنوات . بدأت في كانون الأول من عام ١٩٥٥ بمهاجمة امام عمان واطلاق خلعها وسوق الجيوش البريطانية الى معاقله .

ومع الجنود البريطانيين والمرتقين ، ومجراستهم ، يحفر عمال الشركة البريطانية آبار النفط ويرتقبون تصعّد السائل الغالي . ولم تحتج الولايات المتحدة الامريكية على هذه الجريمة الدولية الصارخة ،

لأن السيد سعيد بن تيمور قد رشاها بامتياز لاستنباط البترول في ظفار ،
الولاية الغربية من دولة مسقط .

ويقف الامام غالب بن علي واخوه طالب وبطانتة من الامراء الحارثيين ،
يقفون منتظرين ان تستفيق العدالة الدولية ويصحو الضمير الانساني . . وفي
اثناء ذلك تستمر طائرات صاحبة الجلالة البريطانية على قصف النسوة والرضع
والشيوخ في البلدات والضيع المتناثرة على اعضاد الجبل الاخضر ،
جبل الايمان .

٩ - امارات الخليج العربي :

في اليمن ومسقط وعمان أحسستم بوزن البترول في السياسة البريطانية المستسرّة أو المفسوحة .. ويقوى احساسكم بذلك حين تنكشف لكم الدسائس الجوفية لبريطانيا وامريكا في امارات الخليج وفي المملكة العربية السعودية .

أ - الساحل المتهدان :

في الشمال الغربي من عمان يبدأ خليج البصرة - الخليج العربي حسب مسمياتنا الحديثة والخليج الفارسي باصطلاح الاجانب - بسلسلة من الامارات والمشيخات لاتعدو الواحدة منها ان تكون قبيلة متواضعة او ضيقة متوسطة ، ليس لها في التاريخ الحديث ولا في الجغرافيا الحديثة اسم موحد ، فيقال لها بلاد ساحل القرصان او الساحل المعاهد او ساحل الصلح او الساحل المتصالح او مشيخات الهدنة او عمان المتصالحه الخ ..

والاسم لا يهم كثيراً او قليلا . المهم ان هناك سبع دول عربية تقول عنها بريطانيا انها مستقلة وذات سيادة لكنها مشمولة بمجاورة صاحبة الجلالة البريطانية . فهي لا « تتعامل » مع وزارة المستعمرات بل مرجعها وزارة الخارجية البريطانية .

هذه الدول السبع يجمع عدد سكانها رقماً يساوي بجملته سكان مدينة دير الزور ، اي نحواً من ثمانين الفا . لكنها تمتد على مساحة غير محدودة بالضبط ، فقد تكون عشرة آلاف كيلومتر مربع وقد تكون ٨٤٠٠٠ !

والبيك اسماء الدول وحكّامها :

- | | |
|------------------------|----------------------|
| (١) الشارقة و كلبه : | صقر بن سلطان القاسمي |
| (٢) رأس الخيمة : | صقر بن محمد القاسمي |
| (٣) أم قوَيْن : | أحمد بن راشد |
| (٤) العجمان : | راشد النعيمي |
| (٥) دُجَي : | راشد بن سعيد |
| (٦) أبو ظبي : | شخبوط بن سلطان |
| (٧) الفجيرة : | محمد بن حمد الشارقي |

وفي كل منها عدد تعمل بريطانيا على تكاثره من المهاجرين الهنود والباكستانيين واليرانيين .

وقد بدأت بريطانيا صلاتها الودية .. مع شيوخ المنطقة عام ١٨٢٠ ، حين تهادنت معهم على وقف القرصنة في عرض البحر ، ثم أخذت ترمّ قبضتها عليهم بمعاهدات واتفاقيات ثنائية توالت في عامي ١٨٥٣ و ١٨٩٢ . وفي العامين ١٩١١ و ١٩١٢ التزم الشيوخ بعهد جديد يحرصون فيه حق نبش الارض واستخراج فلذاتها ونفطها ببريطانيا وحدها .

وظفت شركة نفط العراق البريطانية تنجراً عن النفط منذ ١٩٤٥ على الارض الصماء وفي قاع البحر القريب . وحاولت الولايات المتحدة الامريكية تجاوز الحصر البريطاني ، فانترعت احدي شركتها عام ١٩٥١ امتيازاً نفطياً لا يتعدى اعماق الخليج ؛ وكان لا بد ان تحتج الشركة البريطانية ؛ فتألفت لجنة دولية للنظر في الخلاف ، انحازت الى الرأي الامريكي ، واخيراً رضت الشركة الامريكية ان تجنح هنا الى مبدأ التسامح مع الانجليز .

والمأمول ان تبدأ الآبار بالانتاج خلال عام ١٩٥٨ ؛ وبانتظار ذلك يتقاضى اشياخ الساحل جعلاً موقفاً لا يتجاوز ١٧٥,٠٠٠ جنيه في السنة ، يلتقف امير ابو ظبي اكثر من ثلثها .

وبالإضافة الى الذهب الاسود تفيد بريطانيا من امارات الخليج موقفاً

عسكرياً ممتازاً . ولها في الشارقة مطار حربي رحيب . وهي الى ذلك تجتهد
بعض المطوعة المرتزقين ، وتجعل منهم قوة مناوشة على حدود المملكة
العربية السعودية .

وذلك ان العلاقات بين السعوديين والبريطانيين ليست على مايلدّ لهؤلاء
الاخيرين ، وسينكشف لكم سر ذلك عند استعراضنا للسياسة السعودية خلال
الاعوام الاخيرة .

ويحسن أن نذكر بأن بريطانيا تسعى منذ ١٩٤٥ الى دمج امارات
الخليج في تحالف ائتلافي تدبره وتديره وتعبئه لمناوئة المملكة السعودية
وازدراء قطع من حوزتها . والسكان العرب يتواصلون حول المخلصين من
شيوخهم لتزويق كل مشروع بريطاني يعرفون عن سابق خبرة أنه لا يستهدف
في النهاية سوى تزويق الأخوة العربية .

ولنذكر أيضاً أن البريطانيين قد جعلوا من امارات الخليج سجنًا محكم
التغليق حتى لايسمها الوهج العربي المنقذ الزاحف من بلدان العرب المتحررة ،
وأعسر من العسير أن يؤذن بدخول المنطقة لغير عمّال بريطانيا وعملائها ،
ولكن الصوت العربي الندي يتقحّم السجن عبر الأثير فيعانق القلوب
ويلهب المشاعر .

ب - قَطْر :

وحين نجاوز امارات الساحل المهادن باتجاه رأس الخليج العربي تقابلنا
إمارة قَطْر ، وهي كف من الارض المستوية تنبسط بين سفيي البحر ،
فتكون حدودها مائة من جهاتها الثلاث ، الا ان حدودها تمتد في رمال
الصحراء العربية الكبرى فلا يعسر على بريطانيا حين الحاجة ان تعبت بهذه
الحدود وتثير الخلافات مع المملكة السعودية وامارة (ابو ظبي) .. ولذا
فان تعيين مساحة قطر بنحو ٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع لا يعدوان يكون
تقديراً تقريبياً .

والسكان أربعون أو خمسون ألفاً ، بينهم بضعة آلاف من العبيد السود ومثلهم من البُدَاة ، ويتوزع باقيهم على العاصمة (الدوحة) وعدة بليدات صغيرة اخرى (الوكرة ، مسعيد ، العريش ، دُخان ، الحور ، الذخيرة الخ ..) .
وأمر قطر منذ ١٩٤٩ هو الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثان ، يأزره في الحكم نجله الامير أحمد . على ان التمثيل الخارجي وشؤون الدفاع يديرها مباشرة ممثل بريطانيا المستوردون . اما الادارات الداخلية كالشرطة والجمارك والاستغال العامة والصحة والتربية والتعليم فيشرف عليها من على المستشار البريطاني المستر هانكوك .. وهو مسؤول عن حسن سيرها أمام الامير ..

ومن وجهة النظر التاريخية كانت قطر جزءاً من بلاد البحرين ، ثم خضعت عام ١٨٧٢ لتوكيا التي احتفظت بسيادتها عليها حتى عام ١٩١٥ . وفي الواقع تعاقبت قطر مع بريطانيا منذ ١٨٨٢ ، وُجدت المعاهدة بينها وشدّت بنودها عام ١٩١٦ ثم عام ١٩٣٤ . فالامارة هي في عرف القانون الدولي محمية صريحة الا انها من الناحية الدينية تعتبر ربيبة للملكة العربية السعودية لأن سكانها يأخذون بذهب الوهابية ، ويتحدّر امرؤها من قبيلة تميم النجدية . وسكان قطر يرفهون بنعمى البترول ، أو على الاقل نفر منهم . فشركات الزيت ترفد موازنة الامارة بنحو ١٣٠ مليون ليرة سورية سنوياً من أصل ١٣٤ مليون ، ولو قسم هذا المبلغ بالتساوي على رعايا الامارة لأصاب الواحد منهم نحو ٢٨٠ ليرة سورية في الشهر ..

ومن الانصاف ان نسجل لامراء قطر غيرتهم المشكورة على شؤون رعاياهم التعليمية والصحية والعمرانية ، فهم ينفقون جل موارد الزيت في هذه الغاية . وحسي ان اذكر لكم بأن في قطر ٢٦ مدرسة تجمع ٢٣٠٠ طالب وطالبة ، ويُبذل لهم بسخاء الغذاء والكساء والعلاج .
وفي قطر تجار من كبار اصحاب اليسار ، يمتلك الواحد منهم عشرات السيارات الامريكية الفخمة .. أمثال عبد الله الدرويش والمانع والعسيوي

والخليفي وغيرهم .. أما الفقراء فلهم من الامراء راتب سنوي (يُسمى بالقاعدة) قد يرتفع الى نحو ٧٠٠ ليرة سورية . بقي ان نقول بأن شركة بترول قطر هي فرع من شركة نفط العراق ، وقد حُدّد امتيازها بخمسة وسبعين عاماً بدءاً من عام ١٩٣٥ ، وقد بدأ الاستثمار التجاري بالفعل عام ١٩٤٩ ، وقارب المنتج عام ١٩٥٧ سبعة ملايين طن . والمقدّر ان ارض قطر تدّخر في جوفها مليار ومائتي الف برميل اي نحو ١٪ من المدّخر العالمي . وقد نالت شركة بريطانية أخرى عام ١٩٤٩ حق التنقيب عن البترول في الاعماق المحيطة بساحل قطر .

كل هذا نسوق ذكره هنا لغاية واحدة ، وهي بيان عوامل الفزع الذي تنخلع منه قلوب المستعمرين تجاه الوعي العربي المتصعّد في قطر ، وفي البحرين والكويت ، وتجاه الاواصر المتمكّنة بين امراء هذه المنطقة والجمهورية العربية المتحدة والمستعمرون يأخذون عدّتهم منذ الآن للمعركة العتيّدة التي ستشهد لها العروبة على ساحل البترول ..

ج - البحرين :

وفي اللسان البحري المناوح لقطر من الغرب تقع مجموعة جزر البحرين . ولهذا الجزر الصغيرة قصة كبيرة مع دولة ايران .

انكم لتسمعون كل يوم من حكام ايران اصواتاً منكّرة تجهر بأن البحرين جزء لا ينفصم عن الوطن الايراني .. نادت بذلك وتنادي كل وزارة ايرانية تقبض على مقاليد الحكم ، سواء كان يرأسها مصدّق او زاهدي او حسين علاء . ويقدمّ الايرانيون بين يدي دعواهم حججاً ووثائق مهلهلة النسيج ..

يقولون ان الجزر البحرانية آلت لفارس بعد نزوح البرتغاليين عنها في مطلع القرن السابع عشر ، وانها على الاقل خضعت للفرس خضوعاً كاملاً مدة ثمانية واربعين عاماً بين ١٧٣٥ و ١٧٨٣ . ولكنهم يتجسّبون القول بأن الفرس سطوا عليها عنوةً ثم طردوا منها اذّلاء مدحورين ..

و اذا كان الفتح اغتصاباً يصلح حجةً مشروعة للتملّك فأحرى بالبرتغاليين ان يدّعوا ملكية البحرين لانهم احتلّوها قبل الفرس وحكموها نحواً من

قرن بين ١٥٠٧ و ١٦٠٢ ، وجرت لهم فيها معارك حامية مع الاتراك .
ويقول الايرانيون أيضاً : ان في البحرين ١٢,٠٠٠ ايراني ، وهذا
صحيح ، الا انهم مهاجرون مرتزقة ، وعدددهم يسير بالقياس الى جملة السكان
الذين ينوفون عن مائة وخمسة وعشرين ألفاً . وحجتهم الثالثة ان نصف
السكان البحرانيين على الاقل يتبعون المذهب الشيعي ، ويران هي مرجع
الشيعة وهو ثلها . . .

وبالارتكاز الى ذرائع من هذا القبيل يحق لايران ان تطالب بالعراق ايضاً . . .
وبالطبع لايرتضي المسؤولون الايرانيون الاحتكام الى رأي السكان
في الجزر ، لانهم يعرفون طبيعة العواطف التي يكنها لهم البحرانيون العرب
سواء الشيعة منهم او السنيون .

ولايسع الايرانيين ان يتخذوا من الضرورات الاقتصادية شريعاً لضم
الجزر اليهم ، لان العلاقات التجارية بين ايران والبحرين اكثر من واهية ،
فنصف مستوردات الجزر تحتكرها بريطانيا والهند والولايات المتحدة
الامريكية والباكستان ، وتوزع النصف الآخر هولندا واطاليا واليونان
واستراليا والمانيا واليابان . وتستوعب المملكة العربية السعودية وحدها
٧٠٪ من سلع البحرين المصدرة او المعاد تصديرها ، ولا يتجاوز نصيب
ايران من ذلك ٧٪ .

ان مطالب ايران ، ايها السادة ، تبدو وكأنها معاندة صيانية .
والافائك التي ينسجها حكام ايران تفرض علينا ان نرجع في ماضي البحرين
مدى قرن او قرنين :

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون : ان جزر البحرين كانت مرتبطة
المصير دوماً بالاحساء . والاحساء كما تعرفون هي الولاية الشرقية من
المملكة السعودية ، ولا تبعد عن البحرين اكثر من ثلاثة كيلو مترات .
واقرب بعد بين ساحل ايران الغربي والجزر البحرانية هو ٢٠٠ كيلو متر .
والواقع ان الحكم العثماني الذي طغى على الوطن العربي في القرن السادس

عشر قد لفّ ايضاً الاحساء وتوابعها ، ولم تتخلّ الدولة العلية عن حقوقها القديمة في جزر البحرين الا بمعاهدة لندن المعقودة عام ١٩١٣ .

وفي القرن الثامن عشر اسّس تاجر كويتي ورع اماره وراثية شملت البحرين وقطر ، ثم استقرّ الحكم في البحرين لآل خليفة الذين استخلصوا الجزر من هيمنة الفرس ، وهم ينتمون لقبيلة عُمَيّة النجدية . وخضعت الجزر بعض الزمن لحكام مسقط والسعوديين .

وفي عام ١٨٢٠ عُقدت أول معاهدة بين البحرين وشركة الهند الشرقية البريطانية ، أما معاهدة الحماية فقد وقّعها الشيخ عيسى بن علي آل خليفة عام ١٨٨٠ ، ثم جددت عام ١٨٩٢ . وفيما يتعلق بشؤون التنقيب عن النفط فان الاتفاق عليها يرجع الى عامي ١٩١١ و ١٩١٤ .

هذا هو ، باختصار ، مجرى الحوادث التاريخية التي مرّت بالقطر البحراني .

فأين هو حق ايران السليب !?

يقول الرسميون الايرانيون انهم يطالبون باستعادة البحرين منذ ١٨٢٩ ، وانهم مازالوا يعتبرون البريطانيين معتدين على جزء من بلادهم . ويزعمون ان اللورد كلارندون ، احد وزراء الخارجية في بريطانيا ، قد بعث بمذكرة الى الحكومة الايرانية في ٢٧ نيسان من عام ١٨٦٩ يعترف فيها بحق ايران المشروع . . . في جزر البحرين .

وينفي البريطانيون هذا المستند نفيّاً قاطعاً .

وحقّ ولو ثبت ذلك فهو من وجهة النظر العربية لا يمنح الايرانيين حقاً ولا شبه حق في ان يملكوا حبة رمل صفراء في احقر كتيب من غبراء العرب الموروثة . . .

وتبدّت القحة الايرانية الفجة ، اشدّ ماتبدّت ، عام ١٩٢٧ حين عُقدت معاهدة جدّة بين الانجليز والسعوديين ، التي أقر فيها هؤلاء الأخيرون بأن (البحرين دولة مستقلة ذات روابط خاصة مع المملكة المتحدة) وتعهّدوا بالمحافظة على علاقات حسن الجيرة مع الكويت والبحرين .

تقدم الايرانيون آنذاك بشكوى الى عصبة الامم ذكروا فيها أن
البحرين هي من « الأملاك الفارسية » ، وأنهم يعتبرون اتفاق جدة خرقاً
لسيادة ايران ..

وأجابت إنجلترا برسالة رسمية عن طريق السفير الايراني في لندن ،
قالت فيها : « انها لاتعرف اي أساس يصح ان تبني عليه ايران دعواها
بالسيادة على هذه الجزر ، فهي ليست جزءاً من ايران من الوجهة الجغرافية
ولست مأهولة بأناس من عنصر ايراني . على ان الحكومة البريطانية تعلم ان
الجنود الايرانيين أغاروا مرة على جزائر البحرين واحتلوها ، ولكن القبائل
العربية اغارت عليها حوالي سنة ١٧٨٣ بقيادة الزعيم الذي تحدّر عنه شيخها
الحالي وانتزعتها من حكومة الشاه ؛ ومن ذلك الحين لم تقع قط تحت سلطة
ايران الفعلية » .

وعاد الايرانيون الى المطالبة السميعة الملحفة عندما أبرمت عقود التنقيب
عن النفط في العامين ١٩٣٠ و ١٩٣٤

وحدث اغرب من ذلك .. حدث ان الايطاليين عام ١٩٤٠ قصفوا
القاعدة الانجليزية في جزيرة البحرين ، فاحتجت ايران - وكانت محايدة -
على العدوان الايطالي المسلح الذي انتهك حرمة اراضيها .
وثابت حكومات طهران على المطالبة والاحتجاج في الاعوام ١٩٤٦ ،
١٩٤٨ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ . وكان رد البريطانيين في كل مرة
قوية مراكزم العسكرية في الجزر . وفي نيسان ١٩٥٦ ، قبيل اجتماع
حلف بغداد في كراتشي ، اعلن الدكتور علي اردلان وزير الشؤون
الخارجية ان البحرين جزء لا يتجزأ من ايران .

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٥٧ اعلنت حكومة طهران انها « ألحقت جزر
البحرين وجعلت منها الولاية الايرانية الرابعة عشر ، وعيّنت لها
حاكماً ايرانياً »

وكان جواب بريطانيا هذه المرة ايضاً دعم قواها وقواعدها في الولاية
الايرانية المزعومة .

وانكم أيها السادة ، مستغربون هذا الثبات الصفيق من قبل الحكومات
الايرائية المتتالية على اغتصاب ارض عربية عريقة ؛ ولكنني استغرب اكثر
من ذلك صفاقة دولة عربية عريقة تدخل مع ايران وبريطانيا في حلف دُعي
ذات يوم كئيب بحلف بغداد..

والذين لا يعترضون بحسن الظن لا يشكّون في ان الأمر مُبيّت ومتواطؤ
عليه بين ايران وبريطانيا : تطلب بريطانيا في السر عون ايران على تثبيت
مرکزها المنزّل في البحرين ، فتطالب ايران في العلن بالسيادة على هذه
الجزر ، محرّكة امام نواظر السكان العرب شبح غول بشع جديد ..
وقد يكون هذا الظن صحيحاً بالجملة ، ولكن بعض الحكومات
الايرائية المناوئة لبريطانيا قد انجرفت ايضاً في هذا التيار ، ارضاء للرأي
العام في بلادها او تحرشاً صادقاً ببريطانيا .

ومهما يكن الامر ، فان قصة جزر البحرين تشبه الى حد بعيد قصة
جزيرة قبرص .. وفي البحرين كما في قبرص اندفاع قوية عارمة يسهد لها
البريطانيون ويتسلحون لوأدها بمعاول الكيد والتنكيل .
ففي عام ١٩٥٤ عبّر البحرانيون عن كراهيتهم للحماية البريطانية باضرابات
شاملة وتظاهرات عنيفة نادى بابعاد المستشار البريطاني المستر تشارلز بلغراف
الذي ظل يحث على صدر الجزر منذ ١٩٢٦ حتى ١٩٥٧ .
وفي عام ١٩٥٦ مرّ بالبحرين المستر سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا
فاستقبله الاهلون بالقذائف وهتافات السخط .

وعندما ائتمر اللؤم البريطاني والحسة الفرنسية والحقد الصهيوني لغزو
الاقليم المصري في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ كان الشعب البحراني في طليعة
الشعوب العربية التي تنادت لنصرة مصر ، وتجلّت هذه النصره بمداهمة
منشآت النفط والمؤسسات البريطانية المدنية والعسكرية ، وكان لزاماً على
بريطانيا ان تحمل الجنود بالطائرات لقمع هذا التفجر المباغت ، وُعطلت
الصحف واعتقل الزعماء الوطنيون وأبعد نفر منهم .

وفي مطلع ١٩٥٧ انبعثت الثورة القومية مرة اخرى وتلتها من جانب بريطانيا موجة فتك واضطهاد وتشريد .

وكانت بريطانيا تدأب في السنوات الغائمة الحالية على استدامة التنافر بين السنة والشيعية في الجزر ، وكانت توفّق في خلق المنازعة بينهم في كثير من الأحيان ، ولكن استفاقة الوجدان العربي في السنوات الاخيرة اوصدت في وجهها هذا الباب ، باب التفرقة الطائفية ، وضم البحرينيون جذواتهم الكامنة في لب مشترك يكتبون به المستعمرون وحدهم . .

وامير البحرين منذ ١٩٤٢ هو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة ، وهو يسهم بالجهد والمال لتكون البحرين لؤلؤة الخليج اقتصادياً وثقافياً وعمرانياً . والى جانب الامير مجلس ادارة يشترك فيه بعض افراد الاسرة الحاكمة الذين يتقلدون مناصب حكومية كالشرطة والعدل ، بالاضافة الى مدير التعليم ومدير الهيئة القضائية ، وبالاضافة كذلك الى مدير الجمارك البريطاني . ولكل من مديرتي الصحة والتعليم مجلس اداري خاص يُعين الامير نصف أعضائه ، ويُنتخب الباقي بالتصويت العام من قبل الرعايا الذكور .

وفي المدن الكبرى (المنامة ، المحرق ، الحد ، رفاع) مجالس بلدية نصف اعضائها معينون ونصفهم متخّرون بانتخاب عام يشترك فيه الجنسان . وهناك لجان اشراف لكل مديرية اختصاصية كالزراعة والمياه والاقواف الشرعية .

هذه المشاركة من قبل المواطنين في شؤون الادارة والحكم تعتبر ، على ضعفها ، منطلقاً محموداً على نهج الديموقراطية .

اما الهيمنة البريطانية فتمثّل بالمقيم العام لامارات الخليج المستقر في العاصمة (المنامة) وكذلك في المعتمد السياسي البريطاني الخاص بجزر البحرين ، وهي تتمثّل اكثر من ذلك بقاعدة المنامة البحرية والجوية . .

وغني عن القول ان شؤون الدفاع والتمثيل الخارجي ترتبط ببريطانيا وحدها . ولكن نفظ البحرين ليس ملكاً للبريطانيين . ذلك ان الشركة

الانجليزية الاولى تركت امتيازها لشركة اخرى كندية بجنسيتها ،
امريكية برأس مالها ، انجليزية بموظفيها . . وقد بدأ الاستغلال التجاري منذ
عام ١٩٣٤ . وعائدات النفط البحري لا تزيد في السنة عن مليونين وربع
من الجنيهات ومنذ عام ١٩٣٦ انشئت مصفاة كبيرة في احدى الجزر الصغيرة
وهي سترة .

وكان علينا ان نذكر منذ البداية بأن جزائر البحرين (البحرين او
أوال ، المحرق ، سترة ، أم نهمان ، النبي صالح) لا تمتد على اكثر من
٥٥١ كيلومتر مربع ، وهي على ضيق رقعتها تتفق عن موارد ثروة يُربها
حذق البحرينيين القديم المتاجرة والبياعات . وعدا ان فرضة المنامة - وقد
اصبحت مرفأً حرأً عام ١٩٥٨ - ترفد الدول والامارات المجاورة بما
تستصدره من بقاع الدنيا ، فان للبحرين نشاطاً فلاحياً حسناً يتركز على ٤٦٠٠
هكتار من ارضها المروية .

تصوروا ان في البحرين مثلاً نموذجياً مركزه (البُديع) وتصوروا
ايضاً ان امارة البحرين اقامت معرضاً زراعياً ناجحاً عام ١٩٥٧ .

د - الكويت :

لامارة الكويت الصغيرة اكثر من مشكلة .
ومشكلاتها الاولى من وجهة النظر العربية - بالاضافة الى الحماية
البريطانية - تدفق المهاجرين عليها من غير العرب ، ومن الايرانيين على
وجه التخصيص .

ان في الكويت اليوم لا اقل من ثلاثين الف ايراني وستة آلاف هندي
وخمسة آلاف باكستاني .

ولولا توافد ابناء العروبة من عراقيين ولبنانيين وسوريين واردينين
وفلسطينيين ومصريين ويمنيين وعمانيين وغيرهم من مواطني الخليج العربي ،

لولا هذا الغدق الحِيسر بالدم العربي لأصبح الأجانب كثرة غالبية في الكويت .
ومن يدري؟ لعل ايران كانت قد فمها الافيج مستجدية قضم هذا القطر كما
تستجدي ضم البحرين . . .

ولاحسبوا ان الخطر هين ، فهو يُربك تطور البلد ويؤرق أعين أمرائه ،
وهم لا يملكون ان يدفعوه او يحولوا دونه ، لانه من (الامور الخارجية)
التي تختص بريطانيا بتصرفها وحدها . . .

ولكن الامراء يملكون أن يعتمدوا على العناصر العربية الاصلية
ويعلوا من شأنها وتهيئوا لها أسباب اليقظة والتغلب والثراء ، وهو ما لا يسعهم
أن يسدروا عنه لمحة طرف لأن بقاءهم بالذات منوط بعروبة الامارة ، وهم
بالفعل لا يملكون في سبيل ذلك عطاء وجهداً وارجحية نفس منذ الحرب
العالمية الثانية وبعد توضح الخطر الايراني على وجه التخصيص .

يكفي ان اذكر لكم أن موازنة التعليم في الكويت تربو على موازنة
التعليم في الاقليم السوري ...

ومع التعليم يقدم الغذاء والكساء والعلاج . وتقيم الكويت سناء كل
عام موسماً ثقافياً حفيلاً تدعو اليه ناهي العروبة من مختلف بقاعهم ، دعماً
للتقافة العربية وبراً بالفكر العربي .

ولو أن ميثاق الجامعة العربية يميز الانتاء اليها لغير الدول المستقلة
لهُرع حكام الكويت الى التماس عضويتها منذ ميلادها . ومن عجب ، أيها
السادة ، أن يتعاون العرب المستقلون في جامعتهم على تنسيق سياساتهم
وصيانة استقلالهم وأمنهم . . ولا يتقبلوا في عدادهم مندوبين عن الدول
والامارات العربية المغلوبة للاجنبي ، وهي ألحف بالحاجة الى جملة العون
العربي لينقاد لها الفكاك من أسر الغاصبين ...

أنتقل بكم الآن الى ملابسات التكوين السياسي لامارة الكويت ، ذلك
التكوين الرقيق بالقياس الى أغوار التاريخ .

فلو رجعتم الى مصنّفات جغرافي العربي الأول ومؤرخهم لما وقعتم

على ذكره لهذا البلد الفتي . ذلك أن الكويت - وهي مشتقة عن الكوت أي الحصن - قد وُلدت على شاطئ الخليج في القرن الثامن عشر ، عند موقع من الارض يعرفه القدماء بامم « كاظمة » . يقول جغرافيتنا الحموي ياقوت « كاظمة جوت على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان . . »

وغالبية السكان تتعدّد من قبائل نجد ، ولكنهم يختلفون عن السعوديين باتباعهم المذهب المالكي . وأمراء الأسرة الحاكمة - آل الصباح - ينتمون أصلاً الى قبيلة عنزة التي ينتمي اليها أيضاً آل سعود في نجد وآل خليفة في البحرين . وقد تأسس البيت الحاكم عام ١٧٥٦ على يد الشيخ عبد الله الصباح ويرأس الامارة منذ ١٩٥٠ الشيخ عبد الله السالم الصباح ، وهو عاشر حاكم من الاسرة ، ويساعده وينوب عنه الشيخ عبد الله مبارك الصباح ورئيس الشرطة والامن . والقاعدة في ولاية العهد أن يلي الامارة اكبر الاسرة سناً ، على أن يقترن ذلك بموافقة المعتمد البريطاني .

وللكويت شبه دستور منذ عام ١٩٣٩ ، يخلق في الامارة مجلساً تشريعياً انتخابياً يكون أمراء البيت الحاكم أعضاء فيه .

والذي نسجته من تاريخ الكويت أنها خضعت للحكم العثماني وانعتقت منه بالتدرج ، ثم انضوت تحت الحماية البريطانية مثل سائر امارات الخليج . ففي النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت الراية العثمانية تحفّق فوق الميناء . ولم يجد الاتراك بدأ من الاعتراف باستقلال الامارة عام ١٨٨٠ ، ولكنهم حاولوا عام ١٨٩٧ أن يثدوا هذا الاستقلال مستعينين بأمرائ حائل من آل رشيد الذين هزموا السعوديين أمراء نجد وشرّدوا زعماءهم فالتجأوا الى الكويت .

أما البريطانيون فقد انشأوا أوّل مركز تجاري لهم في الامارة عام ١٧٩٣ ، وحاولوا عبثاً ضمّها الى ممتلكاتهم عام ١٨٠٥ . وفي عام ١٨٢١ استقرّ موظف سياسي بريطاني في جزيرة فيلكة قبالة خليج الكويت .

وصممت بريطانيا على احتياز الامارة الكويتية عندما سمحت تركيا للامان بمد خط
حديد برلين - بغداد الذي كان مقرراً له أن ينتهي في الكويت .
ولمّا استندت على شيخ الكويت ضغط الاتراك وحلفائهم رضي أن
يوقّع مع البريطانيين معاهدة عام ١٨٩٩ التي تعهد فيها لقاء حماية صاحب
الجلالة أن لا تكون له أية صلة مع دولة اجنبية غير بريطانيا ، وأن لا
يتصرّف بشبر واحد من ارض امارته لمنفعة دولة اخرى دون موافقة
الدولة الحامية .

وأول معتمد بريطاني للكويت جاءها عام ١٩٠٤ . وباتفاقات عامي
١٩١١ و ١٩١٣ رُبط التنقيب عن النفط في الامارة بمشئنة بريطانيا أيضاً ،
واعترفت تركيا عام ١٩١٣ باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية وضمن
نطاق السيادة العثمانية ...

وأعيد النظر في العلاقات الكويتية البريطانية مرة اخرى عام ١٩١٤
ووضع لها اتفاق شامل نصّ فيه على استقلال حكومة الكويت في اطار
بنود الحماية ..

ولكن البريطانيين يوجسون اليوم اكثر من اي وقت مضى ان تكون
الكويت اول امارات الخليج محرراً من طوقهم . ذلك لان الاندفاع
القومية هناك قد اكتملت واخذت تحت الوجود البريطاني في أشكاله المختلفة .
فالنوادي والصحف والمعاهد والمدارس تركّز نشاطها على توسيع القومية
العربية وتمهيم السيطرة الاجنبية . والطلاب والاساتذة والموظفون والتجار
والعمال ينطلقون متساندين في هذا المدّ الغامر . وقد كشفت حوادث
العدوان على بور سعيد عام ١٩٥٦ قوة التيار العربي في الامارة ، حين هاجم
الشعب آبار النفط التي تغذي بريطانيا بنصف مستهلكها من البترول .
غير ان للكويت موقفاً خاصاً من الدول العربية المجاورة لها .
فالعراق - عراق نوري السعيد - جهد أولاً ان يضم الامارة اليه ،

ثم حاول جذبها الى حلف بغداد ، واخيراً ساومها على الانضمام الى الاتحاد الهاشمي .

ولم تكن الكويت قبل استثمار الزيت تشتمل على اكثر من ٧٥ الف نسمة يعيشون من الاتجار والغوص على اللؤلؤ . ولسبب كان السكان العرب يميلون الى الاندماج في الكيان العراقي : اولاً ضعف الموارد الاقتصادية ، وثانياً التخوف من العناصر الايرانية .

وكان المثقفون كلهم من خريجي المدارس والمعاهد العراقية ؛ وكانوا يطالبون جهرةً بالانضمام الى شعب العراق ويناونون لون الحكم في الامارة سياسياً واجتماعياً .

ولمقاومة الانجراف نحو العراق جرت الامراء زمناً ما الاعتماد على المهاجرين الايرانيين ؛ وسرعان ما انابوا الى وحي العروبة الخالصة ؛ واعلن شيخ الكويت عام ١٩٣٨ تشكيل مجلس استشاري وتشريعي ، وهيمنت على هذا المجلس نزعة الانضمام الى العراق فعمد الشيخ الى حله ، ثم أعاد تأليفه ثانية عام ١٩٣٩ ، ومالبت ان تخلّص منه للسبب ذاته وشرّد بعض اعضائه وسجن الآخرين .

وكانت حركة المعارضة تتمركز في مدينة البصرة العراقية ، وتزعمها « جمعية عرب الخليج » ؛ وقد ذكرت لكم منذ هنية ان شيخ الكويت انتهى عام ١٩٣٩ الى اصدار شبه دستور ينص على تأسيس مجلس تشريعي من عشرين عضواً ، يختار نصفهم على الاقل بالانتخاب العام ؛ ولكن هذا الدستور لم يخط نحو التنفيذ الكامل . .

وظلت الامارة حتى الحرب العالمية الثانية منقسمة بين اشياح العراق واشياح الامراء ؛ الا ان تكاثر الثروات بعد تدفق النفط شغل الكويتيين عن عصبيّاتهم الحزبية ، وارتدّ انصار العواق عن مناصرته عندما تحولت حكوماته عن هدي القومية العربية وانسجمت مع سياسة المستعمرين . وامارة الكويت - كما تعرفون - صحراء عارية يعزّ فيها الماء والنبات .

وكانت السفن تحمل المياه في اوعية خشبية من شط العرب في جنوب العراق ، ويُباع في المنازل بأسقية من الجلد . وكان بود الامراء ان ينقلب قفريهم الى حديقة غلباء بفضل الفائض من مياه شط العرب . واقتروا بالفعل على العراق ان ينفقوا من اموالهم على مدّ قناة بطول مائتي كيلو متر ويؤدوا لقاء ذلك اجراً سنوياً لخزانة الدولة العراقية . ولكن نوري السعيد اشترط ان تنازل الكويت للعراق عن جزيرة (بويان) الحاوية التي تقع عند مصب الشط ، وان تمنحه ايضاً شطراً من شاطئها لاقامة مرفأ عراقي للنفط ، بالإضافة الى جزء آخر قرب الحدود العراقية تعتزم العراق ان تنشئ عليه مع بريطانيا مطارات وقواعد عسكرية ..

ورفض الكويتيون - طبعاً - هذه المطالب المسرفة في العسف . وكان الامراء قد اقاموا في مدينة الكويت مصنعاً لتقطير ماء البحر عام ١٩٥٢ ، واتبعوه بمصنع آخر عام ١٩٥٥ .

ترون ، ايها السادة ، ان حكومات العراق لم تبدّد سوء الظن الذي يسكن قلوب الاسرة الحاكمة في الكويت تجاه العراق في العهد الراحل ، ولم تعمل شيئاً لتقريب الشقة بين البلدين العربيين المتجاورين . ولذا كانت فرحة الكويتيين لا تقل عن فرحة العراقيين بثورة ١٤ تموز من هذا العام المجيد .

وابناء الجمهورية العربية المتحدة يستقبلون بالخفاوة والمودة شيوخ الكويت الذين لم يحوّ لهم عن الاخاء ضغط عبد الاله ونوري السعيد وكميل شمعون وعدنان مندريس .

اما العلاقات بين الكويتيين والسعوديين فلم تكن قارة دوماً على الالفة والصفاء ؛ فقد تعرّضت الكويت من جانب نجد لغارات دامية متعاقبة ، ولاسيما عام ١٩٢٨ ؛ وكان محور الخلاف طلب حكومة الرياض من آل الصباح ان يؤدوا لها جزءاً من مكوس الامارة لان ماستورده الكويت كان يصرّف معظمه في نجد . وظل الجفاء مستحكماً بين الطرفين زمناً طويلاً

ولم تزل زيارة شيخ الكويت احمد بن جابر للرياض عام ١٩٣٢ .
وفي الواقع ان اماره الكويت الصغيرة - ١٥٠٠٠ كيلو متر مربع -
هي موضع طمع العراقيين والنجديين على السواء . ولعل تعارض هذه
المطامع قد ساعد الامارة على البقاء . وثروة الكويت الضخمة بالنفط من
سأنها ان تحرك الشهوات العتيقة .

وكان آل سعود قد اعترفوا بوضع الكويت السياسي منذ عام ١٩١٥ ،
وتجدد هذا الاعتراف بمعاهدة جدة عام ١٩٢٧ . وعُيِّنت حدود الكويت
باتفاقية المقيمين في نهاية عام ١٩٢٢ ، وهذه الحدود تترك ما بين الكويت
والعراق رقعة حياض صغيرة ، كما تجعل بين المملكة السعودية والكويت
منطقة محايدة على امتداد ٥٧٠٠ كيلو متر مربع .
وأحب أن أجعل من النقط خاتمةً لحديثي عن الكويت ، لأن النفط
هو كل شيء في الامارة الآن .

ذلك أن الامارة قد أنتجت عام ١٩٥٧ زيادةً عن ٥٧ مليون طن .
ويدر النفط سنوياً - سواءً في حقول الكويت ذاتها - كالبرقان والمقوى
أم في المنطقة المحايدة التي تتناصف بترولها مع المملكة السعودية - أكثر
من ٣٠٠ مليون دولار .

ومعنى ذلك ان سكان الكويت - وعددهم هذا العام ٢٥٠,٠٠٠ -
يصيب واحد مائة دولار في الشهر لو وُزِع عليهم ربيع النفط بالتساوي .
ومعنى ذلك أيضاً ان شركة نفط الكويت البريطانية الاميركية
تكسب من بترول الكويت وحدها ٣٠٠ دولار في السنة ، لأنها منذ عام
١٩٥١ تقسم الارباح بالمناصفة مع الامير .

ولا بد ، أيها السادة ، لكل لوحة من ظل . . والظل هنا هو أن
معظم هذه الاموال المنصبة على الامارة كالسبل العباب تعود الى خزائن
بريطانيا وامريكا ثمناً للسيارات والبرادات ومختلف السلع ، ورجماً لشركات
الانشاء والمقاولات الخ .

وقسم ضخم من احتياطي الامارة بالنقد يتجمد في مصارف إنجلترا ،
فلا نفيد منه الكويت الا السيف المنصت ، يهددها باستلاب رصيدها كلما
اصطخبت فيها الموجة القومية منذرة الاسد البريطاني بالتفريق .
صحيح أن بعض السادة الكويتيين يستغلون ثرواتهم على شكل
عمارات باذخة مبثوثة في بلدان الوطن العربي ، ولكن مشاركتهم في
التوظيف الصناعي والتوسّع التجاري لا تكاد تذكر .
وقد اكتشف نفط الكويت عام ١٩٣٨ ، وبُدىء باستثماره عام
١٩٤٦ ، وهو يُنقل خاماً من ميناء الأحدي الحديثة حيث تقوم أيضاً
مصفاة للتكرير تسد الحاجة المحلية وتزوّد السفن العابرة بالوقود .
ومدّخر أرض الكويت بالنفط يُقدّر بخمسة وعشرين مليار برميل .
فهو اذن مديد العمر ، وحين ينتهي به الأجل تنتهي معه اسطورة اغرب
من الاساطير ، وتعود الكويت فلاة ميتة يجتويها اهلها .

١٠ - المملكة العربية السعودية .

بامتدادها الذي يساوي مصر وسورية والعراق معاً ، وبسكانها البالغين سبعة ملايين ، تكون المملكة السعودية قطعة رحيمة من الموطن العربي ومعتلاً حصيناً من معاقل العروبة .

ولشد ما بُهت المؤمنون العرب لموقف المملكة من سورية في حزيران ١٩٥٧ ، وتهديدها بقطع صلاتها الدبلوماسية معها واغلاق سفارتها فيها . وأعرف ، ايها السادة ، أن بعض كبار المسؤولين في اقليمتنا كانوا يعتبرون على الصحف تعريضها بالسياسة السعودية ، وكانوا في قرارة ضميرهم يعتبرون الحكم السعودي ركناً صلباً من اركان الأمل العربي .

وهدأت الحواطر عندما بعث الرئيس جمال عبد الناصر برسالة الى الملك سعود ، تلتها مقابلة الوزير عبد الحكيم عامر للملك في تموز .

وفي ٢٤ ايلول من العام ذاته وصل الملك سعود الى بيروت ثم زار دمشق واستقبل فيها رئيس وزراء العراق علي جودة الايوبي . وصرح الملك اثر ذلك ان سورية لا تشكل خطراً على احد وترغب رغبة صادقة في التعاون مع جاراتها .

وظنّ الناس ان الأزمة قد انفرجت وان قوس قزح يبشّر بغدق الود قد أشرق بعد هبوب العواصف الموج .

وفجأةً اعتكر الجو بأعصار جديد يذرو الفرقة ويملاً النفوس بالموجدة

وذلك ان السوريين كانوا في تشرين الاول من عام ١٩٥٧ يجابهون تعبئة تركية رهيبية تنذر باكتساح القطر السوري واغتصاب حريته ، وكانوا بسبيل عرض شكواهم على المنظمة العالمية حين ارتفع صوت من صوب نجد يعلن الوساطة السعودية بين الدولة الكبيرة المصممة على العدوان والدولة الصغيرة المصممة على رد العدوان . وفهم السوريون ان الوساطة معناها قطع الطريق على شكاتهم ، وكان لا مندوحة لهم من الرفض ، وما لبث الملك سعود ذاته ان سحب وساطته العجيبة .

وخفت الضجيج ؛ الا انه رسب في الصدور هسيماً موجعاً يخرج على الالسنه هممة تسترجع وتستغرب .

تم حدثت المأساة الكبرى بان اعراس الوحدة بين مصر وسورية . تلك التي زاح عنها الحجب الرئيس جمال عبد الناصر بدمشق في ٦ آذار ١٩٥٨ . وعقب ذلك في مطلع نيسان تليين في التوتو بفضل الامير فيصل ولي العهد ورئيس الوزراء .

هذه ، ايها السادة ، هي الخطوط الظاهرة الأزرمة بين قطرنا العربيين ؛ اما الاسرار الختبتة تحت كل ذلك فالولايات المتحدة الاميركية وشركات النفط ادري بها . . .

واود ان تسمحوالي الان بالاختفاء وراء الكاتب الفرنسي (برّه بي) والاكتفاء بدور الناقل الامين . وهذا المؤلف لا يجتشم في كتابه ان يوسع القومية العربية شتماً ونجراً ؛ فهو يستهدي بمصالح الغربيين وحدهم ؛ ولذا فلا يمكن أن يكون مظنة التعصب للعرب على الولايات المتحدة وغيرها من دول الاستعمار .

سأنقل اليكم اذن كل ما جاء في هذا الكتاب عن المملكة العربية السعودية منذ ان درجت ، وارتك لكم عبء الاستنتاج والتأويل .

يقول (برّه بي) :

لقد تمّ انضمام القسم الاكبر من شبه الجزيرة العربية تحت سلطة واحدة

منذ عام ١٩٢٧ ، بعد انطلاقة المغفور له عبد العزيز بن سعود . ودُعيت هذه المجموعة باسم « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » ؛ وفي عام ١٩٣٢ صدر قرار ملكي بتغيير الاسم الى « المملكة العربية السعودية » ، ولكن تنظيم المملكة لا يزال يعكس الى اليوم نشأتها المتباينة .

وحتى موته في ٩ تشرين الثاني من عام ١٩٥٣ ظل الملك عبد العزيز بن سعود بجسّد الدولة التي أوجدها ؛ وقد نُحشي عليها من التفكك بعد وفاته ؛ الا ان نجل الملك الكبير وولي عهده منذ ١٩٣٣ تمكن من ارتقاء العرش دون مشقة ؛ ورغم ذلك فان بعض الاضطرابات قد ظهرت مباشرة باستفاقة الشعب .

ان الملك الجديد ، سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، يواجه مشكلات لم يعرفها والده تزداد وتتعمّد يوماً عن يوم . ففي داخل المملكة يسير التطور الاجتماعي والاقتصادي سيراً متسارعاً . وفي الخارج تتخذ شؤون العالم الاسلامي والشرق الاوسط شكل مشكلات دولية لا يستطيع حاملي الاماكن المقدسة الا ان يتحسّس بها . والاثراء المصنوع لهذا البلد المتأبّي على النمو الاقتصادي الحقيقي ، بالاضافة الى رجوع سياسة القومية العربية والجامعة الاسلامية وأخيراً سياسة الحياد ، كل ذلك مجتمعاً يجعل المملكة العربية السعودية في الصف الاول من البلدان المتخلفة التي تشكل تمخّضاتها عاملاً مسيطراً على مجرى الصلات الدولية الحديثة .

والسؤال الذي يعرض لمن يراقب الاوضاع في الشرق الاوسط وللمتخصص بالعلاقات الدولية هو معرفة مدى إمكانات التجربة السعودية في الاستمرار والصمود . ذلك ان نظام الحكم في المملكة لم يتبدّل مع الرقي وتكاثر الثروة . ولقد نبتت براعم قوى اجتماعية جديدة لكنها لا تزال غائمة الشكل والتنظيم . وسوف ينبئنا تطور الامور في ربيع القرن المقبل عمّا اذا كانت المملكة السعودية قادرة على الاحتفاظ بدور الدولة الكبيرة في

جملة دول الشرق الاوسط العربية والاسلامية . هل يستطيع نظامها المتقادم ان يتلاءم ويتجاوب مع النزعات الجديدة ؟ أم على العكس يكون مصير الامبراطورية التي شيدها عبد العزيز بن سعود بمثابة مصير الامبراطورية الوهابية التي قامت في القرن التاسع عشر ؟ فينفرط عقدها وتعود بعض اجزائها الى فوضى الحياة القبلية ؟

تلك هي نقطة الاستفهام التي يوحها دوماً هذا البلد الممتد على اربعة امثال مساحة فرانس ، مع عددٍ من السكان يقل عنها عشر مرات . ولا بد لفهم التطور الذي راصف هذه « الحكومة الدينية البدوية » من معرفة نشأتها الاولى ، معرفة مقتضبة على الاقل .

ففي اواسط القرن الثامن عشر ظهر في قلب العربية تيار اصلاحي بعثه فساد الاخلاق والتنكب عن الفضيلة ، وقاده عالم حنبلي من قبيلة تميم النجدية وهو محمد بن عبد الوهاب ، الذي طفق منذ ١٧٤٥ يدعو الناس بحماسة الى الاخذ بالاسلام الصحيح كما كان في عهد النبي العربي .

وكانت الجزيرة العربية منذ القرن العاشر للميلاد قد ارتدت الى عهد الفوضى والمنازعات القبلية . ولم تجد دعوة محمد بن عبد الوهاب بادية الامر استجابة مشجعة ، بل لقيت على العكس مقاومة عنيفة من قبل كثرة امراء البدو ، الى ان وعاهها وأيدها شيخ متواضع الشأن هو امير واحة الدرعية قرب الرياض في نجد الوسطى ، محمد بن سعود مؤسس البيت المالك السعودي .

واستطاع ابنه عبد العزيز الاول ان يبيت الدعوة الجديدة في ارجاء الجزيرة العربية بعد سلسلة من الانتصارات الحربية ، وامتدت حركة الاصلاح الى سورية والعراق وآسيا الوسطى المسلمة ، وقد اعتمد عبد العزيز على العشائر البدوية المحاربة لنشر المذهب الوهابي حتى عمان جنوباً والاحساء شرقاً والحجاز من جهة الغرب .

واتمّ سعود فتوحات ابيه وجده فأضاف الى الامبراطورية السعودية
الوهابية مكة والمدينة . وأخاف هذا التوسّع السريع حكام الامبراطورية
العثمانية المتداعية فأوعز السلطان الى محمد علي والي مصر ان يقاوم الوهابيين .
وبعد بضع محاولات فاشلة دحر محمد علي جيوش سعود الذي استشهد في
المعركة . وفي عام ١٨١٥ أقرّ خليفته بالولاء للباب العالي ، ولكنه مالبت
ان رفع راية الثورة من جديد .

وعزم حاكم مصر على استئصال موجات التمرد التي ما انفكت تثيرها
القبائل البدوية ، فبعث الى الجزيرة العربية بجيوشه تحت قيادة ابنه
ابراهيم باشا . وفي هذه المرة سحق الوهابيون بمؤازرة القبائل المناوئة
لحكمهم ، فاستولى ابراهيم على الدرعية والرياض ونهبها ، وقبض على رب
الاسرة السعودية ، عبد الله بن سعود ، وأعدم . وبعد سنوات من ذلك
أرسلت حملة اخرى لقمع فتنة وهابية جديدة واستولت الحملة ايضاً على
اليمن ، وانتهت واحرقت كل مصادفته في طريقها ، ثم انسحبت
عام ١٨٤٠ .

وهكذا اختفت من الوجود الامبراطورية السعودية الاولى ؛ وخلص
الجنود الاتراك والمصريون جزيرة العرب مضرّة مخرّبة ، تمزّقت الحروب
بين القبائل المتعادية . وفي عام ١٨٨٥ استقامت الامور لألدّ خصوم
السعوديين ، آل الرشيد ، امراء شمرّ وحلفاء الترك . فدخل الرياض مظفرأ
محمد بن رشيد ، واضطر بعد سنوات من ذلك الشيخ عبد الله الفيصل آل
سعود ان يلتجئ الى حمى امير الكويت ، وهناك تنازل عن حقوقه كافة ،
عام ١٩٠٠ ، لتجلبه الصغير عبد العزيز الثاني .

وقام الامير عبد العزيز عام ١٩٠٢ بهجوم مباغت على الرياض تحفّ به
شردمة من اتباعه الحكّماء ، فاحتل عاصمة اجداده وتمكّن فيها ، ثم نظّم اموره
وبدأ يستعيد الملك السليب . وبعد غزوات حاسمة متعاقبة خضعت لسلطانه
ارض نجد ثم القصيم وشمرّ ، وبذلك سيطر على وسط الجزيرة العربية كله .

وفي عام ١٩١٢ أُلّف عبد العزيز بن سعود جماعة (الاخوان) الذين سيظهر صيتهم فيما بعد ؛ وهم من البدو الاوفياء المتعصبين للمذهب الوهابي ، وقد نُبتوا في مستوطنات زراعية تحدد بقلب نجد ، وسيكون لهم ارحب الباع في انتصارات ابن سعود المقبلة وفي توطيد امبراطوريته الناشئة .

واحتل ابن سعود بلاد الاحساء عام ١٩١٣ دون قتال ، وبذا غرس رايته على شاطئ الخليج العربي . وكانت بريطانيا قد زاحت جميع منافسها الاوربيين عن هذا الخليج ، واعتبرته جزءاً من « حدودها الطبيعية » ، ولذا عجلت بارسال مندوب سياسي عنها الى الرياض ، وهو الكابتن شكسبير ، وحددت مهمته في ان يحمل ابن سعود على متابعة حروبه مع اعدائه القدامى آل الرشيد في شمر . وكان البريطانيون يهدفون من وراء ذلك الى غرضين : تحويل انظار ابن سعود عن الخليج العربي والنيل من قوة الاتراك بضرب حلفائهم آل الرشيد ، في الوقت الذي كانت شرور الحرب العالمية الاولى يضيء وميضه . ولكن شكسبير يلقي حفته في اول معركة ، ويستمر ابن سعود وحده في مقاتلة خصومه التقليديين حتى يظفر بهم . وفي اثناء ذلك تقرّر (دوائر الاستخبارات البريطانية) و (المكتب العربي في القاهرة) تركيز الامل على الأمير حسين شريف مكة وخصم آل سعود ؛ وهي المهمة التي اضطلع بها الكولونيل لاورانس الذائع الصيت ، ذلك الذي ارتكب خطأ في الحساب لم يكن بمقدرة احد ان يتوقع نتائجه الجسيمة . فلولا كره لاورانس لعبد العزيز بن سعود وازدراعه له لتغير وجه التاريخ في الشرق الاوسط تغيراً كاملاً ، ولربما كان نفض المملكة السعودية اليوم بيد بريطانيا لا بيد امريكا . .

ولقد كتب لاورانس نفسه تفاصيل الدور الذي قام به الى جانب الشريف حسين ، واضفى المعجبون من ثم جواً اسطورياً على رجل الاساطير . ومن دواعي الاسف ان سياسة بريطانيا تجاه العرب قد تأثرت خلال اربعين سنة بآراء لاورانس . وهذا ما يعلل لنا عدداً من مزال بريطانيا ،

لأن الوقائع قد خالفت مفاهيم لاورانس بصورة مستمرة . ولا أدلّ على ذلك من حكمه القاصر على عبد العزيز بن سعود وترجيح الشريف حسين عليه .

على أن البريطانيين قد بذلوا المال للخصمين في وقت واحد : شريف مكة وأمير الرياض . وبينما كان لاورانس يدعم الشريف الهاشمي ويدغدغ آماله بملك العرب ، كان موظف سياسي بريطاني يصل من الكويت عام ١٩١٧ ويستقر في نجد ، وهو جون فيليبي المشهور الذي اعتنق الاسلام وتسمى بعبد الله ، وسيؤدي خلال ثمان وثلاثين سنة مهمة من اروع المهمات ..

وكان عبد العزيز بن سعود قد وقّع في ٢٦ كانون الاول عام ١٩١٥ معاهدة مع بريطانيا بمائة لمعاهداتها مع أمراء الكويت والبحرين . وهذه الواقعة يجهلها الناس ويتجاهلها أكثر المؤرخين . وبمكّم هذه المعاهدة تدفع بريطانيا شهرياً خمسة آلاف جنيه ذهبي لسلطان نجد لقاء اعترافه لها بحق الاشراف على علاقاته الخارجية والتزامه بأن لا يتنازل عن جزء من ارضه لدولة اجنبية أو يرتبط بأية صلة معها دون موافقة مسبقة من حكومة صاحب الجلالة . وتتعهد بريطانيا من جانبها ان تحمي ابن سعود من كل اعتداء خارجي . وهكذا فان سلطان نجد قد قبض من الحكومة البريطانية نحواً من نصف مليون جنيه ذهبي بين ١٩١٧ و ١٩٢٤ .

ولا يسع المرء الا ان يدهش في بعض الاحيان من رياء السياسة البريطانية وازدواجها ؛ فقد كانت بريطانيا تستخدم الخصمين : الحسين وعبد العزيز كي تبقى سيّدة الموقف وتضمن مصالحها حين يفوز احدهما على الآخر ...

بيد انها لم تكن تساوي الرجلين في السخاء ؛ لأن ثمن حسين كان يعادل في نظرها اربعة اضعاف ثمن الأمير البدوي ، فتدفع لأول عشرين الف جنيه في الشهر ولثاني خمسة آلاف فقط . وكان هنالك تنافس بين

لاورانس وفيلبي ، سيصل فيما بعد الى حد التعارض العنيف ؛ وكل منهم يدعم صاحبه وهو مدعوم في الوقت ذاته من قبل فريق من المسؤولين البريطانيين .

وعندما قاربت الحرب العالمية الاولى نهايتها امر الشريف حسين ابنه عبد الله - امير الاردن المقبل ثم ملكه فيما بعد - ان يستعيد واحة خزيمة من الوهابيين . الا ان رجال عبد العزيز بن سعود داهموا ليلاً جيوش الامير عبد الله وافنوها ، واستطاع عبد الله ان ينجو بنفسه مع قبضة من اتباعه . وهكذا انفتح باب الحرب بين الهاشميين والسعوديين ، تلك الحرب التي سيكون لها اعظم النتائج في تاريخ الشرق الادنى خلال الاربعةين سنة المقبلة .

وقد آثار حرق الشريف حسين اندحار ابنه وهزيمة جيوشه ، فحاول حينئذ ان يحرص اماراة العسير على مقارعة الوهابيين . وفي هذه المرة ايضاً كان الفوز الى جانب آل سعود ، فان الامير فيصل ، النجل الثاني لعبد العزيز ، جرد الى العسير حملة صاعقة عام ١٩١٩ اضافت هذه الامارة الى ملك الوهابيين . وقبل ذلك بزمن قصير كان الامير فيصل قد زار لندن وله من العمر اربعة عشر ربيعاً ، وبدأ الخطوات الاولى في الديبلوماسية الدولية تحت رعاية المستر فيلبي . وفي عام ١٩٥٨ نجح الامير ذاته على رأس الشؤون الخارجية للمملكة .

وفي عام ١٩٢٠ يستولي ابن سعود نهائياً على منطقة شمر في شمال شبه الجزيرة ويقضي قضاء مبرماً على حكم آل الرشيد ، الا انه يحسن معاملة الامراء المخدولين فيتزوج ويزوج ابناؤه من اخواتهم وبناتهم . وبذالم يبق لامير نجد سوى خصم واحد ذي شأن وهو الهاشمي حسين ، ولم يعد ينقص المملكة السعودية غير الحجاز لتستكمل حوزتها الراهنة الآن . وسيجد الوهابيون ذريعة للتوسع نحو البحر الاحمر في مطامع الحسين نفسه وهوسه بالمجد . وذلك ان انهيار الامبراطورية

العثمانية وخلع السلطان قد تركا فارغاً مقام خليفة المسلمين المرموق ، وفي الخامس من آذار ١٩٢٤ بوأ الشريف حسين نفسه هذا المقام في حفل رسمي ، رغم نصح الخلّص من مستشاريه . واثار ذلك حفيظة الوهابيين ، ولكن « الاخوان » صمّموا مع ذلك على اداء فريضة الحج ، وحاول ابن سعود ان يثنهم عن عزمهم حتى لا يعتبر سماحه لهم اعترافاً بالخلافة الهاشمية . ولما لمس رغبتهم الملحة في حج البيت الحرام جمع شيوخهم وحشّتهم على فتح المدن الحجازية المقدسة ونشر العقيدة الوهابية بين اهليها .

واندفع الحجاج المحاربون نحو الطائف في آب ١٩٢٤ حيث يقع مصيف الملك ، ففرّ الحسين الى مكة وبادر الى التنازل عن الملك لابنه علي . وبعد ايام من ذلك جلت القوات الهاشمية عن مكة ودخلتها دون حرب جيوش ابن سعود . وقبل ان يمارس « الاخوان » شعائر الحج هدموا القبور وازالوا معالم الزينة المنافية للدين الحنيف . وفي اثناء ذلك تجمّع الامراء الهاشميون في جدة ثم بارحوا ارض الحجاز التي حكمتها اسرتهم طوال عدة قرون واعتكف الحسين في قبرص تحت حماية البريطانيين الذين أسسوا اولاده بملكة العراق وامارة الاردن بعد ان قضى القائد الفرنسي غورو على ملك فيصل بدمشق .

وفي فجر عام ١٩٢٥ ، وبعد ثلاث وعشرين سنة من استيلائه الجريء على الرياض ، أضحى الامير عبد العزيز بن سعود عاهلاً لدولة تمتدّ من الخليج العربي حتى البحر الاحمر ، ومن رمال النفود الكبرى الى رمال الربع الخالي . وفيما عدا جبال اليمن و« عمان والشاطيء الممتد بين باب المندب وقطر فان المهم من شبه الجزيرة العربية غدا تحت اشراف العاهل البدوي . ولكن سلطانه لم يكن قد توطّد بعد ، ولذا فانه تخلّص وقتئذ عن خطط فتح جديد ، وعكف على تنظيم شؤون دولته الناشئة من الناحية الادارية واعادة الامن اليها ولحم وحدتها فكان ذلك آخر مرحلة من مراحل تأسيس المملكة السعودية .

ودخل « سلطان نجد وملحقاتها » الى جدة في ٢٥ كانون الاول ١٩٢٥
بعد ما ولي الهاشميون الأدبار . وبادر هناك الى بذل الضمانات المطمئنة لممثلي
الدول العظمى والى التأكد من حسن نواياهم نحوه . وبعد ايام من ذلك
نزل بمكة حيث التأم جمع من الاعيان ورجال الدين في ٨ كانون الثاني
١٩٢٦ وبابعوه ملكاً على الحجاز ؛ فاتخذ منذ ذلك التاريخ « ملك الحجاز
وسلطان نجد وملحقاتها » . وكان الملك الجديد يشعر بتقدم الحجاز في
مختلف المرافق بالقياس الى نجد وسائر الولايات ، ولذلك اصدر في ٣١ آب
١٩٢٦ دستوراً او قانوناً أساسياً لمملكة الحجاز وحدها ، عدلت فيما بعد
بعض مواده ولم تنفذ مواد اخرى حتى اليوم . وأهم ما فيه المادة الخامسة
التي تنص ان حكم الحجاز يوسد الى صاحب الجلالة عبد العزيز الاول بن عبد
الرحمن الفيصل آل السعود ، ويتقيّد جلالاته بنصوص الشريعة الاسلامية .
ولم يوضع حتى الآن دستور شامل للملكة السعودية ؛ وصدرت في
آذار ١٩٥٤ قرارات بتنظيم مجلس الوزراء والدوائر التابعة له .

واعترفت الدول الكبرى بعبد العزيز بن سعود ملكاً على بلاد الحجاز
عقب فتحه لها . وفي ٢٩ كانون الثاني عام ١٩٢٧ صدر قرار ملكي يجعل
من نجد وملحقاتها مملكة منضمة الى مملكة الحجاز ؛ وقررت بريطانيا بالوضع
الجديد بمعاهدة جدة الموقعة في ٢٠ أيار ١٩٢٧ ، وتنص مادتها الاولى على
الاستقلال التام المطلق لملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، وتذكر المادة السادسة
ان الملك عبد العزيز يعترف بوضع بريطانيا الخاص في الكويت والبحرين
وقطر والساحل المعاهد .

وتلا ذلك عدد من الاتفاقات المتمة لتعيين الحدود مع العراق والاردن
والكويت الواقعة كلها حينذاك تحت السيطرة البريطانية .

ولمعاهدة جدة شأن هام جداً ، إذ يمكن اعتبارها كشهادة ميلاد رسمية
للملكة السعودية في الأسرة الدولية ؛ فهي تلغي معاهدة ١٩١٥ المزريبة
- التي تساوي ابن سعود بصغار امراء الخليج العربي - وترفع عنه صفة

التبعية المباشرة لبريطانيا العظمى .

بيد ان هذا الاتفاق لم يحظ بقبول « الاخوان » الذين عزّ عليهم العدول عن الاستيلاء على أرض العراق الخضراء ، بنتيجة التعاقد مع الكفّار .. وتمرد عدد من كبار زعمائهم ، وتعرّض العرش المستجدّ لهزة عنيفة . وبين ١٩٢٧ و ١٩٢٩ أضطر المليك البدوي على مضض ان يقاتل صحابته المقرّبين ، فأنقذ بحزمه وصلابته ثمرة جهد دام ربع قرن وأرسى حكماً لا ينازعه فيه بعد اليوم أحد .

وفي أواخر عام ١٩٢٩ رفعت فرانسفا فصليتها بمجدة الى درجة مفوضية ، واحتذت بها سائر الدول الكبرى .

وبعد ثلاث سنوات ، في ١٨ ايلول ١٩٣٢ ، صدر قرار ملكي تنصّ مادته الاولى على تغيير اسم « مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها » باسم « المملكة العربية السعودية » ؛ وتعد المادة السادسة بمنح دستور عام ، ذلك الدستور الذي لم يشهد النور ..

وفي الواقع لا تزال أداة الحكم في المملكة السعودية مجتمعة كلها في قبضة الملك . ولا معنى هنا لما تعوّدّه الغربيون من الفصل بين السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية وهذا الشكل من الحكم الشخصي المطلق المستند الى أساس ديني لانجد مثيلاً له الا في المملكة اليمنية . والذين ساورهم الأمل في ان يكون الملك سعود اقل من أبيه العظيم تشبثاً بالسلطان المطلق قد أصيبوا بخيبة مريرة ، فهو يدير البلاد في عام ١٩٥٨ كما كانت تدار قبل ثلاثين سنة ويتصرّف تصرف المالك بخيراتهما وبأهلها .

وسعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود وُلد عام ١٩٠٢ وسُمي ولياً للعهد عام ١٩٣٣ ، وتولّى عرش أبيه في ٩ تشرين الثاني ١٩٥٣ . وحلال العشرين عاماً التي قضاها مساعداً لأبيه ترسّ بشؤون الحكم وتألّف اخوته على الاذعان لسلطانه . وحين ساءت صحة الملك الراحل وكلّت قواه فاب عنه نجده الأكبر سعود في أكثر الامور . وقبل وفاة عبد العزيز

بأسبوعين تألف مجلس للوزراء برئاسة سعود الذي كان ايضاً قائداً للقوى العسكرية ، وأسندت للأمير فيصل وزارة الخارجية مع نيابة الرئاسة لمجلس الوزراء . على أن وزارات عديدة خلقت في عهد عبد العزيز دون نصوص تشريعية ، ليس لاصحابها من النفوذ أكثر من الكبار الموظفين ، ولا تجاوز مهمتهم تنفيذ أوامر الملك وتقديم بعض المقترحات . ولم يكن للدولة أداة مركزية لتخطيط سياستها وتنسيق مصالحها ، فيما عدا شخص الملك . وقد أنشئ مجلس للوزراء قبيل موت الملك عبد العزيز كما ذكرنا .

وبعد تسلمه الحكم بشهور قليلة خلق سعود وزارات جديدة ، كوزارة التعليم ووزارة الزراعة في ٢٤ كانون الاول ١٩٥٣ ، ووزارة التجارة في ١٧ آذار ١٩٥٤ ، وأعيد تنظيم الوزارات القديمة كالمالية والاقتصاد . وأصبح الأمير فيصل ولياً للعهد والشخص الثاني في المملكة . ووسعت الجمعية الاستشارية للحجاز بحيث تضم ممثلين عن جميع الولايات . وعلى ذلك ظل الملك المنبع الوحيد لجميع السلطات .

وأول جلسة رسمية لمجلس الوزراء افتتحت في ٨ آذار ١٩٥٤ . وفي ٢٦ من هذا الشهر نشرت جريدة أم القرى قرارين ملكيين ينظمان مجلس الوزراء والدوائر الملحقة به . وفي ١٧ آب من السنة ذاتها صدر قرار آخر يسند الى ولي العهد ونائب الملك في الحجاز ووزير الخارجية منصب رئيس مجلس الوزراء . ويمكن اعتبار مجمل هذه القرارات بمثابة دستور للدولة .

ويتألف مجلس الوزراء من الوزراء ومن المستشارين الملكيين ويعينون كلهم من قبل الملك . والمفروض نظرياً ان هذا المجلس يتولى تصريف الشؤون الداخلية والخارجية للمملكة ، فهو يُقرّ الموازنة ويصادق على المعاهدات والاتفاقات الدولية ، ويبرم عقود الاحتكارات والامتيازات التي يجاوز مداها ثلاثين مليون ريال سعودي . وهو مكلف ايضاً بالموافقة على تأسيس الشركات المغفلة والسماح بالعمل للشركات الاجنبية ، والفصل في الخلافات التي تكون الدولة طرفاً فيها حين يتجاوز موضوع الخلاف خمسين

مليون ريال ، وتعيين كبار الموظفين وتنحيهم ، وخلق وظائف جديدة غير ملحوظة في الموازنة الخ .

ويجب ان تتخذ قرارات مجلس الوزراء بالأكثرية وبحضور ثلثي الاعضاء ، ولا تصبح نافذة المفعول الا بعد تصديق الملك .

ويلحق بمجلس الوزراء ديوان عام يضم أمانة السر العامة وديوان المحاسبة والمكتب الفني للخبراء وديوان المظالم .

فأمين السر العام يهييء جدول أعمال مجلس الوزراء ويوقع محاضر جلساته ويبلغ مقرراته . ومهمة ديوان المحاسبة تدقيق حسابات الدولة في الموارد وفي النفقات ، ويرأسه مراقب عام معين من قبل الملك ومسؤول أمامه ، ويقدم كل عام تقريراً عن تنفيذ الموازنة ، ويقترح ما يراه ضرورياً في شؤون الادارة المالية . وبعد تأسيس هذا الديوان بستة أشهر قام بتحقيق واسع كشف اثره وزير المالية العجيب فعزله الملك .

والخبراء الفنيون مرتبطون بمجلس الوزراء ومسؤولون أمامه ، وهم يبدون رأيهم في جميع القضايا التي يعرضها عليهم رئيس مجلس الوزراء او الوزراء المختصون . وقد بدا ضرورياً تعيين مثل هؤلاء الاختصاصيين لان كبار المسؤولين في المملكة تعوزهم الخبرة اللازمة . اما ديوان المظالم فهو اشبه بمحكمة ادارية ، ويديره رئيس معين من قبل الملك ومسؤول أمامه ، وهو يتلقى ويسجل جميع الشكاوى ويحقق فيها ويرفع الى الملك تقريراً عنها وفقاً باقتراح التدابير المناسبة ، ولرئيس هذا الديوان واعضائه الحق في استدعاء الموظفين المعنيين بالشكاوى بعد اعلام وزيرهم المباشر . غير ان هذه الدوائر لاسلطان لها على كبار المسؤولين في الدولة وخاصة امراء البيت المالك . .

والمناصب الوزارية هي الآتية : الزراعة ، التجارة ، المواصلات ، الدفاع ، التربية ، المالية والاقتصاد الوطني ، الداخلية ، الصحة . والى جانب الوزراء ذوي الحقايب المعينة يضم مجلس الوزراء عدداً غير محدود من

وزراء الدولة (٧ عام ١٩٥٧) ، ومن بينهم الشيخ يوسف ياسين نائب وزير الخارجية . ويضطلع امراء من الاسرة المالكة بوزارات الداخلية والمواصلات والتربية والدفاع . ويحتكر الامير فيصل وزارة الخارجية منذ تأسيسها ، وقد اصبح ولياً للعهد ورئيساً للوزارة عام ١٩٥٤ وأُسند اليه فيما يعد منصب نائب الملك في الحجاز . ويبدو ان سعود قد حرص على اغراق اخيه بمراتب الشرف ارضاءً لطموحه وخشيةً من منافسته على العرش .
وهنالك وزارات ومصالح اخرى الى جانب الوزارات الكبرى ، مثل (الانباء والارشاد القومي) التي شكلت عام ١٩٥٥ على غرار مصر .

ويجب ان نقول بأن اخوة الملك وافراد امرته الكبيرة ليس لهم في واقع الامر سوى قيمة نسبية رغم تربُّعهم في المراكز الرفيعة ، ويصح هذا القول ايضاً على اعلام كعباً الامير فيصل . ويرجعهم في المكانة بعض (الفنين) الذين حازوا ثقة المليك .. ومنذ ان تولّى سعود حتى اليوم لانجد وثيقة حكومية واحدة غير مذيلة بالخاتم الملكي ، حتى تلك التي صدرت عن وزارة الخارجية الموكولة نظرياً الى الامير فيصل .

وظن المستر فيليبي ، صديق الملك الراحل ومستشاره القديم ، أن بوسعه انتقاد الاداة الحكومية في المملكة والاشارة الى معائبها الجسيمة عندما ارتقى سعود العرش . ولكن شكل الحكم في الدولة السعودية لا يفسح ابي مجال للنقد ، ولذا طرد فيليبي في ١٧ نيسان ١٩٥٥ من البلد الذي استوطنه ٣٨ عاماً^(١) .

وانتقادات فيليبي تجعلنا نتفهم نوع الصعوبات التي تعانها الدولة السعودية في امور الحكم وذلك ان نظم المملكة كانت على نسق القرون الوسطى عندما غشيتها ثروة النفط كما تعشى الآفة المبالغتة . وقد ظن ان تبدل المليك عام ١٩٥٣ كفيل بتجديد الاوضاع التي لم تسمح لعبد العزيز شيخوخته

(١) نحن ادنى الى الظن بأن طرد فيليبي كان نتيجة لتبدل السياسة السعودية من موالة بريطانيا الى موالة الولايات المتحدة الامريكية .

ان يتناولها بالتغيير . وكان جهاز الدولة قد بلغ من الفساد درجة لا تحفى على احد . يقول فيليبي :

« يبدأ الملك الجديد عهده وهو مسلح بميزة لم تكن لابييه ، وهي معرفته التامة بالنقائص التي تكاثرت في آلة الادارة بسبب نقص الكفاءات وتدني مستوى المسؤولية والغيرة في سلم الموظفين المختارين بين نفايات المثقفين في البلاد العربية .. ولا ابلغ في الدلالة على ذلك من اغتناء كثرة موظفي الحكومة غنى فاحشاً في حقبة قصيرة ، وكانوا عند استخدامهم يعانون العدم . ونجد ان بعض التجار في البلاد قد سمح لهم ان يساهموا في ادارة الدولة بصفة موظفين ، كما نجد ان كثيراً من موظفي المصالح العامة لا يشعرون بالغضاضة في المتاجرة لانماء ثرواتهم الخاصة . فهل يرتجى من هذا النظام عمل ناجح شريف؟! ان كل عقد او شراء لحساب الدولة يفحص فحصاً دقيقاً ، لا على ضوء القيمة الحقيقية للشيء المعروض ، بل على ضوء المنافع الشخصية للموظفين الذين يستوفون اتاوة مغرية من التجار السعداء . »

ويستمر فيليبي في نقده كاشفاً الغطاء عن مر استقرار الفساد بصفة دائمة في جميع مناحي الادارة فيقول :

« في الواقع ، لانصادف الاقلية من الموظفين ليس لهم نفع خاص على شكل رشوة او جمالة او شيء آخر في احدى الشركات من مختلف الجنسيات التي تتصارع اليوم من اجل الفوز بعقود الدولة وصفقاتها .. » وهو يفضح ايضاً فشو تعيين الاقارب والانصار فيقول :

« .. ونقيصة اخرى من نقائص النظام الراهن تتجهم عن الميل الطبيعي لدى كبار الموظفين الى اختيار جهاز الدوائر المنوطة بهم بين افراد أسرهم او اصدقائهم ، وهم بذلك يخلقون نوعاً من « الجماعة الماسونية » التي تدين بالولاء لرئيسها اكثر مما تدين للمليك والدولة .. ومن قبيل ذلك ايضاً الاتجاه الذي تبلور منذ او اخر عهد الملك السابق

الى تسمية امراء البيت المالِك رؤساء لمرکز ادارية ليس لهم اية جدارة لها ،
فتزيد اخطاؤهم في تنقِص العهد ورجاله .

واخيراً يحذر فيلبي من التبذير واختلاس الأموال العامة فيذكر أنه
« في خلال السنوات العشر الاخيرة لم تُنشر الموازنة على الرأي العام سوى
مراتٍ ثلاث ، ولم يوقن جمهور الناس في أي مرة ان المبالغ المرصدة قد
انفقت لمصلحته .. »

ورغم ان الملك سعود قد اظهر نَحْسَه بهذه التذُر عندما اجرى
اصلاحات عام ١٩٥٤ ، فانه في الحقيقة لم يبدل شيئاً أساسياً . وتظل المملكة
السعودية مفتقرة الى رجال من النوع الممتاز ، لا يمتلكهم هي ولا تستطيع
الدول العربية الاخرى ان تقدّمهم لها . وتجاه هذا الواقع الأليم آثر الملك
سعود ان يعتمد على القوى المحافظة والارتجاعية وان يسحق المعارضة .
وذلك نهج سيبتديّ خطله مع الزمن .

وقد سبق لنا القول بأن التنظيم الاداري الداخلي للمملكة السعودية
يعكس اصولها التاريخية المختلفة ، فولاياتها تتمتع بدرجات متفاوتة من
الاستقلال الذاتي واللامركزية الادارية ، شأنها في ذلك شأن جميع
الامبراطوريات التي ترابطت اجزاؤها عن طريق الفتح . يقول المهندس
الامريكي توينشل مكتشف الثروات المعدنية في البلاد السعودية : ان
تقسيم المملكة سياسياً الى أربعة اقسام رئيسية يقابل الممالك التي كانت مستقلة
في السابق وهي الحجاز ونجد والأحساء والعسير .

وفي الحجاز وحده منصب لِنائب الملك يختص به الامير فيصل ، الذي
يحكم الولاية مباشرة من عاصمتها مكة . وفي الحجاز ايضاً (مجلس شورى)
منذ دستور ١٩٢٦ ، ويضم نائب الملك ومستشاريه وستة من الاعيان ،
وقد وسّع فيما بعد . ولكل من المدن الكبرى — وخاصة جدة والمدينة —
مجالس استشارية خاصة . اما الاقاليم الريفية فيديرها مجالس ادارية يشترك
فيها اعيان المنطقة . ومجموع الاقاليم ١٩ ، ومن بينها المدن الخمس الهامة :

جدة والمدينة ومكة والطائف ويُنبع . وفي المدن ايضاً مجالس بلدية ،
ولكل قرية او قبيلة مجلس من الزعيم والاعيان .

أما نجد وملحقاتها فيحكمها الملك المقيم في الرياض ومع ذلك فان فيها
بعضاً من اللامر كزية الرأسية والأفقية ، فالادارة في نجد والقصيم وجبل
شمر ذات الطابع البدوي تختلف عنها في الأحساء ذات الصناعة النفطية ،
وفي العسير بلد المزارعين الجبليين .

فالأحساء تتمتع باستقلال اداري واسع في ظل حاكمها المعين من الملك
والمسؤول امامه . وحالة العسير النائية تشبها الى حد بعيد .

وهكذا فان الوحدات المستقلة هي الحجاز الذي يحكمه نائب الملك ،
والأحساء والعسير حيث أنيطت الادارة بالحكام ، ونجد التي يعود حكمها
الى الملك ذاته . وتربط سلطة الملك ما بين هذه الوحدات بالاضافة الى
الشؤون المشتركة وهي المالية والدفاع والخارجية . ولكل ولاية أقسام
ادارية صغيرة كإيالات القصيم وجبل شمر ونجران الخ ...

ويبد الحكام سلطان واسع قد يبلغ الى الحكم بالموت ، لانهم يمثلون
الهيئة القضائية العليا في منطقتهم . وبصورة عامة لا يحد سلطانهم سوى العلماء
الذين لهم ان يبدو رأيهم في كل ماله صلة بأسس الشريعة .

ولعل أصعب مشكلة داخلية في المملكة هي مشكلة سكان الفيافي
المترحلين أو أنصاف المترحلين . هؤلاء البداءة الغطاريف تُطلب اليهم ان
يبدؤوا نمط معيشتهم في سنوات معدودات ، فقد أيقن ابن سعود ان ليس
بوسعه ترسيخ امبراطورية وسيدة نصف رعاياها عشائر مستقلة لا يطولها
الاشراف المركزي المباشر ، ولذا صرف الملك البدوي جهداً ضخماً في
في تثبيت البدو . . وقد نجح في تحضير ثلثهم على الاقل بفضل حركة
(الاخوان) الدينية . وهذه الوسيلة أمكنه تضييق شقة المشكلة ولكنه لم
يحلها تماماً . ففي الأحساء لم يكن عسيراً القضاء على (الحضارة الصحراوية)
بسبب صناعة النفط وتبدل المحيط الجغرافي والاجتماعي . غير ان البدو في

قلب الجزيرة بقيت لهم صحراوات متراوية للنجعة الدائمة فحافظوا على نسق حياتهم المألوف .

وقد عهد بإدارة العشائر الى مصلحة الشؤون البدوية ، واتسبع الملك في ضمان سلطانه على رعاياه من البدو الأجلاف طريقة الخول او الزبائن ، تلك الطريقة التي عمل بها البريطانيون في صلاتهم مع أمراء شبه الجزيرة العربية ، والتي تقوم على شراء شيوخ القبائل بالاعطيات والرواتب بصورة متناسبة مع شرف القبيلة وعدد ما تستطيع تجهيزه من إبل وبنادق .

ولكن القاعدة الاساسية التي يعتمد عليها نظام الاشراف على العشائر القوية هي (المصاهرة السياسية) ، فالملك ابن سعود قد تزوج ثم زوج ابنائه بأميرات ينتمين الى أعظم القبائل شأناً وأشدّها بأساً ، حتى ليتمكن القول بأن الاسرة المالكة تكوّن الآن شبكة متراصة من المصاهرات المعقودة بين آل سعود والامر البدوية الكبرى ، ومن بينها أعداء الأمس كآل الرشيد في شمّر .

وبين البدو الذين تستند اليهم عمدة المملكة يحتلّ « الاخوان » مكان الصدارة . وهذه الجماعة الدينية المحاربة قد أنشئت عام ١٩١٢ ، وكان قوامها طوائف من العشائر المختلفة التي يربطها ايمان مشترك بالعقيدة الوهابية ، وقد ثبتت على الارض حتى جاوز عدد المستوطنات (المجر) التي تقطن بها الان المائة . ويتعاطى هؤلاء « الاخوان » الفلاحة وتربية الاغنام ، وقد منحو اأجود الاراضي في نجد ، وقدم لهم عون مالي ليهجروا حياة التنقل ، ومراكزهم الكبرى تكتنف مهد الاسرة المالكة في نجد وقلب الاحساء . وكنا تكلمنا عن دورهم في نشأة الدولة السعودية ، الا أن تعصّبهم الشديد قد خلق المتاعب للمليك فأضعف من نفوذهم . ومنذ عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ نشاهد اتجاهاً معاكساً يرمي الى اعادة بعض السطوة اليهم على اثر حوادث التمرد والاضراب في الاحساء وتوزيع النشرات المعادية للعهد في الحجاز ،

فقد استعادت كتاب الاخوان حق اقامة الحد فوراً على كل من يخالف الدين .

وانبعاث « الاخوان » هو أمر خطير ، لأن هؤلاء المعاير من الجند الوهابيين يقاومون بعناد اقتباس وسائل الغرب الفنية ، فكل تجديد هو في نظرهم مفسدة للاخلاق ، ولذا يجد الملك نفسه مكرهاً على الموازنة بين هؤلاء المتخلفين الأوفياء من رعاياه وبين المناصرين للتقدم والمستعدين في الوقت ذاته للتخلص من الحكم الملكي المطلق .

وقد ذكر أحد المطلعين في مقال نشره عام ١٩٥٧ بعنوان (الاخوان ضد الجيش) أن الملك السعودي يتحرّس من تقوية جيشه النظامي ويفضل أن يخصص برعايته وأمواله المتطوعة من « الاخوان » ، لان هؤلاء لا يزالون « عدة العهد وأداة استقراره بسبب تعصّبهم الديني وولائهم للبيت المالك ، ويستطيعون في بضعة ساعات أن يجهزوا مائة الف بندقية ، ولربما ضعف ذلك .

الا أن قوة « الاخوان » قد تصبح خطراً على الحكومة والعهد وأفراد الاسرة المالكة ، نتيجة لانحلال الاخلاق والانغماس في الفسق الذين تفشّوا في المملكة ، فأبن الاسلام الصحيح الذي دعا اليه محمد بن عبد الوهاب من سلوك اخوة الملك وانكبابهم وصحبهم على موائد الحمر ؟!

ان الاثراء والرقى المادي الذي نجم عنه يكران بالحكومة الدينية . ولقد ذكر الجنرال بريموند منذ عشرين سنة أن كيان الدولة السعودية يقوم على وزن الشخص الحاكم لا على النظم والتقاليد الوطيدة . وفي الواقع أن النظم والتقاليد هنا ذات اتجاه مناقض للوحدة . وقد لحق عبد العزيز بن سعود بربه منذ اكثر من اربع سنوات ؛ ولكن خليفته الذي تتلمذ في مدرسة أبيه اعتلى العرش دون حادث يذكر ، وسحق الحركات المعارضة وشئت عناصر الاضطراب ، وقمع القوى المهددة . فهل يمكن أن يستمر ذلك زمناً غير محدود ؟

لعل الاسلام عدم الرجم بالغيب ؛ ولكن بالامكان الاشارة الى وجود معارضة داخلية تؤكدها حركات النفي والاعتقال التي تتناول على الخصوص اللاجئين من ابناء فلسطين . ففي عام ١٩٥٥ جرت سلسلة من الاعتقالات والطرده عقب اضرابات عمال النفط . وبعد ذلك بقليل تأسست في دمشق « الجمعية السعودية للاصلاح القومي » واذاعت بياناً في ٦ تموز من تلك السنة اتهمت فيه الملك سعود بخنق الحريات وتبديد أموال الدولة وترك الشعب عن تصميم يثنّ من البؤس والجوع والجهل . وتطالب الجمعية بوضع دستور للبلاد وباطلاق سراح المسجونين السياسيين .

وقامت أيضاً اضرابات ومظاهرات أشد خطراً في الاحساء عام ١٩٥٦ ، وقمعت بمنتهى العنف ، ومنع الملك كل اضراب مهدداً بعقوبات صارمة .

في هذا البلد ذي البنية القبلية لا يمكن ان يكون لادخال الفن الحديث (التكنيك) سوى نتائج مسيئة ، فان حمل البدو على تخطي عشرة قرون لا يتمّ دون عقابيل .

فالببدو ليسوا افراداً وحسب بل هم خلايا حيوية لجسم اجتماعي خاص . والمشهد الغريب لتواصف الابل وأفاييب النفط - وسائل النقل في الصحراء - يخفي واقعاً فاجعاً ، ذلك لان البدوي أخذ يفقد ، ليس وسائل وجوده فحسب ، بل سبب وجوده كله . والضير في ذلك يأتي من سرعة الانتقال .

ولشد ما كان (روبرت مونتانيو) نافذ البصيرة عندما ذكر في مستهل كتابه عن البدو الرعاة : (لنسرع في مشاهدة الشعوب البدوية في قفارها . فهي صائرة ، ان لم يكن الى الفناء ، فالى الوهن والتراجع ، بسبب تقدم الحضارة الصناعية التي تزحف الى بواديهم الموحشة . ان السيارة والطائرة وناقيات النفط وأنايبه تغيير وجهه الصحراوات كل يوم وتحمل اليها حياة غريبة) .

والخطر الحقيقي لا يكمن في تحول البدو الى حياة الحضارة بل هو في ان هذا التحول اصطناعي يستند الى ثروة قد تكون موقنة ، بينما الحاجات المكتسبة لن يكون بالامكان الرجوع عنها ؛ فعمدة المشكلة هي في التطور الاجتماعي الذي لا يستند الى اساس اقتصادية متينة .

والنقطة الحرجة لاختلال التوازن بين الواقع الاجتماعي والواقع الاقتصادي في تطور المملكة العربية السعودية يمكن بلوغها عندما ينتزع من البدو ، قادة الظعن ، اهم سبل معاشهم بفضل الرقي التكنيكي والنقل الآلي . فالجمل لم يعد منذ الآن اداة النقل للمسافات الطويلة ؛ وزوال الجمل - مركب الصحراء - سيفضي الى انهيار المجتمع البدوي انهياراً لا يخاص منه .

وحينذاك لن يجد البدو عملاً يضمن لهم اسباب البقاء . فهل بالمستطاع تحويلهم الى الزراعة والصناعة المحليتين ؟ ان الصفة الصحراوية المتغلبة على المملكة السعودية لا تقسح مجالاً رحباً لتنمية زراعية تستطيع امتصاص عدد كبير من السكان . وفيما عدا النفط الغزير ليس للمملكة السعودية موارد صناعية الا النزر اليسير (١) .

وفي مثل هذه الاحوال تصبح معضلة حادة قضية تأهيل سكان القفار لعمل جديد ، بعدما فكهم الوضع الاقتصادي الطارئ .

صحيح ان ثروة البلاد المستجدة واقتباس طرق العلم الحديث يمكنها خلق فاعليات حديثة تعوّض فاعليات البدو المنقرضة ، ولكن تبذير الاسرة المملوكة الاموال الطائلة يحرم البلاد من إمكانات انتاجية ضخمة . ولا ريب في ان قبائل بدوية كثيرة قد تحضرت واستقرت على الارض

(١) يبالغ (برهني) في تضيق امكانيات التوسع الزراعي ، بينما يشير تقرير البعثة الامريكية الزراعية التي اوفدت الى المملكة السعودية عام ١٩٤٢ الى ان ضبط تدفق الابار والعيون وحدها كاف لتوسيع نطاق الري .

في جميع الازمان ، غير ان هذا التطور كان تدريجياً وبطيئاً ، اما في المملكة السعودية فالتطور مبالغ وسريع بسبب البترول .
ان انتاج النفط قد درّ على الخزينة السعودية عام ١٩٥٦ نحواً من مائة مليار فرنك فرنسي . واحتياطي النفط المكتشف في المملكة السعودية هو اكبر احتياطي في العالم ، ولم يجاوز التنقيب بعد ربع مساحة المملكة . هذا وان البلد رغم تحلفه يمتلك ايضاً بعض الموارد الزراعية بالإضافة الى موارد الرعي . وفي السنوات الاخيرة نشطت فاعليات الانشاءات العامة والبناء والنقل نشاطاً كبيراً ، يعود الفضل الأول فيه الى صناعة النفط في الاحساء والى موارد الحج في الحجاز . والتجارة الخارجية ذات شأن هام ، فالبلاد تصدر البترول وتستورد جميع السلع المصنوعة ومقداراً عظيماً من المواد الغذائية .

والموارد البترولية الثروة مظنة ان تجعل الخزينة السعودية عامرة دائماً . وما نشاهده في الواقع هو العكس ، فهي دوماً على شفا الافلاس . ولكن الثروات المعدنية الدفينة في جوف الارض السعودية تيسر العثور على دائنين كيتسين ، ممثلين في دولة الولايات المتحدة الامريكية او في شركة استتباط النفط .

ان كل ما يتصل بالحياة الاقتصادية للملكة السعودية مرجعه زيت البترول ؛ فهو جدير بأن نبسط الكلام عنه .

ومن المعروف أن اكتشاف حقل «مسجد سليمان» الايراني عام ١٩٠٨ قد اجتذب أنظار المنقبين ومغامري النفط نحو منطقة الخليج الفارسي . وتأسست شركة بريطانية في لندن عام ١٩٢٠ باسم «النقابة الشرقية والعامه» عهدت الى ممثلها النيوزلندي الماجور فرانك هولمز بمهمة الحصول على امتيازات نفطية بقصد بيعها للشركات المختصة . وقد حظي الماجور هولمز برخص للتنقيب على الضفة الشرقية من الخليج الفارسي وفي جزيرة البحرين الكبرى ، وحاول دون جدوى ان يبيعها لشركة «شل» و «شركة

الزيت الانجليزية الفارسية . ثم أن الشركة الاميريكية الكبرى المعروفة باسم « شركة زيت الخليج » ابتاعت امتياز البحرين وباعته بدورها عام ١٩٣٠ شركة « ستاندار أويل كاليفورنيا » التي يساهم فيها روكفلر . وهذه الشركة الاخيرة استست فرعاً لها مسجلاً في كندا لتكون له جنسية بريطانية فلا يتعارض مع الحصر البريطاني للتنقيب في امارات الخليج . واتخذ الفرع اسم « شركة بتروال البحرين » التي اكتشفت عام ١٩٣٢ طمقة جيوية على الضفة الغربية من الخليج مشبعة بالنفط . وفي عام ١٩٣٤ تنازلت « شركة ستاندار أويل كاليفورنيا » عن نصف حصتها في شركة البحرين لشركة زيت تكساس .

أما على البر العربي القريب فان المهندس الجيولوجي الاميريكي تويتشل (Twitchell) كان منذ ١٩٣٢ يتحرى عن الموارد المعدنية والمائية الحبيثة في الارض السعودية وكان أحد أصدقاء الملك ابن سعود من الاميريكيين - وهو شارل غران - قد عرض على الملك خدمات تويتشل ، الذي سبق له العمل في اليمن . وهكذا بدأ الجيولوجي الاميريكي يدرس منطقة الاحساء المقابلة لجزر البحرين حيث كان التنقيب يسير سيراً حثيثاً ، وانتهى تويتشل الى الجزم بأن البنية الطبقيّة للاحساء مماثلة تماماً لما هي عليه في البحرين ، ولذا نصح الملك ابن سعود بانتظار الحفريات القائمة في الجزيرة البحرانية قبل الاقدام على حفريات مشابهة في المملكة السعودية تستلزم نفقات مرهقة .

وبعد انبجاس النفط البحراني بدأ الصراع على احتكار الامتيازات في الاحساء بين للشركات الانجليزية والاميريكية . وكانت رخص الماحور هولمز قد فقدت قيمتها بمرور الزمن . وفازت بالفنسية شركة « ستاندار أويل كاليفورنيا » الاميريكية ، فاستت فرعاً لها باسم شركة « ستاندار أويل كاليفورنيا العربية » .

ويبدأ مفعول الامتياز في ١٤ تموز ١٩٣٣ ، وينتهي بعد سبعين سنة ،

ويشمل مساحة قدرها ٧٢٨,٠٠٠ كيلو متر مربع على شكل هلال واسع يمتد من الساحل الشرقي للملكة وينتهي عند حدود اليمن ماراً فوق الربع الخالي . وفي عام ١٩٣٩ وُسِّع الامتياز حتى تصل مساحة الارض التي يشملها الى ١,١٤٠,٠٠٠ كيلو متر مربع ، أي الى ضعف مساحة فرنسا . وهذا الامتياز الاضافي الممنوح في ٢١ تموز ١٩٣٩ لمدة ستين سنة يتناول ايضاً حقوق الدولة السعودية في نصف بتروال المنطقة المحايدة المتاخمة للكويت من الجنوب . ومنعت الشركة ايضاً حق « الافضلية » في الجزء الاوسط من نجد . وهنا ايضاً تخلت شركة كاليفورنيا عن نصف حصتها لشركة زيت تكساس . وفي مطلع عام ١٩٤٤ أطلق على الشركة الجديدة اسم « شركة الزيت العربية الاميريكية » ، ذلك الاسم المختصر بكلمة « أرامكو » . وفي عام ١٩٤٧ حصلت شركة « ستاندار أويل نيوجرسي » على ٣٠٪ من اسهم الارامكو ونالت شركة زيت « سوكوني فاكوم » ١٠٪ وهكذا أصبح توزيع الاسهم ضمن شركة الارامكو كما يلي :

٣٠٪	ستاندار أويل كاليفورنيا
٣٠٪	تكساس أويل
٣٠٪	ستاندار أويل نيوجرسي
٣٠٪	سوكوني فاكوم

وأعلنت الحكومة السعودية عام ١٩٤٩ سيادتها على الأعماق البحرية المناوحة لساحل الاحساء ، وبذلك اتسع امتياز الارامكو مرة اخرى . أما في المنطقة المحايدة فقد تركت شركة الارامكو عام ١٩٤٨ امتيازها من حصة الملكة السعودية وحلت محلها شركة « باسيفيك ويسترن أويل » التي نالت الامتياز لمدة ستين سنة بدءاً من ٢٠ شباط ١٩٤٩ . ومنذ عام ١٩٥٦ اتخذت هذه الشركة اسم صاحبها فأصبحت تعرف بشركة « جيتي أويل » ، وهي مشتركة في المصالح مع « شركة الزيت الاميريكية المستقلة » المستغلة لنفط الكويت .

ان اسم الارامكو اصبح على كل لسان ، وهو يدل على واحدة من
اضخم مؤسسات العالم . ولم يكن ليخطر في بال الهيئة التي باشرت التنقيب
في الاحساء عام ١٩٣٣ ان الشركة ستبيع ٤٠٪ من حصتها عام ١٩٤٧ بمبلغ
نصف مليار دولار ! وان هذا الجزء من اسهمها يساوي اليوم خمسة اوسنة
اضعاف ذلك ! ويمكن تخمين قيمة الحقول السعودية بمبلغ ٥٠٠٠ مليون
دولار على اضعف تقدير .

وقد بدأ التنقيب في الدمام وامتدّ الى جهات الحُبْر على الساحل ثم الى
الظهران على بعد ستة او سبعة كيلومترات نحو الداخل . واول سبر أجري
في الظهران عام ١٩٣٥ كشف بعض القرائن المطمئنة ، وخلال السنوات
الثلاث التالية أنفقت ملايين الدولارات على سبع آبار لم تحسر اي جيب نفطي
قابل للاستغلال التجاري . وفي آذار ١٩٣٨ بلغ السبر في البئر السابعة الى
عمق ١٣٨٣ متراً ، فصادف طبقة شديدة الاشباع بالزيت ، مما حفز المهم
ووطدّ الامال ، فعمقت الآبار المهجورة واحتفرت آبار اخرى . وفي شهر
ايلول من ذلك العام نقلت اول شحنة من النفط الخام السعودي الى البحرين
على مراكب مزوّدة بالصهاريج .

وازكت هذه النتائج حماسة المنتجين ، فاكتشفت حقول جديدة في
ابو حدرية على بعد ١٥٠ كم شمال الظهران ، وفي الدمام وبيقق والقطيف
والعمانية . وآخر الحقول اكتشافاً حقل الحرسانية المحفّر عام ١٩٥٦ .
وتؤلف آبار العمانية وعين دار وشدم حقل الغوار ، الذي يعتبر مع حقل
البوقان في الكويت اوسع حقول البترول العالمية . اما في الاعماق البحرية
فقد استثمرت شركة الارامكو حقل السفانية الذي بدأ بالانتاج في نيسان
١٩٥٧ ، ويتوقع له شأن هام .

وبينما كانت اعمال التحرّي تجري في المياه البحرية الضحلة ، كانت هيئات
تنقيبية اخرى تتوغّل في مجاهل الربع الخالي حاملة فوق رماله الوعنة احدث
الالات والاجهزة ، وقد شجعت نتائج الاستطلاع رجال الشركة على

التوسع في الانفاق .

ولم يزد انتاج الزيت الخام في المملكة عام ١٩٣٨ عن ٦٥,٦١٨ طناً ، وبفضل انبوب النفط المنهي برأس التنورة الذي دسّن في ايار ١٩٣٩ ارتفع الانتاج ذلك العام الى ٥٢١,٢١٤ طناً ، وظل يتأرجح بين ٥٠٠,٠٠٠ و ٦٠٠,٠٠٠ طوال السنوات الاولى من الحرب العالمية الثانية ، وقفز عام ١٩٤٤ الى اكثر من مليون طن ، وتالت القفزات واسعة عظيمة حتى بلغ المنتوج ٢٦,١٩٧,٠٠٠ طن عام ١٩٥٠ . وفي السنة التالية انتهى مد الانبوب الكبير الذي يعبر الصحراء حتى البحر المتوسط فوصل الانتاج ذلك العام الى ٣٦,٦٠٨,٠٠٠ طن ، ثم الى ٤٨,٦٢٢,٠٠٠ عام ١٩٥٦ ، وكانت الرقم القياسي ٤٩,٤٥٦,٠٠٠ طن عام ١٩٥٧ .

وهكذا اوضحت المملكة السعودية الدولة الخامسة بين دول العالم المنتجة للنفط بعد الولايات المتحدة الاميريكية وفينزويلا والاتحاد السوفياتي والكويت . وبالنسبة الى المدخرات المعروفة في جوف الارض تأتي المملكة السعودية على رأس دول العالم . وكان الاحتياطي السعودي يقدر عام ١٩٥٤ بثلاثين مليار برميل اي ٢٤,٨٪ من احتياطي العالم غير الشيوعي . وفي عام ١٩٥٥ بلغ الاحتياطي السعودي ٣٥ مليار برميل في البقاع المحدودة التي تناوأتها اعمال البحث والتنقيب . ومجموع الشرق الاوسط كان يمثل ٦١,٢٪ من جملة الاحتياطي العالمي للنفط عام ١٩٥٥ فارفعت هذه النسبة الى ٧٠ او ٧٥٪ عام ١٩٥٧ .

وقد انشئت مصفاة صغيرة للتكرير عام ١٩٣٩ لانتجاوز قدرتها ٣٠٠ برميل يومياً . واثناء الحرب العالمية الثانية بنت الارامكو مصفاة في رأس التنورة طاقتها ٥٠,٠٠٠ برميل في اليوم ، ثم زيدت سعتها مرات عدة حتى بلغت ٢١٠,٠٠٠ برميل يومياً عام ١٩٥٤ . ومجموع ما تستطيع المملكة السعودية تكريره بلغ ١١,١٠٠,٠٠٠ طن عام ١٩٥٥ .

والزيت السعودي الخام يغذّي ايضاً مصفاة (سترة) في البحرين بالقسم الاعظم من منتوجها ، بواسطة انبوب عبر البحر . وطاقة هذه المصفاة ٧٦ مليون برميل سنوياً عام ١٩٥٥ . وبسبب العدوان الفرنسي البريطاني على بور سعيد امتنعت الحكومة السعودية عن ارسال النفط الخام الى البحرين بين ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦ و ١١ آذار ١٩٥٧ .

وما يتبقى من الزيت السعودي الخام يرسل الى موانيء الخليج والبحر المتوسط ، وخاصة بطريق الانبوب العابر لبلاد العرب - التابلاين - الذي يبلغ طوله ١٨٠٠ كم بقطر ٣٠ - ٣١ بوصة . وكان أطول انبوب في العالم عندما تمّ تمديده في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥١ . وهو يصل مراكز التخزين في حقل بقيق الى مرفأ صيدا اللبناني ماراً من الاردن وسورية .

وكانت سعة التابلاين ٣١٠,٠٠٠ برميل يومياً عام ١٩٥٤ . ومنذ السنة الاولى لاستخدامه حمل الى البحر الابيض المتوسط اكثر من ١٤ مليون طن من الزيت الخام ، ثم زوّد بمحطات ضخ جديدة جعلت سعته السنوية ٢٠ مليون طن عام ١٩٥٨ ، ومن المرتقب ان ترتفع هذه السعة الى ٢٥ مليون طن . وقد وقر انشاء هذا الحط على الشركة ٧٥ مليون دولار سنوياً . اما اكلاف تمديده فتقدر بين ١٣٥ مليون و ٢٠٠ مليون دولار .

وفيما عدا التابلاين انشأت شركة الأرامكو شبكة واسعة من الانابيب بأطوال وطاقات مختلفة لتصل ما بين الحقول والمستودعات والمصافي ومراكز الشحن . وبلغ مجموع طولها ٥٣٠ كيلو متر عام ١٩٥٣ .

ثم ان المملكة السعودية تمتلك بالمنافسة مع الكويت عائدات النفط في المنطقة المحايدة التي تمتد على مساحة ٥٢٠٠ كيلو متر مربع ولا يسكنها احد . والشركتان المتوازعتان لنفط هذه المنطقة هما (شركة الزيت الاميريكية المستقلة) عن الكويت و (شركة زيت جيتي) عن المملكة السعودية . وقد وّحدت الشركتان مصالحهما وباشرتا التنقيب في الشهر الاخير من عام ١٩٤٩ ، وذلك في جهات (وفرة) داخل المنطقة . وفي عام

١٩٥٣ أعلنت شركة جي تي انها عثرت على اول منجم قابل للاستغلال . ونقلت اول شحنة من الزيت الخام في مطلع ١٩٥٤ ، وانشيء لهذا الغرض مرفأ جديد على بعد ١٥ كم جنوبي خط الحدود مع الكويت . وبلغ الانتاج ٨٥١,٠٠٠ طن عام ١٩٥٤ وارتفع عاماً عن عام حتى جاوز ٣,٤٨٠,٠٠٠ طن سنة ١٩٥٧ . واصبح السيد (بول جي تي) في تلك السنة الثري الامريكى الأول اذ قدرت ثروته بنحو ٧٠٠ الى ١٠٠٠ مليون دولار ..

ونتحدث الآن عن أثر شركة أرامكو في الاقتصاد السعودي ، فان هذه الشركة ، بأموالها المستثمرة وبفنها وخبرتها ، تساهم بشكل مباشر وغير مباشر في تطور المملكة السعودية .

من ذلك حفر آبار اختبارية للكشف عن مكامن الماء ، وانشاء شبكات الري والطرق والمرافىء وسكك الحديد . وأول خط حديدي أنجز عام ١٩٥١ بين الظهران والرياض .

وتستخدم الشركة في منشآتها الخاصة قرابة ١٥ ألف عامل عربي بالإضافة الى بضعة آلاف من الاميريكين والاوربيين . ولاسكان هؤلاء الاخيرين شيدت الشركة مدناً حديثة في الظهران والدمام ورأس التنورة والقطيف ، واخذ السعوديون يقلدون اسلوب معيشتهم حتى في اقاصي الحجاز على الرغم من الحواجز الاجتماعية والدينية .

وساعدت الأرامكو خاصة على خلق مؤسسات تجارية محلية مالبت ان ازدهرت وتشعبت نشاطها ، كالتى اهتمت بالانشاءات والاشغال العامة وتجارة الاستيراد .

وتمثل عائدات النفط ٨٠٪ من باب الواردات في الموازنة السعودية ، واذا اضعنا الى ذلك الرسوم والضرائب والمكوس المتحصلة من النشاط الاقتصادي للصناعة البترولية أمكننا القول بأن ٩٠٪ من موارد الدولة تأتيها من البترول .

ففي سنة ١٩٥٦ دفعت شركة الأرامكو ٢٨٠ مليون دولار للخزانة

السعودية . ومنذ ١٩٣٨ حتى ١٩٥٦ بلغ مجموع ما دخل على بيت المال السعودي من طريق الأرامكو وحدها ١٦٠٨ مليون دولار . فلو ان هذا المال الوفير أحسن استخدامه لجعل من المملكة السعودية بلداً مستقلاً اقتصادياً ، أو لرفع على الأقل مستوى الحياة لدى سكانها الذين لا تزال غالبيتهم تعاني العوز الشديد .

ومن المؤكد ان تبديد واردات النفط في سبيل غير منتجة يجعل الصفة الموقوتة لهذا المنبع من الثروة أشد وبالاً . وتحت ظواهر الغليان الاقتصادي يظل القسم الأكبر من البلد مستمسكاً الى الركود والجمود . ولقد دلت تجارب الاستعمار الحديث ان مثل هذه الاوضاع الختلة تحمل بذور أوضاع أكثر اختلالاً ..

هذا وأن المملكة السعودية أصبحت تستوفي نصف أرباح النفط منذ ١٩٥١ ، شأنها في ذلك شأن البلاد العربية الأخرى المنتجة للزيت . يضاف الى ذلك منذ ١٩٥٤ عائدات نفط المنطقة المحايدة ، فضلاً عن موارد الحج . فكيف تنفق الدولة هذه الاموال ؟

ان آخر موازنة اطلعنا عليها تعود الى العام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ وهي تدل على ان ٣٥٪ من نفقات الدولة يمتصها الجيش و ٣٠٪ تصرف على التربية والتعليم وأقل من ٣٪ على الصحة العامة ؛ وعجز الموازنة يزيد على ١٥٪ . وهذه الأرقام وحدها كافية للدلالة على مدى التخلف في نظام الحكم .

وقد انشئت عام ١٩٥٢ مصلحة للنقود السعودية بمعونة خبير اميريكى ، وهي تقوم بدور مؤسسة للاصدار ومصرف مركزي للدولة الا ان رؤوس الاموال تهرب الى الخارج ، وقيمة النقد السعودي تتدنس و صدر في ايار ١٩٥٥ قرار ينظم دائرة مراقبة القطع ويمنع تهجير الثروات . ونشرت صحيفة (لوموند) بهذه المناسبة مقالاً ذكرت فيه الوفرة من المال الذي يملكه في الخارج وزير المالية السابق عبد الله السليمان ومساعدته نجيب صلاح ، وهزل الوزير في ٣ ايلول ١٩٥٤ بعد ان ظل قيمياً على خزانة الدولة منذ

١٩٢٨ ، وتألقت لجنة خاصة للتحقيق في ادارة الاموال العامة طوال عهد الملك السابق ، اختيار اعضاؤها بين المفتشين الماليين السوريين ؛ واعيد تنظيم وزارة المالية وضمت الى وزارة الاقتصاد الوطني وعهد بها الى الشيخ محمد سرور الصبان (وقد نفي ايضاً بعد سنوات) .

والقطاعات الاقتصادية التي لاصلة لها بالنفط تبدو هزيلة جداً بالقياس الى ضخامة الأرامكو .

فحتى عهد قريب كانت في المملكة مؤسسة للاستثمار المعدني (ثلاثة ارباع اسهمها اجنبية) تستغل مناجم الذهب في منطقة (مهد الذهب) الواقعة على بعد ٤٠٠ كم في الشمال من جدة وكان مكتشف الذهب والفضة يصفى في الولايات المتحدة الاميريكية ، الا ان نزوب المعدن ادتمى الى ايقاف العمل . وفي البلاد معادن ثمينة معروفة منذ القديم الا انها ليست على غنى يسمح باستغلالها تجارياً . ولم تستغل كذلك مناجم الباريوم والخص والملح والحديد .

وفي بعض أمصار المملكة وواحاتها حورف قديمة تقاوم بصعوبة غزو السلع المستوردة بكثرة من اوروبا والولايات المتحدة واليابان .

وصناعة استخراج اللؤلؤ على ضفاف الخليج الفارسي كانت في القديم صناعة مزدهرة ، ولا يزال صيد الاسماك في الخليج وفي البحر الاحمر يشكّل مورداً هاماً لسكان السواحل (وقد تألفت شركة سعودية حديثة للصيد والتعليب) ، ويشغل هؤلاء السكان ايضاً بصناعة القوارب . ولكن جميع هذه الفاعليات ذات مدى محدود . وفي عام ١٩٥٤ دشّن الملك مصنعاً لذخيرة البنادق اقامته شركة افرنسية في اقليم الحرج بنجد .

وقد اضحت تجارة السيارات الخاصة من اربح التجارات ، بعد ان حلت محل الجمال ، واستدعت انشاء مرائب للتصليح ومراكز لتوزيع الوقود السائل . والسياء السعودية تعج فيها الطائرات ويحط في مطار الظهران منذ عام ١٩٥٤ الف طائرة وسطياً في الاسبوع ويتولّى مستأجرو المطار

الاميركيون تدرّب الطيارين السعوديين . اما الطيران العسكري السعودي فيدرّب رجاله في الولايات المتحدة . وفي ميدان النقل نذكر ايضاً خط حديد الدمام - الرياض الذي يصل الاحساء بالعاصمة يومياً ، ومن المقدر له ان يخترق الصحراء ويصل ما بين خليج فارس والبحر الاحمر ، وسوف يتصل بالخط الحجازي القديم المنتهي في سورية والذي تجري الاعمال التمهيدية لاصلاحه من اجل الحجيج . ولكن المشكلات السياسية تعوق المضي جدياً في هذا المشروع المفيد . وبانتظار الانتهاء منه يفد الحجاج بطريق السيارات وتحتكر نقلهم وطوافهم وزيارتهم الشركة العربية للنقل بالسيارات ، وهي شركة حكومية كشركتي سكة الحديد والملاحه . وهذه الاخيرة تمتلك بضعة مراكب وناقلة بترول حملتها ٤٦٠٠٠ طن (١) . والدولة السعودية قد اتمت ايضاً سبل الاتصال الهاتفي والبرقي والاداعي كما اتمت توزيع الكهرباء في بعض المدن الكبيرة .

وهذه الفاعليات الجديدة لاتفنح قسماً كبيراً من السكان الحضريين والمترحّلين من ان يستمروا في نسق معيشتهم حتى الآن على نظام اقتصادي بدائي نصف اكتفائي .

فالزراعة تنجح في بعض الواحات والاوادية ومستوطنات (الاخوان) حيث يتوافر الماء . ومنذ بضعة سنوات انشئت مزارع نموذجية لتعميم طرق الري الحديثة باستنباط المياه الجوفية . ويمكن تحديد الاقاليم الزراعية في المملكة بخمسة :

ففي الأحساء تنتج واحة الهفوف الكبرى وينابيعها الخمسة الغزيرة الأرز والبقول والفواكه المنوعة و صنف التمر المختلفة . والقطيف والدمام هما مركزان زراعيان تابعان لهذا الاقليم . وفي نجد تجود الجبوب والفواكه والخضراوات والتمور في الواحات العديدة الواسعة وفي مستوطنات

(١) ان الناقله الصبريج (الملك سعود) هي حصيلة المحاولة العقيمة التي قام بها المثري اليوناني ارسطو اوانازيس لفك الحصر الذي تفرضه الأرامكو في نقل الزيت .

« الاخوان » . وفي منطقة الحرج من هذا الاقليم أسست أول مزرعة تجريبية عام ١٩٤٥ على مقربة من الرياض . والعسير ذات المزارع المتدرجة الحصينة ونجران الخضراء هما بلدان منعمان يحفلان بضروب مختلفة من الزراعات بما في ذلك البن اليمني . أما تهامة فهي أرض كريمة في الاماكن المروية وتنتج محاصيل البلاد الحارة كالتقطن ، التمر ، التبغ والذرة الصفراء . واخيراً نجد في الحجاز واحات كبيرة وأودية عديدة نبت النخيل والحبوب والثمار والخضر ، وخاصة في وادي فاطمة ، ومن المعروف ان ارض الحجاز كانت قديماً أوفر بالمزروعات .

غير أن المنتج الزراعي للملكة هو أقل من الحاجة على كل حال . وتحتاج البلاد مجاعة أكيدة اذا ما اضطرت الى الاعتماد على مواردها الغذائية وحدها . وقد تبلور الشعور بهذا الخطر خلال الحرب العالمية الثانية ، وكانت بريطانيا قد بعثت بفرق لمكافحة الجراد وصيانة الغلال ، وفي عام ١٩٤٢ اوفد الرئيس روزفلت اولى البعثات الاميريكية الزراعية للدراسة والمعونة العاجلة . وجاءت البعثة الثانية عام ١٩٤٤ وانصرف اهتمامها بوجه خاص الى امور الري ، وهي التي انشأت في الحرج أول مزرعة اختبارية . وتعاقت البعثات بعد الحرب واجمعت كلها على ضرورة توسيع الاراضي المزروعة عن طريق السقاية . ثم استدعت الحكومة السعودية خبراء دوليين تابعين لمنظمة التغذية والزراعة الدولية . الا ان مهمة هذه المؤسسة تقوم على المثل المأثور : اعن نفسك تعنك السماء .. ، والمملكة السعودية المسلمة اشد ميلاً الى الاخذ بالحكمة الجبرية القائلة بأن كل شيء مقدّر ومكتوب .. ومع ذلك لقد بذلت بعض الجهود لتحسين اساليب الزراعات الغذائية واتماء محصولها ، وخاصة زراعة النخيل . ويؤكد بعض الخبراء بهذا الموضوع ان الاخذ ببعض الطرائق البسيطة من شأنه ان يضاعف محصول التمور مرتين او ثلاثاً ويجوّد نوعها . وقد أدخلت زراعات جديدة بدأت أولاً على صورة تجريبية ثم توسّع فيها بعد نجاحها .

الا ان كل ازدهار فلاحي ارحب مدى يستلزم المزيد من الري .
و كنت ذكرت ان الارامكو شاركت في تقدم الزراعة بحفر عدد كبير
من الآبار ، وما انفك خبراءها ومهندسوها الجيولوجيون يعرضون عونهم
في كل وقت على الحكومة السعودية . وقد انشئت اقية السقاية على طول
مئات الكيلومترات ، ونشر استعمال الآلات والاسمدة عن طريق المزارع
النموذجية ، كما علمت الاساليب الحديثة في الفلاحة وتربية المواشي .

ورغم ذلك كله ، فان في البلاد تخلفاً زراعياً خطراً ، يزيد من شدته
ان امکانات الطبيعية محدودة جداً . وضمن هذه الحدود نلس العجيب
من الاعمال ، ففي الحجاز نشاهد آثاراً كثيرة لأسداد مائية متداعية مبنوثة
على مئات الكيلومترات بين المدينة ونجران ، وليس في اصلاحها عمر ار
كبير نفقة ، وهي لو أصلحت لرفعت من مستوى الحياة في غرب الجزيرة
العربية . ومنذ ١٩٤٨ يضم جهاز المملكة دائرة للزراعة اصبحت وزارة فيما
بعد ، ومهمتها حسب النصوص الرسمية « توسيع الرقعة الصالحة للححر بتسمية
شبكة الري واصلاح الآبار والأحباس وانشاء الاقنية وغير ذلك من
الاعمال التي يمكن بها تعويض شع الامطار ، ولكن الموازنة لا تشمل على
فصل للزراعة . .

وفي الواقع ، ان المشاريع الزراعية الكبيرة تبدو مستحيلة التحقيق في
هذا البلد . وخير منها عدد من المشروعات الصغيرة السهلة . وأولى ان تنفق
الاموال في سبيلها من ان تصرف على استيراد المواد الغذائية ، ذلك الاستيراد
الذي يزداد باضطراد . فيمكن ، على سبيل المثال ، قعيم الاستقاء الآلي
وتوزيع المضخات الحديثة .

ومها يكن الامر ، فليس من المقدر ان تنتج المملكة السعودية ابدأ
مايكفي حاجتها بالمواد الزراعية ، فهي لا تستطيع ان تنمي زراعتها اكثر
من الحدود التي فرضتها عليها الطبيعة .
وقد سبق ان اشرت الى ان ثلث السكان على الاقل هم بدو رحل ،

وهذا يعني ان المورد الوحيد تقريباً للمليوين من السعوديين هو تربية
الأنعام . والبدوي يقنع بالقليل من البن والسكر والارز والتمر وبشيء
بسيط من النسيج فيما عدا الموارد التي يستمدّها من انعامه . والزراع
المتحضرون ، الذين يتحدرو اكثرهم من اصل بدوي ، يمارسون ايضاً رعاية
الماشية المنوعة بالاضافة الى النحالة وتربية الطير . وتربية النحل هي على وجه
التخصيص صناعة قديمة في عدد من اقاليم الجزيرة . ومن المعروف ان العرب
يستمرّون العسل .

وتربى الماعز والشاة للحمها ولبنها ووصوفها أو وبرها وجلودها . أما الابل
فقد زالت الحاجة اليها في النقل والحرب واقتصر الانتفاع بها على الركوب
والبن والحم . وتصادف الابقار عند المتحضرين في القرى والواحات .
وقد عملت البعثات الاجنبية والمزارع النموذجية ومراكز التجريب
التي اقامها خبراء اميريكيون ودوليون ، على تحسين طرق التربية الحيوانية
بالاصطفاء والتوليد . والمأمول في هذا الميدان ان يفيد من ذلك مربو
المواشي المزارعون والحضريون . أما الاعراب فلن ينفذ اليهم هذا التأثير .
وخلاصة القول ، ان البدوي لم يتأثر مباشرة بالانقلاب الاقتصادي ، فهو
لا يزال في طور الدهش والاستغراب حيال المدنية الصناعية والتقدم الآلي .
وقد يحلو للبعض - وخاصة شركات النفط - أن يشيد بتأثرة الاعراب الذين
تحولوا الى ميكانيكيين وعمال صناعيين ؛ وأنا ادعو الى التأمل جيداً في هذه
الارقام : تستخدم شركة الارامكو ١٥ الف عربي ، وفي المملكة السعودية
مليونان من البدو يعيشون من الرعي وليس من النفط .

* * *

وأصل الآن الى الحديث عن الحكومة الدينية البدوية على المسرح
الدولي

فمنذ نشأتها وقبل اكتشاف النفط فيها وطّدت المملكة السعودية قدمها
على الصعيد الدولي ، رغم احوالها المتأخرة . ولا تزال مكانتها بين الدول

في علو مضطرد بسبب البترول والاسلام : ضرعي المملكة . ولئن كان الملك عبد العزيز قد التزم زمنياً طويلاً سياسة محتوتزة متوتزة فان الظروف قد تبدلت ، واخذ خلفه يساهم بنصيب اوفر في السياسة العالمية واذا كانت الملايين الاربعمائة من المسلمين والمليارات الخمسة والثلاثون من براميل النفط تحوّل حامي الحرمين سعود حق الكلام عالياً ، فان فقر بلاده البنيوي وضعفها النسبي يجعلان من هذا الموقف مفارقة عجيبة ..

وحتى في داخل الامبراطورية السعودية فان الموقف يستلزم الكثير من الحيلة . فبين ارض الحجاز المقدسة وبلاد الاحساء الصناعية تقوم نجد المنقشفة ، مهد آل سعود والوهابية والاخوان ؛ فهي بذلك تقبض على محور الميزان بين الحجاز المتقيد بتقائيد السلف وبين الاحساء المتجهة نحو الحضارة الحديثة . ولذا اختار ابن سعود الرياض عاصمة له ومن هذه المدينة البدوية يتحتم على سعود ان يقيم التوازن بين مصالحه المرتبطة مع « الكفر » مستثمري نفط الاحساء وبين المثل العليا العربية الاسلامية المجانفة لكل تحالف مع الغرب .

ان المشكلة ليست جديدة ، ولكنها اكتسبت المزيد من الحدّة في السنوات الاخيرة .

كان الملك ابن سعود يركن حتى الحرب العالمية الثانية الى صداقة بريطانيا ذات الغرض ، وقد اعترف بمركزها الخاص في اطراف الجزيرة العربية ، وظل مقيماً على الولاء لها حتى جاءه رجال البترول الاميريكيون . فمنذ ذلك التاريخ دفعه حسه الواقعي الى توثيق روابطه التجارية مع الولايات المتحدة . وهكذا اخذ النفوذ البريطاني يتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى حان اليوم الذي تمكّن فيه ابن سعود ان ينقل من طوق بريطانيا دون ان يحتاجه اي شعور بالأسف .

وكان لابن سعود عدد من المبررات في تحوّلته عن الصداقة الانجليزية ، منها قضية فلسطين ، ومنها اصرار بريطانيا على حماية استقلال امارات الخليج

والمحافظة على عرشي الهاشميين في العراق والاردن . وبالمقابل كان النفوذ الاميريكي يشتد تغلقاً بفضل الشركات الاميريكية والعلاقات الاقتصادية المتشابكة .

ان الاميريكيين لم يلقوا عناءً في ربط اقتصاد المملكة بمصلحتهم ، وبذلك ضمنوا ارتباطها السياسي . ومع ذلك - ولعل الاصح القول : بسبب ذلك - حرصت المملكة السعودية على اعلان رفضها للاحلاف الصريحة مع الغرب ، وكانت سياستها الخارجية تركز دوماً على مبدئين اساسيين :

الوحدة العربية او بالأحرى الوحدة الاسلامية ، ثم الحياد . وكان من نتيجة المساعي الانجليزية الاميريكية لاقامة جبهة عربية مناهضة للسوفيات امراع السعوديين في تقرير سياستهم على اساس رفض الدخول في مفاوضات دولية لانهم الاسلام والبلاد العربية . ويجب ان نضيف الى ذلك مبدأ مكافحة الاستعمار الذي ظل على مستوى نظري في عهد المرحوم ابن سعود ثم جعل منه سعود حصان المعركة لثلاثين سنة متتالية في عصر تسوده مباديء باندونغ .

ولا بد لتفهم السياسة الخارجية للدولة السعودية من الرجوع قليلاً الى تاريخها الدبلوماسي ، فان هذا الرجوع يوضح اسباب ثباتها في موقف ظاهره التردد والتقلب .

لقد كانت الدولة السعودية قبل النفط تدور في الفلك البريطاني . وفي الواقع ، عندما عقدت معاهدة جدة عام ١٩٢٧ التي تمنح ابن سعود شخصية دولية كانت بريطانيا الدولة الوحيدة التي تستطيع التفاهم معه باسم جميع جيوانه (عدا اليمن) . ذلك انها كانت مسؤولة - شرعياً او واقعياً - عن الكويت والبحرين وقطر وساحل القرصان ومسقط وعمان وحضرموت والعراق والاردن .

والشيء المهم هو ان البلدين المجاورين لابن سعود من الشمال ، العراق والاردن ، كانا تحت حكم الهاشميين الذين طردهم من الحجاز فخلقت لهم

الدولة البريطانية المنتدبة عروشاً ملكية . والطرق البرية الوحيدة التي تصل المملكة السعودية بالبحر الابيض المتوسط يجب ان تمر ببليدي فيصل وعبد الله نجلي الحسين شريف مكة السابق . وكان طبيعياً ان يحمل الهاشميون المطرودون أشدّ الضغينة لآل سعود ، حتى ان الملك عبدالعزيز ظل سنوات طويلة يخشى محاولة هاشمية لاسترداد الحجاز . وبفضل الضغط البريطاني المتواصل على الطرفين عقدت عام ١٩٣٦ معاهدة الاخوة العربية والتحالف بين العراق والمملكة السعودية ؛ فقد اتفقت حصافة ابن سعود السياسية مع سهولة خلق الملك الشاب غازي ابن فيصل على وضع حد ظاهري لحصومة امرتها . وهذا لايعني امحاء سوء الظن لدى السعوديين وانطفاء الحقد في قلوب الهاشميين ، بل ان التضاد المستعكم بين الجانبين سيبدو غنياً في الموقف الصلب الذي وقفه آل سعود في معارضة المشروع العزيز على البريطانيين : مشروع سورية الكبرى او الهلال الحبيب . ذلك ان ضم العراق وفلسطين وسورية ولبنان تحت سلطان الهاشميين من شأنه ان يخلق الى جوار البلد السعودي دولة أقوى منه ولايؤمن جانبها نحوه . والوحدة العربية او الاسلامية التي يدعو لها آل سعود يجب ان تقوم على مبدأ واضح صريح ، وهو ان تكون لهم وليس ضدّهم .

والصراع بين السعوديين واليانيين يُظهر رشد ابن سعود السياسي
ومقدرته الحكيمه على ايقاف فتوحاته حيث يجب ان تقف ، ففي عام ١٩٣٣ أعلنت اليمن الحرب على المملكة السعودية من أجل السيادة على العسير ونجران ، وكان الامام يحيى في الوقت ذاته يناهض البريطانيين على حدوده الجنوبية المتاخمة لمحمية عدن . وقام الجند السعوديون بهجوم خاطف أوصلهم الى مرفأ الحديدة بقيادة الأمير فيصل ، بعد سيرٍ متصلٍ دام خمسة وأربعين يوماً . وبادر الامام يحيى الى طلب الصلح والنزول على شرط الظافرين ، فعقدت بين الطرفين معاهدة أياها في ١٧ شباط ١٩٣٤ . وبالرغم من تقوّقه الساحق وافق ابن سعود على سحب رجاله من تهامة اليمن ؛ واعترف الامام

بالسيادة السعودية على المناطق المتنازع عليها ، وألّف مع المملكة السعودية
جبهة اقتصادية وسياسية متكافلة .

وتعتبر معاهدة أبها نموذجاً للسياسة التي سبقتها ابن سعود في دعم مبدأ
التوازن والتحكيم بين الشعوب العربية والاسلامية . وفي غد هذا الاتفاق
راحت المصادقة الواثقة بين الملكين تتمكّن يوماً عن يوم بالرغم من
التباين المذهبي والعنصري . وعندما قُتل الامام يحيى عام ١٩٤٨ التزم عبد
العزيز بن سعود بجانب نجلة الامام احمد وناصره على الاحتفاظ بعرش ابيه .
وكان للملك سعود بن عبد العزيز يد طويلة في فشل المؤامرة التي حيكت على
الامام احمد بن يحيى عام ١٩٥٥ وكادت تفقده صولجان الملك .

ولا يسع المراقب الاجنبي الا ان يسجّل دهاء ابن سعود حين تحالف
مع اعدائه التقليديين : الهاشميين في العراق والزيديين في اليمن . وليس ذلك
سوى امتداد لسياسته الداخلية على المستوى الدولي ، وكنا أشرنا الى ان
تلك السياسة اعتمدت على محالفة القبائل ومصاهرتها . وفي الواقع ان اقوال
الملك الراحل وافعاله تدل ابلغ الدلالة على اهتمامه الدائم بتقارب الشعوب
العربية والاسلامية ولمّ شملها ، ولعل الشعوب الاسلامية تتقدم عنده على
الشعوب العربية .

وتبرز المنزلة العظيمة للصلة الاسلامية في الحج السنوي الى مكة والمدينة ،
فهو يؤكّد كل عام مكانة الحجاز - وبالتالي المملكة السعودية - في نظر
شطر كبير من الانسانية . ويذهب المستشرق المشهور فنسان مونتيل الى
حد القول بأن مناسك الحج تعمل على توحيد سياسة الدول الاسلامية .
ولئن كنا نلص بعض الغلو في هذا الحكم ، فلا نستطيع ان نهوّن من شأن
هذا الالتقاء السنوي لمختلف الاعراق التي تضمها ديار الاسلام . وكان الملك
ابن سعود قد حاول منذ عام ١٩٢٦ ان يضع نظاماً لاجتماع قادة المسلمين
وزعمائهم في المناسبات ، وذلك عندما دعا الى عقد المؤتمر الاسلامي في
مكة . والمظنون انه كان ينوي حينذاك تقلّد منصب الخلافة . الا ان

انعقاد هذا المؤتمر لم يلق ترحيباً حاراً في البلاد الاسلامية ، مما حمل الملك على
اطراح خططه ومظامعه . وفي عام ١٩٥٤ تبنتى الملك سعود ايضاً فكرة
المؤتمر الاسلامي ، وشكلت له امانة سر دائمة . وظهر ان مصر تريد
الاستئثار بقيادته عندما اختصت الكولونيل أنور السادات بمنصب أمين السر .
ولا ريب في ان استفادة العالم الاسلامي والعربي في آسيا وافريقيا تؤيد نجاح
هذه الحركة . ولكن المؤتمر الاسلامي لم يعد حتى الآن ان يكون أداة
جديدة في خدمة المطامع المصرية (كذا)

وقد بلغ عدد الحجاج نصف مليون عام ١٩٥٣ حسب الارقام الرسمية ،
وازداد الى ٧٠٠,٠٠٠ عام ١٩٥٥ . ولعل الاحصاءات ذات المصدر السعودي
موضع ارتياب ويمكن قبول رقم معقول يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف
سنوياً . وضخامة هذه الحركة تبرر ان يكون الحاح الزعماء السعوديين على
الفكرة الاسلامية أشد من الحاحهم على الفكرة العنصرية . فالاسلام هو
ديانة كاملة تنفذ الى أصغر شؤون الحياة اليومية ؛ ومن المحيط الاطلسي حتى
السند يحو الشعور الاسلامي كل اختلاف في اللون أو في اللغة ؛ وهذا
الشعور يعدل الشعور القومي بل يفوقه قوة . وقد قوبل سعود في الرباط
كما في كراتشي بهتافات تنادي بحياة « ملك الحجاز » على اعتبار انه حامي
الحرمين الشريفين . فاذا لم يكن الملك السعودي قائماً رسمياً بمنصب الخلافة
فهو أقرب الى ان يكون أمير المؤمنين بالفعل .

وتفضيل الفكرة الاسلامية على الفكرة العربية له مرجعاته ، فان قسماً
كبيراً من العالم العربي لم يصبح عربياً الا بنتيجة الاسلام . وبنظر الاقحاح
من عرب شبه الجزيرة يفيد لفظ العربي مدلولاً واضحاً محدوداً جغرافياً ،
وهو لا يطابق المعنى العاطفي الذي يضيفه عليه المتعربون من المصريين
وسكان الشرق الاوسط والشمال الافريقي . حتى أن لفظ (عربي) قد يبدل
أحياناً على البدوي .

ثم ان ابراز الاخوة الاسلامية بخوّل الاسرة السعودية ان تكون لها
علاقات طيبة مع البلاد الاسلامية غير العربية ، القريبة والنائية ، وفي

ذلك نفع عظيم للملكة السعودية وهكذا فان مايميز السياسة السعودية
وسميزها الى زمن بعيد ، هو الاعتماد على شبكة من الاحلاف قائمة على
الصلة الاسلامية . والنتيجة المنطقية لهذه السياسة — قبل تغلغل النفوذ
الاميركي اثر اكتشاف البترول عام ١٩٣٨ — ان تكون الدول ذات
العلاقات المستمرة مع ابن سعود هي التي تحكم مجموعات اسلامية كبيرة مثل
فرانسا وبريطانيا العظمى وهولندا والاتحاد السوفياتي .

وكانت فرانسوا اولى الدول الكبرى في الاعتراف بعبد العزيز بن سعود
ملكاً على الحجاز عام ١٩٢٥ ، وكانت الاولى أيضاً في رفع قنصليتها بجده
الى درجة مفوضية عام ١٩٢٩ . ومنذ ٢٢ أيلول عام ١٩٢٥ عقدت اتفاقاً
تجارياً مع مملكة الحجاز باسم دول الشرق الخاضعة للانتداب . وقد اتفقت
وجهتا النظر السعودية والفرنسية على معارضة المشروعات البريطانية المعروفة
باسم « الهلال الحبيب » و « سورية الكبرى » .

ولكن هذا الموقف المشترك يعجز وحده عن تعليل الصلات الودية
القوية التي كانت تربط بين المملكة السعودية وفرانسا . يجب ان نتذكر
بان عرب الصحراء يمتازون بوفائهم لصدقاتهم ولعداوتهم ، وكان يجلو
للملك عبد العزيز ان يلجح دوماً الى الرسائل المتبادلة بين جده وبين نابوليون
الأول بمناسبة خطط الامبراطور في الشرق . وينوّه (بنوا ميشان) في
كتابه عن ابن سعود بهمة (دو لاسكاريس) مبعوث بونابرت الى سعود
عام ١٨١١ . وبطلب من امبراطور الافرنسيين هاجم الوهابيون تركيا
على جبهتها العراقية ، الا ان هزيمة جند نابوليون قضت على التحالف الفرنسي
العربي . ومهما يكن مبلغ هذه الروايات من الصحة فان اعجاب ابن سعود
بالامبراطور العظيم كان يزي شعوره الودي نحو فرانسا . ونحن الفرنسيين
كانت مصالحنا الجوهرية في ديار الاسلام ، ولا سيما في افريقيا الشمالية وافريقيا
السوداء وفي سورية ولبنان قبل استقلالهما ، تعطي لصلتنا الحسنة مع اسيا
الحجاز قدراً خاصاً .

وإذا كان الممثلون السعوديون في الامم المتحدة يتصدون لنا بمهاجمات خطابية عنيفة، فأغلب الظن انهم يتجاوزون الحدود المعينة لهم من حكومتهم. وقد ظلت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين على خير حال زمناً طويلاً. وعندما وفد الامير طلال شقيق الملك الى فرنسا عام ١٩٥٥، وقدم اوراق اعتماده الى الرئيس كوتي بوصفه سفيراً لبلاده، استطاع ان يطري الاتفاق السعودي الفرنسي المبرم قبل وقت قصير من اجل مسلمي الشمال الافريقي الراغبين في حج البيت الحرام.

وكان يمثل بلادنا في جدة بين ١٩٤٩ و ١٩٥٥ سفير باقعة، عرف ان يؤدي رسالته الصعبة على احسن وجه. ولندكر بأنه خلال تلك السنوات الحرجة كانت التوتوتيسود تونس ومراكش والجزائر، وكانت السياسة الفرنسية موضع نقد شديد من قبل جامعة الدول العربية واعضائها. واستطاع سفيرنا (جورج غه يرو) ان يضطلع بالمهمة الشاقة التي تقتضيه ان يجيب على طلبات الايضاح التي كانت توجهها اليه السلطات السعودية في كثير من الاحيان بصدد التدابير المتخذة من قبل الادارة الفرنسية في تونس ومراكش، وان يتقبل مساعيها. ويطيب لرئيس البعثة الدبلوماسية الفرنسية ان يشيد باللباقة التي كان يتسم بها السلوك السعودي نحوه، وان يمدح عواطف الصداقة التي كان الملك الفقيه يكتنحها لفرنسا. وبعد « الهلال الحصيب » و « سورية الكبرى » تلاقى وجهتا النظر السعودية والفرنسية مرة اخرى حيال قضية اساسية في الشرق الاوسط، وهي عقد حلف بغداد. والنتائج الوخيمة للسياسة التي خلقت هذا الحلف اثبتت صواب معارضة فرنسا والمملكة السعودية لها ثم معارضة زعماء حزب العمال البريطاني.

الا ان الهجوم على بور سعيد في تشرين الثاني من عام ١٩٥٦ افضى آلياً الى انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والمملكة العربية السعودية. واذا كان عيد العزيز بن سعود قد بقي وفيماً لاصدقائه حتى موته، فلم يكن بوسعهم ايضاً ان يجتنب ترايد الهيمنة الاميركية عليه. واول تحول

في سياسته الخارجية جرى عام ١٩٥٠ . وكان الملك العظيم في ذلك الوقت قد فارقه قواه وضعفت ملكاته، فتخلص عن جزء كبير من مسؤولياته لولي عهده . ففي ٣ كانون الاول من تلك السنة اتفقت الارامكو مع المملكة السعودية على اقتسام الارباح البترولية بالمناصفة ، وكانت كمية النفط المستخرجة قد بلغت ٢٦ مليون طن . وحرب فلسطين كانت اصاب الدول العربية بخذلان مريع نجم عنه بحران في الشرق الاوسط كله . ثم كانت قضية البريمي التي طغنت الصداقة الانجليزية السعودية طعنة قاتلة .

وفي مستهل عام ١٩٥١ أمم الدكتور مصدق شركة الزيت الايرانية ، وتوقف انتاج النفط الايراني ، وازداد شأن البترول العربي في اسواق اوربا وسائر العالم ، وتضاعف انتاجه ليعوض في تلك الاسواق نقص ٣٢ مليون طن في السنة .

وفي تلك الآونة بالذات كانت الحرب الباردة على أشدها ، وحرب كورية مستعرة الأوار ، والمنايا موج فيها تيار الوحدة ، وفرانسا تصطرع مع الثوار في الهند الصينية .

كل ذلك كان يقصر المملكة السعودية على التزام موقف معين حيال مشكلات شائكة كان يودها لو ظلت بمنأى عنها . وما دام الملك ابن سعود على قيد الحياة سيبقى الخط العام للسياسة السعودية الخارجية الملاءمة بين الصداقات القديمة وضرورات المشاركة في شؤون العالم الحديث . وعلى ان المملكة البدوية الدينية غير مؤهلة لهذا الدور الجديد ، فانها وجدت نفسها بطبيعة سير الامور مسوقة الى الظهور على المسرح الدولي . ولا يعني ذلك تخليها عن خطتها العربية الاسلامية ، بل على العكس ظلت الأساس الراسخ في سياستها الخارجية والاسلام ، كجامعة تنطوي ضمنها القومية العربية بمعناها العنصري ، سيبقى فوق الخلافات حول نظم الحكم وفوق العداوات القديمة بين القبائل والاسر الحاكمة . الا ان تعارض او تماثل مصالح البلاد المنتجة للنفط او غير المنتجة له سيزيد من تباين الميول السياسية .

وهكذا فان المملكة العربية السعودية قد اصبحت في بضع سنوات حصناً للنفوذ الاميريكي بفضل الدولار ، رغم ما بين الجمهورية الديموقراطية الصناعية الكبرى وبين الدولة العربية المتخلفة من فروق ضخمة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعقائد . ان النفط وحده يستطيع ان يلحم زواجا متفاوتاً من هذا القبيل ، يحرص فيه كل طرف على ان يتدخل بأقل قدر ممكن في ميول الطرف الآخر . على ان قوة اقتصادية عظيمة ، وهي شركة الارامكو ، تنظم العلاقات بين الدولتين وتصيغ ميولها السياسية على احسن وجه يتفق ومصالحها .

والحديث عن العلاقات السعودية الاميريكية هو الحديث عن « دبلوماسية البترول » . والدور الذي نهضت به شركة الارامكو يتبدى واضحا اثناء الحرب العالمية الاخيرة ، في الوقت الذي لم تكن قوتها قد نمت بعد . فالولايات المتحدة ظلت تعتبر المملكة السعودية دائرة في الفلك البريطاني حتى عام ١٩٤٣ . ولكن الارامكو لم تكن راضية عن هذا النفوذ البريطاني العريض ، فعملت منذ ١٩٤١ على اشراك وزارة الخارجية الاميريكية في دساتيرها ، وهدفت اول الامر الى تعميم قانون الاعارة والتأجير على المملكة السعودية . وكانت الولايات المتحدة حينذاك قد اقرضت بريطانيا العظمى ٤٢٥ مليون دولار ، وبذلك استطاعت حكومة لندن ان تستمر في عونها المالي لابن سعود .

يقول فيما بعد رئيس الشركة (فريدريك دفينز) : « كنا مقتنعين جميعاً بأن المال الذي تقبضه الحكومة السعودية من البريطانيين لم يكن في الواقع سوى المال الذي دفعناه لهم . وكان شعورنا في شركة الارامكو ان الولايات المتحدة وليس بريطانيا هي التي يجب ان يعود اليها الغنم . وشعور الشركة هذا قد تحول الى ضغط ومساع لدى الوزارات المختلفة في الحكومة الاميريكية . واخيراً حققت الارامكو مبتغائها ، فقرر الرئيس روزفلت في ١٨ شباط عام ١٩٤٣ ان يمنح الحكومة السعودية حق المساعدة المباشرة عملاً بقانون الاعارة والتأجير . وهكذا رشت الشركة الملك الوهابي بأموال المكائف

الاميريكي ، كما كتب (ادوار سابليه) في جريدة (لوموند) . والى
دبلوماسية الارامكو يعزى الفضل في الاجتماع التاريخي بين الرئيس روزفلت
والملك عبد العزيز ، الذي تم في الاسماعيلية عام ١٩٤٥ على ظهر بارجة
اميريكية . وبنفوذ الشركة في دوائر الحكومة الاميريكية استقبل الملك
سعود استقبالاً حافلاً لدى زيارته للولايات المتحدة خلال شهري كانون الثاني
وشباط من عام ١٩٥٧ .

ان شركة الارامكو قد تبنت شعار شركة (جنرال موتورز) المرتبطة
معا بالمصالح ، ذلك الشعار الذي يقول : كل ما هو حسن بالنسبة الى الشركة
هو حسن بالنسبة الى الولايات المتحدة الاميريكية ...

وبتجسد الوجود الاميريكي في الظهران ، وهي أولى مدن النفط في
الأحساء ، وقد اصبحت منذ عام ١٩٥٢ المركز الرئيسي لشركة الارامكو ،
وهي تشتمل على قاعدة جوية استراتيجية انشأتها الولايات المتحدة واستأجرتها
من المملكة السعودية . وكانت اعمال بنائها قد بدأت خلال الحرب العالمية
الثانية واستمرت رغم انتهاء الحرب عام ١٩٤٦ ، وجهزت بأحدث الوسائل
الفنية . وتقع تقريباً على بعد متساو من كرانشي والقاهرة وبغداد ، اي
انها في مركز قريب من قناة السويس والثروات البترولية السوفياتية في
القوقاز ودولة الباكستان الصديقة الوفية ..

وفي ١٨ حزيران ١٩٥١ جددت الاتفاقات الخاصة بها على صورة رسائل
متبادلة ، واضيف اليها ملحق يتعلق بتمرير الطيارين السعوديين في الولايات
المتحدة ، وتعهدت هذه الدولة ايضاً ان تقدم السلاح الحديث الى الجيش
السعودي . وهذه الاتفاقات هي بالذات التي مدّ الملك سعود أجلها خمس
سنوات اخرى اثناء زيارته الاخيرة لواشنطن عام ١٩٥٧ ، وقال لقاء ذلك
عوناً مالياً كانت خزائنه في امس الحاجة اليه .

وصلات المملكة العربية بجارتها مصر كانت طيبة دوماً ؛ ولم يسافر
الملك عبد العزيز خارج مملكته الا مرة واحدة في حياته ، حين زار الملك

فاروق عام ١٩٤٦ . ولما قامت الثورة المصرية ازدادت هذه الصلات توثقاً . ولقد رأينا سياسة الرياض في السنوات الاخيرة تتواءم اكثر فأكثر مع سياسة القاهرة . وبذلك أظهر الملك سعود على نحو صريح متانة التآمر العربي والاسلامي . وقد سار على نهج أبيه في دعم ميثاق التضامن المشترك بين الدول العربية ، ووقع سلسلة من الاتفاقات مع مصر وسورية والاردن واليمن . وكانت الرياض تقف دوماً الى جانب القاهرة في شؤون توحيد العرب . الا ان سعود يجد نفسه مضطوراً الى التقرب من بغداد عندما يعرض ما يهدد المصالح البترولية للعراق والمملكة السعودية معا .

ومنذ تسلمه العرش قام سعود بفاعلية دبلوماسية ناشطة ، متنقلاً بين العواصم العربية والاسلامية ، ومجتمعاً بزعمائها سواء في الرياض أو بيروت او بغداد او عمان . وبذلك ساهم بنصيب أوفر فأوفر في توجيه سياسة الكتلة العربية .

ولكن هذه الكتلة لا تبرأ من صدوع ، بل ليس هنالك قضية ينمقد عليها اجماع البلاد العربية فيما عدا قضية فلسطين . وازداد هذا الوضع تعقداً منذ عام ١٩٥٥ ، فان حلف بغداد المبرم بين تركيا والعراق قد لاقى اشد الاستنكار من مصر ثم من المملكة السعودية . ولما انضمت بريطانيا اليه في ٤ نيسان ١٩٥٥ ، اثار ذلك حنق المصريين والسوريين والسعوديين . وكانت الباكستان ضمن الحلف عن طريق تركيا ، وانضوت ايران اليه في تشرين الاول ١٩٥٥ مثيرة احتجاج الاتحاد السوفياتي . وعقدت اول جلسة للحلف ببغداد في ٢١ و ٢٢ تشرين الثاني من ذلك العام ، حضرها ممثلو تركيا والباكستان وايران - وهي دول اسلامية غير عربية - والعراق - وهو دولة اسلامية عربية - وبريطانيا - وهي لا عربية ولا اسلامية . وتلا ذلك رد فعل مصري سعودي يتبدى في عقد المعاهدات والاتفاقات بين الدول العربية المعارضة .

ففي ١٧ نيسان ١٩٥٥ طرد الملك سعود المستر فيليبي بتهمة القيام بنشاط

يضر بمصالح الدولة . وفي ٢٥ تشرين الاول وقّعت مصر مع سورية اتفاقاً عسكرياً يجعل قواهما المسلحة تحت قيادة موحدة ، وارتبطت المملكة السعودية بمعاهدة ماثلة مع مصر في ٢٧ تشرين الاول . ولا تلبث الاردن واليمن ان تبرم اتفاقات مشابهة . ويحسن عدم المغالاة في القيمة العملية لمثل هذه الاتفاقات ، ولكنها على كل حال تدل على اتجاهات سياسية معينة .

والانشقاق الذي أحدثه حلف بغداد في الصف العربي يتأكد لدى زيارة الملك سعود للهند في تشرين الثاني « ١٩٥٥ » ، وقد وصل الى هذا البلد بعد ايام من زيارة بولغانين وخر وتشيف له ، وأعرب هناك في مناسبات عديدة عن سخطه على حلف بغداد كما أعرب قبله الزعيان السوفياتيان . وجاء في الميان الرسمي الموقع من سعود ونهرو عقب انتهاء الزيارة ان المملكة السعودية تؤيد رسمياً « المبادئ الخمسة للتعايش السلمي » ، وانها عازمة على تمتين صلاتها وتمكين تعاونها مع الهند . وفي السنة التالية يرد نهرو الزيارة لسعود في الرياض بينما كانت ازمة السويس في اوجها . وكان الملك سعود قد اعلن بعد عودته من دلهي الجديدة عن تصميمه على اقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي ، وليس من شك في ان دبلوماسية الارامكو قد حالت دون ذلك . . اما الاتحاد السوفياتي فقد اعلن في كانون الاول عن تقديمه السلاح الحديث للمملكة السعودية . ولما سئل الامير فيصل عما اذا كان مشتري السلاح السوفياتي لا يؤول الى نشر الشيوعية في الشرق الادنى أجاب : « نحن نشترى الحديد ولا نشترى المبادئ » .

وكان العام ١٩٥٦ عام شوّم على العلاقات بين المملكة السعودية والعالم الغربي . ففي ٢٦ تموز امّمت مصر شركة قناة السويس ، وفي تشرين الثاني حدث الهجوم على بور سعيد . وكانت بريطانيا منذ ٢٥ تشرين الاول من عام ١٩٥٥ قد احتلت بجنودها واحة البريمي التي تعتبرها المملكة السعودية قطعة من ارضها . وفي كانون الاول من عام ١٩٥٥ ايضاً اقتحمت جيوش سلطان مسقط امامة عمان بقيادة ضباط بريطانيين وطردت امامها حليف

السعوديين وبعد معركة حامية من البيانات والبلاغات سحبت حكومة الرياض سفيرها من لندن ، وظلت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين مقطوعة بالفعل حتى شهر مايو ١٩٥٦ . وكانت الحكومة البريطانية تأثرة بوجه خاص على استخدام الذهب السعودي في توجيهه سياسة الشرق الادني ، متهمه الحكومة السعودية ببذل الرشى السخية لنيل مآربها ، كعرض ٣٠ مليار فرنك على احد اليهود في قضية البريمي امام لجنة التحكيم الدولية .

فلما وقع تأميم شركة القناة انحازت المملكة السعودية الى جانب مصر دون تحفظ ، واعلن عاهلها انه يؤيد قرار الرئيس جمال عبد الناصر كل التأييد . وخلال الاشهر القليلة التي تلت هذا الحادث الخطير كان سعود حاضراً في جميع الاجتماعات والمشاورات بين رؤساء الدول العربية والاسيوية . وفي النصف الثاني من شهر ايلول عام ١٩٥٦ تصبـح الرياض مركزاً عالمياً للدبلوماسية العربية والاسيوية . فذا فرغ الملك سعود من استقبال نهرو او جمال عبد الناصر في الرياض ، قصد الى القاهرة للتشاور مع الزعماء المصريين والسوريين ، او الى الخليج الفارسي للتباحث مع فيصل ملك العراق . ذلك ان العاهل السعودي ، رغم دعمه كل حركة عربية ، لا ينسى مصالحه البتروولية ، وحرية نقل النفط عبر السويس باتجاه اوروبا هو امر حيوي بالنسبة الى العراق والمملكة السعودية معا .

وقد اطاح الهجوم الانجليزي الفرنسي على بور سعيد بكل امل لتسوية ودية ، وما لبث السوريون ان عطلوا انابيب نفط العراق المارة عبر بلادهم ، وبذلك افقدوا الدولة العراقية شطراً كبيراً من مواردها . ولكن الدولة السعودية لم تصب بأذى مباشر ، لان انابيب (التابلاين) المحترقة لسورية ولبنان لم يمسهـا سوء ، بيد ان انتاج النفط السعودي قد ضعف مع ذلك بسبب ندرة المراكب التي كانت تحمل البترول من موانيء الخليج الفارسي ، وقد عادت الامور الى سابق مجراها بعد فتح قناة السويس في شهر مايس ، بينما بقي العراق يتكبّد خسائر جسيمة بسبب الانابيب المحتربة وفي مؤتمر

البتروال العربي المنتم ببغداد في تشرين الثاني من عام ١٩٥٧ اقترحت المملكة السعودية ان تصبح انابيب النفط في المستقبل ملكاً للامة العربية . وعندما سافر الملك سعود الى الولايات المتحدة في مطلع عام ١٩٥٧ كان يساوره القلق من انزلاق سورية نحو الفلك السوفياتي (كذا) . وقد استقبل الرئيس آيزنهاور العاهل البدوي لدى هبوطه من الطائرة ، وأوضح له خلال هذه الزيارة (مبدأ آيزنهاور) الشهير ، مدخلاً في روعه انه لا يهدف الا الى مكافحة الحركات الشيوعية الهدامة في الشرق الاوسط . وكانت الدبلوماسية الاميريكية موقنة بنجح مسعاها بسبب تبعية الاقتصاد السعودي والحزينة السعودية للولايات المتحدة . وفي عودته من واشنطن لم يعرّج الملك سعود على لندن ، بل توقف في مدريد والرباط وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة ، واجتمع الى رجالات الدول العربية . وكان قبل ذلك قد تباحث في واشنطن مع الامير عبد الاله ولي عهد المملكة العراقية . وتلقى في القاهرة دعوة لزيارة الاتحاد السوفياتي . ولما عاد الى الرياض كانت سورية والاردن في حالة غليان .

وكان حسين ، ملك الاردن ، يخشى على عرشه من الحركات الانتفاضية الداخلية ، فلقى من المملكة السعودية نجدة غيره منتظرة في شهر نيسان من ذلك العام . ودعم العاهل السعودي بنفسه الملك الشاب حفيد الحسين شريف مكة ، وعاشت بغداد خلال شهر مايس في دفء الوثام المستجد بين آل هاشم وآل سعود ، وذلك اثناء المحادثات بين سعود وفيصل . وُخيل الى الناس حينذاك ان الدبلوماسية الاميريكية بدأت تنجح في عزل جمال عبد الناصر . وكان الملك سعود ، قبل مغادرته واشنطن ، قد امتدح مبدأ آيزنهاور من أجل الشرق الاوسط . ومن المؤكد ان تصريحه هذا قد شجّع الشيوخ الاميريكيين على التصويت للمبدأ ، ولكن ذلك لم يمنع سعود من التنكر له حين بدا له فشله المحتم اثناء الازمة السورية التركية في تشرين الاول ١٩٥٧ ، تلك الازمة التي عرض وساطته لحلها فرفضت .

ومهما يكن الامر فان البلاغ المشترك السعودي الاميريكي ، المعلن في ٨ شباط ١٩٥٧ عقب نهاية المحادثات بين آيزنهاور وسعود ، يظل ذا شأن هام جداً ، فهو يشير بصراحة ووضوح الى تصميم البلدين على زيادة التعاون الوثيق بينهما ، ويكشف البند الأول من البلاغ عن رأي الولايات المتحدة في دور المملكة السعودية على مسرح العالم . يقول البلاغ : « ان المملكة السعودية ذات شأن حيوي في الشرق الاوسط بسبب مكانتها الروحية والجغرافية والاقتصادية . ومن مصلحة السلم العالمي تثبيت دعائمها ، من أجل صيانة استقرارها وحماية التطور التدريجي لنظمها » .

وتعبير «حماية التطور التدريجي للنظم» يحتمل التأويل .. ، وفي الظرف الراهن يسترسل سعود في شهوة المظاهر الخلابية والرحلات ، حتى دعي بالبدوي الطائر . ولقد وفر في نفسه ان كل ما يتصل بالبلدان العربية يجب ان يرجع الحكم فيه الى جلالته المعظمة ولكن شعبه في اثناء ذلك يتلهب من الحقد ، ورغم غلبة الامية والتخلف على القسم الاعظم من رعاياه ، فان نفوسهم تتشبع بمجائر الثورة والتحرر الفردي والجماعي التي تهيج الشرق الادنى كله .

وبينما يتابع سعود صعوده على المسرح العالمي ، تتراكم عوامل النقمة في بلاده . وأعمال القمع والقهر التي يلجأ اليها دون مرحمة تتوع النفوس بالكرامية لنظام الحكم القائم . والعمال خاصة لا يفصلون بين رغباتهم المهنية والاماني القومية العليا ، ولقد رأينا العمال العرب في شركة الارامكو يهددون بنخریب منشآت النفط في حالة هجوم تركي على سورية ، إبان ازمة تشرين الاول عام ١٩٥٧ . فلاغرو أن يقلق الملك السعودي حين يرى ان جماعة قليلة ، تصدع لاورامر من الخارج ، تستطيع في كل لحظة ان تحد من سلطانه بقطع موارده البترولية . ذلك هو الوجه الآخر من القومية العربية التي تعمل على توحيد الوطن العربي بطريق الشعب ضد الحكام .

في احدى ردهات الجامعة الاميريكية ببيروت ، وفي مثل هذا الشهر قبل ثلاثة اعوام ، وقف رجل مرموق المنزلة يتحدث الى جماعة متخيرة من الميرين عن مشكلات الأمة العربية وطرق معالجتها واسمحو لي ان اکتسم الآن اسم هذا الخطيب . ولأنقل لكم اولاً كلماته الذهبية .

قال الرجل الخطيب :

« ... ان اول مشكلة تجابه الامة العربية هي مسألة تعريف الكيان العربي وضمن تحريره واستقلاله . فالامة العربية التي يجب ان نفهمها جميعاً ويجب ان يفهمها الجيل الصاعد هي كل الشعوب والافراد الذين ينطقون بالعربية ويؤمنون بتاريخ العرب ويتقفون بثقافتهم ، كما ان اية بلاد تسكنها اكثرية عربية هي بلاد عربية ومن مجموعها يتكوّن الوطن العربي الاكبر الذي يجب ان ينشأ كل عربي على معرفته وتقديسه وبذل النفس والنفيس في سبيل الذود عن حريته واستقلاله .

وتفرع عن مشكلة الكيان العربي عدة مشا كل فرعية كلها خطيرة للغاية . الأولى هي مشكلة الاستعمار الذي اقتطع اقطاراً عربية بكاملها ووضعها تحت سيطرته ، على ان معظم هذه الاقطار العربية التي ترزح تحت نير الاستعمار اخذت تجاهد في سبيل حريتها وانطلاقها من النير الاجنبي . ولاشك في ان اعظم قضية تضرب الكيان العربي في الصميم هي كارثة فلسطين التي بليت بالعدوان الصهيوني الفعاش فهذه الكارثة دالت بصورة

قاطعة على ما ينتاب جسم الامة العربية وروحها من امراض وبرهنت على مواطن ضعفنا نحن ابناء الامة العربية في الداخل والخارج . ان قضية فلسطين تلقي على كاهل المرابي العربي تبعات خطيرة يجب ان يستقل بها عاملاً على رفع ما انتاب امته من ظلم وحيف وعار . .

ومن المشاكل التي تمس الكيان العربي العام هي تنشئة الجيل العربي الجديد تنشئة اقليمية ضيقة كأن الكيانات السياسية التي أوجدها الاستعمار وقطع بها أوصال الامة العربية هي كيانات مقدسة دائمة . والحقيقة ان الكيان العربي العام هو وحدة مادية وروحية ، وان هذه الوحدة يجب ان تصبح هدفنا الدائم الذي لا يتضارب مع جهادنا المتواصل ضمن الكيانات القطرية القائمة الى ان تتهيأ الظروف لتأسيس نظام اتحادي فيدرالي بين الاقطار العربية كافة .

والمهم في نظرنا هو ان لانسى أن وطننا العربي هو ليس الحدود الضيقة التي نعيش فيها في كل قطر من أقطارنا وأن الاتحاد هو من الاهداف الاساسية المقدسة لكل منهج تعليمي يقوم في البلاد العربية . فيجب أن نعمل على ازالة الحواجز بين البلاد العربية من أفكار الناس وعقولهم لكي نقضي على الحواجز القائمة والمتزايدة بالفعل بين بلد عربي وآخر . انه مما يؤلم القومي العربي أشد الألم أن يرى أنه مضطر الى ان يتوقف ثماني مرات في سفره بين عمان وبيروت في العهد الوطني بعد أن كان يمر بسهولة في أيام الاحتلال الاجنبي .

والكيان العربي يتكوّن من الأفراد ، والامة بأفرادها كما وكيفا . فان أمة صغيرة كسويسرة هي عظيمة لمزايا أفرادها ومستواهم الخلقى والسياسي والصحي والاقتصادي والثقافي . وامرائيل الغاصبة رغم أنها تضم أقل من مليوني نسمة تتحدّى كل الدول العربية المحيطة بها والبالغ عدد نفوسها نحو أربعين مليوناً . إذن فالكيان العربي يتوقف على تكوين الفرد العربي . والفرد العربي تعيش أكثريته في مستوى معاشي دون المستوى الانساني ومعظمهم حفاة وشبه

عراة وكساؤهم في حالة بدائية . ولا تسأل عن الجهل والمرض والحرافات
 والتعصب الطائفي والعداوات القبلية والعائلية والازدراء بالحياة ولا سيما
 حياة المرأة ، فهذه كلها أمراض تفتك بالأفراد وبالتالي بالكيان العربي العام .
 لا يجوز لنا إذن أن نتباهى بعدد نفوسنا ونعتبر هذا العدد قوة فالاربعون
 مليوناً واكثرهم فقير وجائع وأمي ومريض وجاهل لا يستطيعون أن
 يجابهوا مليون شخص أصحاء الجسم مثقفين منظمين منتجين حسب أحدث
 الاساليب والمخترعات العلمية . حقاً ان احترام كيان الفرد العربي وتنشئته
 على الحرية وتحمل المسؤولية والعمل التعاوني المنتج لمن الامور التي توطد
 الكيان العربي أحسن توطيد ، وهنا تقع المسؤولية الأولى على عاتق المربين .
 ومن المشاكل التي تجابهها الأمة العربية اليوم مشا كل الحكم ان نظم الحكم
 تختلف باختلاف الأقطار العربية ودرجة تأثيرها بالعالم العربي الحديث ، فهناك حكم
 قبلي وهناك حكم ديني وهناك حكم عسكري وهناك حكم مدني . ولا يخلو أي نوع من
 انواع الحكم هذه من مواطن الضعف ومن المشاكل . ولو تساءلنا لم يقوم
 الحكم العسكري في بعض البلاد العربية لكان جوابنا فوراً أنه نتيجة
 لموض الجسم المدني ، فلوصح الجسم المدني في بلدها لما تعرض الى رجات
 عسكرية من الداخل ولما خرج الجنود من ثكناتهم لممارسة السياسة .
 والحقيقة ان ما يجب ان يفكر فيه المرابي العربي هو تنشئة جيل يعرف
 كيف يحكم نفسه بنفسه وهذا يتطلب الشيء الكثير من تحمل المسؤولية
 وضبط النفس ومكافحة الأنانية والمحسوبية وسوء استعمال المنصب . يحسب
 البعض أن النظام الديمقراطي في الحكم هو نظام الأهواء الفردية وان الحرية
 الفردية فيه مطلقة فهؤلاء مخطئون كل الخطأ لان النظام الديمقراطي السليم
 يؤمن بالحرية المؤسسة على شعور تام بالمسؤولية ومقدار كبير من ضبط
 النفس . وهنا تأتي مهمة التربية وواجبها . زرت تركيا سنة ١٩٣٧ يوم كان
 يحكمها المغفور له أتاتورك حكماً أوبياً دكتاتورياً . وتفقدت مدارسها
 وذات يوم كنت أتحدث مع أستاذ أميركي فسألني عن معارف تركيا فأجبت

أنها معامل للديمقراطية واني أتوسم ان يحسن الجيل القادم في تركيا ممارسة النظام الديمقراطي في الحكم لأن المدارس توجه الشباب الى هذا النمط من الحياة . وهكذا كان . فتركيا استطاعت ان تنتقل من النظام الدكتاتوري الى النظام الديمقراطي الحزبي بدون رجعة ولا ضجة .

ومن المشاكل التي نعانيها في البلاد العربية ذات الحكم المدني ، المركزية الزائدة والبوروقراطية وقلة الكفاية والمقدرة لدى رجال الحكم . وهنا لا يستطيع التعليم اكثر من ان يزيد في درجة الثقة المتبادلة وتحمل المسؤولية لدى الأفراد كما يزيد في كفايتهم بحيث لا يحتاجون الى الرجوع الى مافوقهم في كل صغيرة وكبيرة . ولعل اكبر مشكلة من مشاكل الحكم في البلاد العربية هي قلة الاستقرار ، فتبدل الوزارات وتغيير الفئات الحاكمة سريع في البلاد العربية الى درجة تتضرر معها المشاريع الانشائية وتضعف المسؤولية ويكثر الاستغلال . وعدم استقرار الحكم ناتج عن عوامل عدة منها ضعف الحاكمين وعدم ارتكاز سلطاتهم على دعائم راسخة ومنها عدم صلاح حكمهم ومنها ضعف ضبط النفس وقلة الشعور بالمسؤولية لدى الحاكمين والمحكومين معاً .

ومن المشاكل الأساسية التي تجابه الأمة العربية اليوم المشاكل الاقتصادية فنحن في اقتصادياتنا لا نزال نعيش عيشة ما قبل العلم ، ولا يزال المستوى المعاشي لعامة الشعب دون المستوى المطلوب . فسيرنا في سبل تطبيق الزراعة الحديثة والصناعة الحديثة والتنظيم التجاري الحديث بطيء ، بل لا تزال معظم أساليبنا الانتاجية في حالة بدائية ولا يزال التبذير في الصرف والتراخي في ضبط الحساب وسوء توزيع الثروة من المميزات البارزة للاقتصاديات العربية اليوم . وطالما سمعت من مفكرين أجانب عن الامكانيات الهائلة التي تتوافر للبلاد العربية من وراء واردات النفط ، فحسبوا لو استثمرت الامة العربية موارد النفط استثماراً منظماً لخير الجميع ورفاههم . إننا لا نزال نختصر العمل اليدوي ولا نكثر من استعمال الآلة وهنأنا أن نتمتع بالراحة والرخاء

الذين تيسرهما المدنية بلائمن ولا مقابل من الجهد والاتقان . ومن المشاكل الاساسية التي تعانها البلاد العربية اليوم مشكلة توزيع الاراضي الزراعية على أساس العدالة والانصاف . فتكوين عقلية اقتصادية حديثة وخلق رجل منتج على الأساليب الحديثة يحسن استعمال الآلة ويعتمز بالانتاج ويفتخر بالكد والتعب في سبيل تزايد ثروة الامة المادية والمعنوية هي من اولى واجبات المرابي العربي .

ومن المشاكل التي تعانها الامة العربية والتي تلقي واجبات ثقيلة على عاتق المرابي هي المشكلة الصحية ، فالمرض وقلة التغذية وانعدام الرياضة المنظمة لدى عامة الشعب من الامور المعروفة . فعلى المعلم ان يعنى قبل كل شيء بصحة طلابه فلا يفيد العلم كثيراً إذا كان الجسم معطلا . قد يقول البعض ان في الامة العربية نفرأ من الابطال الاصحاء والرياضيين الممتازين فنجيبه ان العبوة ليست بالافراد القلائل بل بمجموع الشعب . فالشعب كله يجب ان يكون صحيح الجسم نشيطاً نظيفاً . وامحوي ان اصرّ على النظافة وان أوكدها لعلاقتها بالصحة من جهة وعلاقتها بالذوق العام من الجهة الاخرى . وصحة الجسم ونشاطه بعد معالجة الامراض والاسقام يتطلبان الرياضة المنظمة التي تلازم المرء طوال حياته . واكبر دليل على فشل تربيتنا الرياضية انني لو وجهت سؤالاً الى حضراتكم عن ممارس منكم رياضة معينة بصورة منظمة لوجدت النسبة ضئيلة (وأرجو ان اكون مخطئاً) . الحقيقة اننا نتروّض في ايام الدراسة ونهمل الرياضة حال دخولنا معترك الحياة . فهذه نقطة ضعف في تربيتنا يجب معالجتها . ولو تذكرنا الترابط الموجود بين نواحي الحياة لعلمنا ان لاعتلال الصحة علاقة مباشرة بالقوة الانتاجية للامة ولذلك كانت الحلقة المفرغة بين الفقر والمرض فحيث يسود الفقر يسود المرض وحيث يسود المرض يسود الفقر . كذلك ان للصحة علاقة مباشرة بقوتنا الدفاعية ومن هنا فان كيان الأمة يتوقف من حيث الاساس على القوة الصحية في افرادها .

ومن مشاكل الامة العربية الاساسية المشاكل الاجتماعية . فالامة العربية لا تزال تسود فيها نظم اجتماعية هي من مخلفات القرون الوسطى أو من مخلفات الحياة القبلية ولا تزال معاملة المرأة لدى اكثرية أبناء الامة العربية كما كانت في العهود المظلمة . وهناك فئات احتكت بالغرب فجاءت بتفكير غربي وبما يحويه هذا التفكير من صراع في الأساليب الاجتماعية . وأول ما ينجس منه هو هدم البناء الاجتماعي العتيق بدون اعداد تصميم لبناء اجتماعي جديد ، فالحياة الزوجية اليوم قد أصابها الوهن وكثيرون من الشبان يعزفون عن الزواج لان تكاليفه وتبعاته أصبحت ثقيلة ، ولان الفتاة أصبحت تنافس الشاب في ارتياد الملاهي وتعاطي الدخان والكحول . ومن الظواهر الاجتماعية الخيفة الانتقال من الحياة القبلية أو حياة القرون الوسطى الى تفكير هدام يخلق البغضاء والصراع بين الطبقات ، أعني به الشيوعية ، ولعل الرجعية هي المسؤولة الاولى عن انتشار الشيوعية ، فالشيوعية هي ابنة الرجعية وربيبته . تصوروا جماعات كبرى من أبناء الامة تعيش في حالة البؤس والفقر وان نفراً قليلاً يصرفون مئات ألوف الدنانير على طاولات القمار وفي الملاهي ، الا يخلق هذا الوضع تربة خصبة للشيوعية الهدامة . إن هؤلاء الأثرياء لو ربوا تربية صحيحة أصرفوا معظم ثروتهم في المشاريع الخيرية العامة ولعملوا على رفع مستوى الحياة في بناء امتهم بدل ان يصحبوا عوامل هدم وتبذير في كيان مجتمعهم . وهنا تترتب على المرابي مسؤولية كبرى في تنشئة جيل يحسن العمل في المنظمات الاجتماعية ويقدم الخدمات والتبرعات ولو كانت ضئيلة عن طريقها كما ان واجب المدرسة ان تنشئ الطلاب على وسائل التسلية النافعة والفنون الجميلة لتملاً أوقات فراغ الافراد بها بدل ارتياد الملاهي وطاولات القمار . وإن ساعة تقضى في الموسيقى والرسم والنحت وترتيل الشعر الجميل هي خير من الف ساعة تقضى في الملاهي حيث تهدم الكحول صحة الاجسام وصحة العقول .

ومن مشاكل الامة العربية الاساسية مشكلة الخلق والسجية .
فالعروبة أخلاق قبل كل شيء . ولكن كيف حال أخلاق العرب اليوم ؟
لننظر اليها : ألا نشاهد ضعفاً في الامانة وزيادة في الحيانة ؟ هل نصدق في اقوالنا
وأفعالنا أم أن الكذب والغش قد تفشيا تفشياً فتاكاً في جسم الامة ؟ هل
نشهد بالحق ونحميه أم ان شهادة الزور تباع وتشترى كالسلعة ويضيع الحق
وأهله ؟ أليست الرشوة عاملاً من عوامل الهدم في المصالح الفردية والعامّة
من حياتنا اليومية ؟ هل لدينا مناعة ضد التجسس وخدمة النفوذ الأجنبي
أم هناك من يبيع الوطن بدريهمات معدودات ؟ إن الطيب يحتاج الى
اخلاق فلا يستغل مريضه والمهندس يحتاج الى اخلاق فلا يغش في صنع
طريق سرعان ما يتحفر او بناء سرعان ما يتهدم ، والمحامي يحتاج الى اخلاق
فلا يدافع الا عن الحق ، والحاكم يحتاج الى اخلاق فلا يحكم الا بالعدل ،
والتاجر يحتاج الى اخلاق فلا يغش فيما يبيع ، والجندي يحتاج الى اخلاق
فيضحي في سبيل بلاده ويكتم اسراره العسكرية ، والسياسي يحتاج الى
اخلاق ليتحمل المسؤوليات ويكون شجاعاً عند الملمات ، والعامل يحتاج الى
أخلاق ليؤدي عمله بأمانة و اتقان . اذن فالاخلاق هي الاسمنت الذي يقوم
عليه بناء الامة فاذا كان هذا الاسمنت مغشوشاً وفساداً فانذر الامة بالانهيار .
ولا حاجة لان أوكد لكم ان اكبر محنة تجاهاها الامة العربية اليوم هي المحنة
الاخلاقية . نريد اخلاقاً ، نريد امانة ، نريد صدقاً ، نريد اعتماداً على النفس
وتحمل مسؤولية ، نريد روحاً تعاونية ، نريد عزيمة ، نريد تضحية ، نريد
شجاعة ، نريد ضبط نفس وصبراً . هذه بعض السجايا الاخلاقية التي يجب
ان تكون في مدارسنا وهذه اكبر مهمة تجاهاها المرابي العربي . اجل ان
تكوين الاخلاق وتكوين الذمة والضمير هما اول واجبات المرابي العربي .
فلا تحيا امة ماتت ذمم افرادها وضمائرهم .
وربما كانت المشكلة الروحية اكبر مشكلة اساسية في حياة الامة

العربية فلا جدال في ان هناك ازمة في الحياة الروحية بين الناس . فقد طغت المادية والتشكيك الى حد انقطع به الكثيرون عن الاتصال بخالقهم . وهنا الطامة الكبرى ، فلا استقرار نفسي لامة لا دين لها ولا طمأنينة لفرد غير متدين . وان انغماس المرء في المادية وظلامها قد يخلق مجتمعاً شقيماً مضطرباً وفرداً لا يردعه عن المنكر الا خوف الحاكم والبوليس فاذا غاب عن نظاره الحاكم والبوليس أتى بكل منكر . فخافة الله معدومة لديه . وفي الحقيقة ان اكبر ما يميز الانسان عن الآلة الميكانيكية هو حياته الروحية وهي أثن ما في الانسانية من النعم اذ بها يشعر الانسان انه مواطن حر في عالم الأبدية ، فالوجود مفتوح أمامه ولا حد للزمان ولا للمكان عنده . وفي رأبي ان المادية وتمثلها الشيوعية اليوم تحرم الانسان من انسانته وتعود به الى الكيان البهيمي الآلي . والأمة العربية أمة متدينة قدمت للبشرية تراثاً روحياً ثميناً هو التراث الاسلامي . فواجب المرابي اذن ان يعنى بالتربية الروحية بأسمى معانيها . هناك مشكلتان يجابهها المرابي في معالجة التربية الروحية وكلاهما ليستا من الدين في شيء بل على العكس انهما والدين على طرفي نقيض : الاولى هي بعض الآراء الخرافية والاعمال غير الصحية التي ينشرها بين عامة الناس الدجالون والمشعوذون باسم الدين ولا حاجة للقول ان الدين براء من هذه الآراء الخرافية وهذه الافعال غير الصحية فعلى المرابي ان يدخل الناس في حياة روحية سامية ويقيه من آراء خاطئة وافعال ضارة تحيط به باسم الدين . والمشكلة الثانية هي المشكلة الطائفية التي قنشر التفرقة والبغضاء بين ابناء الامة الواحدة ولا حاجة للقول بأن الطائفية والدين على طرفي نقيض فالدين ينشر الوحدة والمحبة والاخاء والرحمة والتسامح بين ابناء الامة جميعاً ، بينما الطائفية تبث التفرقة والكراهية بين ابناء الأمة الواحدة ، وليس أدل على ان الطائفية ليست من الدين من قوله تعالى في القرآن الكريم « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » .

ومن المؤسف ان بعض البلاد العربية منيت بحياة سياسية مؤسسية على اسس طائفية فيجب ان ينشأ الجيل الجديد تنشئة تقوم على القضاء على هذه الاحوال وان يعرف جيداً بان الفرص المتساوية والاخوة القومية والشعور الانساني العام هي جوهر الدين وليست الطائفية من الدين في شيء . وهنا تعترضنا مشكلة تعليم الدين لابناء الطوائف المختلفة . نحن من القائلين بان على ابناء كل طائفة ان يمارسوا عبادتهم وان يتعلموها مع احترام عبادة الآخرين ومعتقداتهم فلا يصبح الدين مشكلة من مشاكل التعليم ويجب ان يفهم بان التسامح والاخاء والمحبة والرحمة هي المظهر الحقيقي لكل دين صحيح .

ان صائغ هذا الكلام الجميل ، أيها السادة ، هو مرب عريق ووزير خارجية ورئيس مجلس نواب ورئيس مجلس وزراء في المملكة العراقية المنهارة . ولو قلت لكم أنه الدكتور فاضل الجمالي لحسبتم أنني اهزل أو أهرف ، لما بين الأقوال والأعمال من تناقض صارخ .

والواقع انه فاضل الجمالي .

وكم أحب ، أيها السادة ، ان تأخذ المحكمة الشعبية ، التي شكنتها حكومة الثورة العراقية ، السيد الجمالي بأقواله ، فتسأله هل كانت لديه « مناعة ضد خدمة النفوذ الاجنبي » عندما شارك في ربط بلاده الى ذيل بريطانيا والولايات المتحدة ، الدولتين المستعمرتين - وهو عدو الاستعمار ! - صانعي اسرائيل - وهو خصم الصهيونية الباغية ! - .. ؟

وكم أحب ، أيها السادة ، ان يسأل الجيش العراقي الأبي الذي قام بثورة ١٤ تموز الماضي ، كم أحب ان يسأل هذا الجيش السيد الجمالي اذا كان لا يزال يرى « ان قيام الحكم العسكري هو نتيجة مرض الجسم المدني ؛ فلو صح الجسم المدني في بلد ما لما تعرض الى رجات عسكرية من الداخل ولما خرج الجنود من ثكناتهم لممارسة السياسة » ؟ ! .

الحقيقة ، أيها السادة ، أن الجمالي معروف في العراق بأنه خيدع عتيق ، مارس هذه البهلوانية في اللفظ وفي السلوك منذ نشأته الاولى .

فمنذ ربع قرن تقريباً - على ما اذكر الآن - ألف الكاتب العراقي الكبير زنون أوب قصة بعنوان « الدكتور ابراهيم » .

وقد علق بذهني من هذه القصة الماتعة ان الدكتور ابراهيم هذا كان شاباً « متأمركا » تخرج من جامعة بيروت ثم من جامعة كولومبيا ، وشغل في وزارة المعارف العراقية وظائف استاذ ومفتش ومدير عام .

وكان ابوه « ملا » من مشايخ الطرق ، وفد من بلاده افغانستان او ايران ، وطلق يمشق على عقول السذج من الاشباع حتى اقتنعوا بولايته وآمنوا بيوكاته ففتحوا له قلوبهم وجيوبهم . وتربى ابنه على خلق أبيه ، وبرع بالدجل والمصانعة ، فانتفى الى جمعية الشبان المسلمين على انه مؤمن ووع الى جمعية الشبان المسيحيين بحكم زواجه من كندية او اميريكية - لم أعد أذكر - ، وتبنت العقائد اليسارية واليسينية معاً ، وأرضى المستعمرين والوطنيين ، والجمهوريين والملكيين ، والديموقراطيين والفاشين ، والقوميين والشعوبيين ...

وما كادت رواية « الدكتور ابراهيم » تخرج الى الناس حتى عرف العراقيون فيها الدكتور فاضل الجمالي . وانتقم المرابي الكبير من المؤلف - وكان حينذاك معلماً صغيراً - فنفاه الى قرية نائية ..

حسبي وحسبكم ، ايها السادة ، هذه التأملات العابرة عن فاضل الجمالي ، ولندعه في السجن يرتقب حكم القضاء .

اما نوري السعيد ، فكفاه فخراً - ولا فخر بعد الموت - ان المؤلفات الأجنبية جميعها تدعوه بصديق بريطانيا الحميم ورجلها الوفي المخلص . والمؤلفون الفرنسيون يستعملون للدلالة عليه تعبير (L'homme lige del'Angleterre) ولا أجد ترجمة لهذا الوصف في لغتنا الا كلمة المولى او التابع او العبد .

ولعل الناظم الوحيد المشترك بين نوري السعيد والامير السابق عبد الاله هو هذا الثبات الأبكم في طاعة الاجنبي والولاء له . وفيما عدا ذلك فالرجلان متعارضان في المصالح وفي المطامع . كلاهما اراد ان يجعل من العراق

مزرعة له يستثمرها على هواه . والتنافس بينهما ليس أقل أو أكثر من
التنافس بين زعيمين من اذكياء اللصوص .

ثبات في خدمة الأجنبي يلازمه وينجم عنه تأييد مطلق من ذلك الأجنبي .
هذا هو سر هيمنة نوري السعيد على مصائر شعب العراق وأمواله منذ ١٩٢٢
حتى ١٩٥٨ . كان لا يترك قيادة الجيش ووزارة الحربية الا ليصبح رئيساً
للوزراء او وزيراً للخارجية او للدخالية ، حتى ليتمكن القول بأن تاريخ
العراق فيما عدا فترات قصيرة منه كان صراعاً مكشوفاً او مستتراً بين
رجل واحد وشعب كامل .

كانت الحزينة العراقية نهباً لنوري سعيد وآله . استمعوا الى هذه القصة
التي كان بطلها صباح ابن نوري السعيد قبل اثنين وعشرين عاماً ، تلك القصة
المضحكة المبكية التي يرويها الاستاذ عمر ابو النصر في كتابه (العراق الجديد)
المطبوع عام ١٩٢٧ :

يقول الاستاذ المؤلف في معرض نقده لوزارة المرحوم ياسين الهاشمي :
« لقد حلق هذا الشاب -- صباح نوري السعيد -- الموظف في سلاح
الطيران العراقي في طيارته بغير ما أمر من رؤسائه ، فلم يحسن التحليق في
الجو فسقط الى الارض وأصابته جراح نقل على أثرها للمستشفى .

ولما كان السيد صباح ابن وزير الخارجية وابن أخت وزير الدفاع
المرحوم جعفر باشا العسكري فلا بد من ان تكون نفقات مداواته على
حساب دافع الضريبة العراقي ، ليس في العراق فعسب وانما في أوروبا أيضاً
اغراقاً من الوزارة بالعناية بصحة الجريح ، ولما كان القانون لا يجيز مثل
ذلك قررت الوزارة ان تصرف للجريح ما يحتاج من المال على حساب التشريع
الحاص الذي ستصدره لهذه الغاية ، وبناء على ذلك اقترح وزير الدفاع خال
الجريح على مجلس الوزراء بكتاب رسمي ارسال ابن اخته الى لندن ليعالج
على حساب الحكومة العراقية مع حاشية كبيرة مؤلفة من والده ووالدته
والجراح الاختصاصي في المستشفى الملكي ببغداد ، وزوجته وممرضة

وأشخاص آخرين ، ووافق مجلس الوزراء على هذا الاقتراح ، وطار الجريح
فعالاً مع حاشيته الى لندن ، والى القاريء اللاتحة الرسمية بالمصروفات التي
صرفتها وزارة الدفاع ، فان فيها ما يطرب ويعجب ويؤسف .. ،
ويورد المؤلف بنود القائمة التي جمعت ٢١٢٨ ديناراً ، وفي ضمنها ٦٠ ديناراً
أثمان شهبانيا ..

ثم يعقب قائلاً :

« واذ علم القاريء بعد كل هذا ان صباح السعيد قد ركب الطائرة
العسكرية بصورة خاصة ، وانه لم يكن يقوم بعمل حكومي في الوقت
الذي سقط فيه ، وانه ارتكب عدة مخالفات عسكرية في ركوبه الطائرة
وتحطيمها ، وانه لو كان من الاشخاص العاديين لما بالت الحكومة به ، ولا
أنشأت له تشريعاً خاصاً ، أدرك ان الوزارة السابقة قد اخطأت خطأً
فظيحاً في اقرارها هذا التشريع .. واظن أنني قد استسيع ان اضم كل بند
من هذه المصارفات الا هذه القبضة من الدنانير التي صرفت على الشهبانيا ،
فانها في الواقع مرة شديدة المرارة !! .

ذلك ان في العراق شيوخاً ورجالاً وأطفالاً يموتون جوعاً اوبكادون
وهم في الواقع أحق بهذه الدنانير يردون بها عادية الموت عن انفسهم ،
ويتبلمعون بواسطتها بعض الاطعمة الضرورية لحياتهم وحياة ذويهم .. ،
لقد كان نوري السعيد من بطانة الملك فيصل الكبير . ومن يدري ؟
اعله كان مفروضاً عليه فرضاً ..

وهذه مناسبة حسنة لأن نعمل المبضع في شخصية فيصل العظيم على ضوء
الواقع والامكان من جهة ، وباستناد الى الاهداف والنوايا من جهة اخرى .
فلقد كثرت اللغط - قبل قيام الثورة العراقية الاخيرة بسنوات -
حول موقف فيصل الاول من القضايا العربية الحيوية . وأقل ما قيل فيه

انه عميل لبريطانيا وأجبر للصهيونيين (١) .
وبما لا ريب فيه أن فيصل العظيم اضطر أحياناً كثيرة الى ملاينة
البريطانيين لقاء الفوز منهم بما يعود على العراق وعلى الأمة العربية بأكبر
المكاسب ؛ حتى انه عبّر في حفل تتويجه عام ١٩٢١ عن حاجة العراق الى
مساعدة أمة تقدمه بأموالها ورجالها ، وقال ان بريطانيا هي اقرب الامم للعرب
وأكثرها غيرة على مصالحهم

ونحن لانجد لتبروته فيصل العظيم خيراً من شهادة نبي القومية العربية في
العصور الحديثة الاستاذ ساطع الحصري .

يقول الاستاذ الجليل في كتابه « صفحات من الماضي القريب » :
« لقيته - أي فيصل - لأول مرة في دمشق ، عقب عودته من مؤتمر
الصلح في باريز ، استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الاميركية . ولا أزال
اذكر تفاصيل تلك الملاقاة ، بكل تفرعاتها وجميع انطباعاتها . . .
ان العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة كان مقدراً لها ان تستمر
وتتوطد بدون انقطاع ، مدة تزيد على اربعة عشر عاماً ، بقيت بجانبه

(١) تلي في المحكمة العسكرية العليا الخاصة في بغداد في مطلع تشرين الثاني ١٩٥٨
مستند مؤرخ في ١٥ كانون الثاني ١٩١٩ بخط فيصل الاول وهذا نصه :
« ديوان الامير . اعترافاً بالجميل ووفاء بالعهد فان واضع اسمه فيصل بن حسين وفائد
الجيش العربي حالياً يقول ان المعاملات والمعاقبات المادية والمعنوية التي رأيتها من الامة
البريطانية الى ساعة تاريخه تجبرني على تحرير هذا اجباراً معنوياً تصديقاً بقوله تعالى ان العهد
كان مسؤولاً ، وعليه اشهد واشهد الله على نفسي اني لا أحميد عن محبتها ورسالتها وأوصي
كل عربي يدين لله حق دينه وله شرف وعهد ان يتبع خطي هذه وهي مصادقة الكتترا
مادامت السموات والارض ومادامت تلك الامة ملازمة لصداقتنا . وقد أوصاني والذي بهذا
وأوصي بها ابنائي وذوي ، والله خير وصي . وقد تحرر هذا في يوم الثلاثاء الموافق ١٥
كانون ثاني عام ١٩١٩ بباريس . التوقيع ابن الملك حسين وقائد جيش العرب فيصل »
وبافتراض صحة هذا المستند فانه لا يدل الا على الخداع العرب كهم في ذلك التاريخ
بالسياسة البريطانية ، ولم تكن بريطانيا حتى ذلك الوقت قد كشفت عن مآربها المبيتة ،
وكان التفاؤل بصداقتها يعسر قلوب القوميين العرب في كل مكان .

وعملت في معيته حتى أواخر أيام حياته ، فاطلعت على دخائل نفسه في ظروف متنوعة ، وتبينت خصاله بكل تفصيل وبكل تأكيد .
رأيته في أشد ثورات الغضب ، وأعمق حالات الرضى ؛ عاشرته في اتساع أيام الحبسة واسعد سني الفوز ، رافقته في اخرج ظروف حياته ، وفي ابرج أيام نجاحه . . .

... ونظراً الى كل ملاحظته في هذه الظروف المتنوعة ، خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بأنه كان يمتاز بحصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معني الكلمة .

انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة كان يتمتع بحبوية شديدة ، وفعالية لانعرف الكلل . وكان قادر المثل في روح المثابرة وفي شيمة التعقيب . وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة ، تدفعه الى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه عند الاقتضاء .

ان اجتماع هذه الأوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل ، جعل حياته مثلاً رائعاً للتطور الدائم ، والتقدم المستمر ، والارتفاع السريع ، كان كل يوم له احسن من أمسه بدرجات كبيرة ، فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً . وكان من سوء حظ الأمة العربية ، ان شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كانت شخصيته السياسية وصلت فيه الى أقصى درجات النضوج وأشد حالات التوهج . وفي الوقت الذي اصبحت فيه الأمة احوج ماتكون الى خدماته . . .

.. انه كان شديد المرونة في سياسته الداخلية والخارجية ، وسريع التكيف مع ما تقتضيه الظروف المتتالية ، كما كان شديد المرونة وسريع التكيف في حياته المادية .

وهذه المرونة الشديدة ، كان يمكن أن تصبح من النقائص التي تضر بالصالح العام وتعيق التقدم والنجاح . . . لو لم تكن مشفوعة بمخصلتين مهمتين : شدة

الحيوية وحرارة الوطنية .

ان سياسة « خذ وطالب » التي وضعها لنفسه ولدولته - والتي أوصلت العراق الى أوج رفعة - كان يمكن ان تصبح سياسة مضرّة ، لو لم تحمل نفس فيصل الكبيرة طاقة لا تنضب من روح النشاط والمثابرة ، ولو لم تؤجج في اعماق صدره سعيراً من الوطنية الخالصة .

ان هذه السياسة المرة ، كان يمكن ان تؤدي الى « الاكتفاء بما تم » أخذه « والى « التناقص عن طلب المزيد منه » . لو لم تحرّكه على الدوام هذه الوطنية الطامحة التي لا تكفي بالانز الذي وصل الى اليد ، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو الى الأتم فالأتم على الدوام . هذه الوطنية الجارحة لا تتخدر أبداً بشعور الفوز النسبي الذي احرزته ، بل تواصل العمل في سبيل الوصول الى الغاية القصوى التي تصبو اليها ، وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب الى الامام .

لقد رضح فيصل الأول مراراً الى الضرورات الخارجية تارة ، والى الضرورات الداخلية طوراً ، ولكن رضوخه هذا لم يكن في يوم من الايام من نوع القنوط والاستسلام ، بل كان من قبيل الوقفة التي تساعد على تكثيف القوى والاستجمام ، استعداداً للكفاح الجديد والجهود الجديدة وفق خطط محكمة تمام الاحكام .

انه ما كان يقنط من مرارة الحيبة ، ولا كان يسكر من حلاوة الفوز . وما كان ينفك عن الايمان بالفوز حتى في أشد ظروف الحيبة ، وما كان ينقطع عن النزوع الى الفوز الأعظم حتى خلال أهبج ساعات النجاح .

كان مؤمناً بمستقبل الامة العربية ، ومتحمساً نحوها بحب خالص عميق . وأستطيع ان أقول : ان حجر الزاوية في بناء شخصية فيصل الفذة ، كان هذه الوطنية العميقة . فان جميع خصاله العقلية والحلقية - من ذكائه الحاد الى حيويته الشديدة - ما كانت لتستطيع ان تحقق ما حققته من النهوض والتقدم بالعراق لو لم تكن كلها راضخة لقيادة هذه الوطنية الحارة ،

ومدفوعة بقوة تلك الوطنية على الدوام .
وطنية الملك فيصل ... كم وكلمتي من الدلائل والشواهد على عمقها وقوتها! ...
وإذا كانت وطنية فيصل العظيم ليست موضع تجريح ، فانها على كل
حال لا تجبّ عن احفاده و اخوته و ابناء اخوته و أوغاد حاشيته ما اقترفه من
مآثم في حق الوطن العربي .

ولم يكن الهجوم على « قصر الرحاب » في فجر يوم ١٤ تموز ١٩٥٨
مجرد ثورة جيش كمي على ملك خنوع ، ولا تمرد شعب ابي علي حكام
مارقين ؛ وانما كان اصلاً لهباً تاريخياً اشتعل في اعماق الروح العربية ليعيد
العراق الى مكانه الخاص في حركة التحرر العربي .

ومن الحق ان نذكر بأن الثورة العراقية الاخيرة ليست كما تبدو لقراء
الصحف العاديين حدثاً عرض بالصدفة او انقلاباً ذُبّر بلسان فنجح على غير
انتظار . ان الثورة العراقية المظفرة هي نتاج صراع رهيب بدأ منذ
الحرب العالمية الاولى واتسم بالشدة والايان والتضحية والصبر حتى اكتملت
له عوامل النجاح والغلبة .

ونحن أبناء الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة على وجه
التخصيص ، تشدُّ مصائرنا الى العراق اواصر الجوار الجغرافي والتكامل
الاقتصادي والتشابك التاريخي . وقد كان العراق فيما مضى سياجنا في عصبه
الامم وموتلاً لحرارنا ومناطق رجائنا وعدتنا في مقارعة الانتداب الفرنسي .
فلما حادت حكومات العراق المفسولة عن هدي الوحي القومي الخالص
أصبح العراق مصدر متاعبنا كلها : مزق احزابنا وفرق زعماءنا وشنت
قلوبنا وهدد كيانتنا وقوض اقتصادنا .

وبعد أكثر من شهر على اشراقة الفجر العراقي الجديد لا تزال انباؤه
تملاً اسماعنا وتستخف افئدتنا وتنطق السنقنا :

ومنذ اللحظة التي حمل فيها الاثير النبأ التاريخي البهيج راح ابناء العروبة
في كل قطر يتساءلون ويختمون ويتطرحون وجهات النظر .
هل تهرع الجمهورية العراقية الناشئة الى الانصهار فوراً في الجمهورية

العربية المتحدة؟ أم تدخل معها كاليمين في اتحاد فيدرالي؟ أم تحافظ على
كيانها المستقل آنياً أو نهائياً وترتبط مع الجمهورية العربية المتحدة بعهود
ومواثيق سياسية وعسكرية واقتصادية؟

كل ذلك لا يزال حتى هذه الساعة موضع التكهن والافتراض^(١).
والذين رجحوا الانصهار البسيط أو الاتحاد الائتلافي برّروا فألهم
بضرورات العراق ذاته، فالجيوش الاميريكية حلّت في لبنان بعد يومين
من ثورة بغداد، ونزلت الجيوش البريطانية بالاردن، وكان جلياً أن هذه
الجيوش قد جاءت لضرب الحركة العراقية، وما كان عن عبث تصريح
المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة حين أعلنوا جادين ان الاعتداء على
العراق يعتبر اعتداءً مباشراً على الجمهورية العربية المتحدة.

كان يكتنف العراق التائر اذن خطر العدوان الاجنبي الميئت. وكان
محملاً أيضاً ان تفتعل تركيا ويران مبررات محتلفة لتأمر جيوشها بالزحف
على ارض العراق المجاورة وتنقذ حلف بغداد الطعين، لاسيما وان في العراق
أقليات تركية ويرانية.

والوسيلة الحاسمة لدفع كل خطر داهم هي في الانصهار مع سورية
ومصر. ويضيف أصحاب هذا الرأي ان مشكلات العراق الداخلية تجب
أيضاً في هذا الاندماج حولاً سهلة وسريعة. واذا ماأخر العراق الحديث
عن الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة وهو في عنفوان ثورته يخشى ان
يتجمد كيانه الجديد مع الزمن فيعسر تبديله فيما بعد.

غير أن الذين مالوا الى الحدس بأن الجمهورية العراقية الفتية ستحفظ
للعراق استقلاله عن مصر وسورية - مؤقتاً على الأقل - يتذرعون
بالحجج التالية:

(١) تناولت بعد ذلك تصريحات الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزارة العراقية التي
يجبر فيها بوضوح ان العراق الجديد يتعاون بالتعاون كله مع الجمهورية العربية المتحدة،
أما مصيره السياسي فيترك امر تقريره الى شعب العراق بعد رفع مستواه المعاشي والثقافي
ومنحه القدرة على اعلان مشيئته باستفتاء عام.

آ - ان خطر التدخل الأجنبي يكون أشد احتمالاً فيما لو أعلنت حكومة الثورة العراقية دمج كيائها بالجمهورية العربية المتحدة . ذلك لأن دول الغرب تحرص قبل كل شيء على صيانة مصالحها البترولية في العراق ، وقد تجازف بخوض الحرب اذا ما أصبحت منابع النفط واثايب نقله وموانيء تصديره في قبضة الرئيس جمال عبد الناصر ، بالإضافة الى قناة السويس . وكانت بادرة حكيمة تعجيل رجالات الثورة في طمأنة شركات النفط على مصالحها . ومن المعروف ان البترول العراقي تستثمره شركات بريطانية اميريكية افرنسية .

ب - لا بد لرجالات الثورة قبل التفكير في الوحدة او الاتحاد من اصلاح ما أفسده العهد الزائل . كان نجاح الثورة رهيناً بما تستطيع تحقيقه في الاشهر الاولى لميلادها ، من تطهير جهاز الدولة ، ومحاسبة العملاء والخوانة والقضاء على الفوضى والرشوة ، واقامة التوازن في مالية الدولة ، ومعالجة شؤون العشائر ، وازالة الاقطاعية الزراعية الخ ..

تلك امور لا يسوغ لحكومة ثورية شعبية ان تتريث في انجازها ، وقد يعوقها عن ذلك الانصراف الى بحث شؤون الوحدة والاتحاد .

ج - والحجة ذات الثقل الأوفى في نظر من يرون ان الثورة العراقية لا تقدر على اذابة كيائها عاجلاً أم آجلاً في مجموعة عربية موحدة ، هي اشتمال هذا الكيان بالذات على عناصر كردية وتوكية و ايرانية تخشى الوحدة العربية أو لاترضى بها ، وقد يكون لبعضها منزلة كبيرة في صفوف الجيش . وتصل نسبة الأكراد في العراق الى ١٦ ٪ من جملة السكان ، وهم اكثرية في الالوية الشمالية والشمالية الشرقية ، ونسبة الايرانيين ٣ ٪ والأتراك ٢ ٪ . وقد دلّ حصر سكان العراق في تشرين الاول من عام ١٩٥٧ على ان عددهم يتجاوز ٦,٥٣٨,٠٠٠ ؛ وعلى هذا الاساس يزيد عدد الأكراد عن مليون . وقد تمرّد هؤلاء في جبالهم المنيعه اكثر من مرة ، وتمعت ثوراتهم ونفي زعمائهم . وأقر القانون الأساسي (الدستور العراقي) لعام ١٩٢٥ في

مادته السادسة عشرة حق الطوائف في تأسيس المدارس لتعليم افرادها بلغاتها الخاصة ، وأيدت المعاهدات البريطانية العراقية ميزات الطوائف العنصرية واللغوية والدينية ، كما دعمت تلك الضمانات لجنة الانتداب الدائمة عندما وافقت على قبول العراق في عصبة الأمم عام ١٩٣٢ .

وصدر عام ١٩٣١ قانون خاص باللغات المحلية (القانون رقم ٧٤ بتاريخ ٢٣ مايس ١٩٣١) أوجب أن تكون الكردية لغة المحاكم والتدريس والمحابر الرسمية في أفضية معينة من ألوية الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية ، وأجاز استعمال الكردية والتركية والعربية في أفضية غيرها . وقد يتوهم الاكراد ان هذه الميزات والضمانات لا يتأتى الحفظ عليها في اطار وحدة عربية شاملة ، ولعلمهم يخشون ان يعمرهم المد العربي كما تخشى الأقلية المارونية في لبنان أن يهون شأنها ضمن دولة عربية موحدة يسود فيها المسلمون .

تلكم ، ايها السادة ، ذريعة من يعذرون العراق الجديد اذا شاء ان يستبقي وضعه الراهن . على انني لا استطيع هنا سرد الآراء دون تعقيب ، وفي هذه القضية بالذات ليس من شك في ان الوحدة العربية المرتقبة هدفها النعمى لمن يسكنون الارض العربية دونما تفریق في العنصر والمذهب . انها لن تكون الا اماناً وسلاماً ، شعارها محبة في كل قلب وبسمة العرائس على كل شفة ، وابتهالة شكر على كل لسان ، ومجد في كل بيت ، ودنيا من الاغاريد والاحلام للمواطنين كافة .

وبصدد الاقليات العنصرية في العراق وفي غيره من البلاد العربية احب ان استشهد بمحدث الاستاذ محمد مهدي كبه ، عضو مجلس السيادة العراقي بعد الثورة المباركة ، أدلى به منذ اكثر من عشرين سنة الى السيد عمر ابو النصر صاحب كتاب (العراق الجديد) السابق الذكر .
قال الاستاذ :

« ان الهدف الاسمي الذي ترمي اليه نهضتنا القومية هو خلق كيان

عربي عام موحد المشاعر والآراء ، مثقف العقول والافكار ، متماسك لأطراف والأجزاء ، يتساوى افراده في الحقوق والواجبات ، ويتعاطفون في الآمال والآلام ، ويتضامنون في السراء والضراء ، وذلك بتعزيز الروح القومية وغرس مبادئها في نفوس ابناء البلاد العربية ، ثم ربط اجزائها ببعضها ربطاً وثيقاً يوحد اتجاه سياستها الخارجية ، ويدرأ عنها الاخطار الداهية ، وهنا يتساءل البعض فيقول : أليس في بعث الروح القومية اثاراً لمشاعر الاقليات العنصرية وابقاع البلاد في مشاكل نحن في غنى عنها ؟ ألم يكن الأصلح لنا ان نستعيز عن النعرة القومية بالرابطة الوطنية الاقليمية للقائمة على أساس المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بين ابناء القوم الواحد؟ فنقول في الجواب على ذلك ان هذه الأقليات العنصرية التي تشار كنا في تربة هذا الوطن المحبوب في كل مقدراته ومقدساته والتي لها مثل مالنا من حقوق وعليها مثل ما علينا من واجبات ، يجب ان لا تقل عنا غيرة وحرصاً على القضية العربية العامة اذا كان ذلك يحفظ كيان هذا الوطن الذي هم بعض ابنائه ، ويصيبها مثل ما يصيبهم من مغائره ومغامره ، كما انني اعتقد بأنها أبعد نظراً وأحصف عقلاً من ان تتضايق اذا التجهت البلاد في سياستها القومية اتجاهاً يوائم مشاعر الاكثوية الساحقة من ابناءها . . .

وأود ان اضيف الى كل ذلك ان اكراد العراق لم يبد عنهم ما ينم عن خشيتهم من الجمهورية العربية المتحدة ، بل ان ما صدر عنهم هو عكس ذلك تماماً ، فقد تلقى الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٤ نيسان ١٩٥٨ عريضة تحمل توقيع ٧٠٠ من زعماء الاكراد في العراق يعلنون فيها تأييدهم المطلق للجمهورية العربية المتحدة .

وحكومة الثورة العراقية قد ألقت ما بين العرب والاكراد في الدستور الموقت الملحق في ٢٧ تموز من هذا العام . قالت المادة الثانية من هذا الدستور : العراق جزء من الامة العربية ، وقالت المادة الثالثة : يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة باحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم ،

ويعتبر العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية (١)

(١) اوردت جريدة (النصر) الدمشقية بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩٥٨ الخبر التالي عن بغداد :

اعلنت امس لجنة الاتحاد الوطني بالعراق ميثاقاً جديداً يهدف الى اعلاء شأن القومية العربية والسعي الحثيث لتدعيم العلاقات الاخوية بين جمهورية العراق والجمهورية العربية وتمكين الروابط بين الجمهوريتين الشقيقتين . وتضمن جبهة الاتحاد الوطني الأحزاب العراقية الاربعة المنغاة في المهد البائد وهي الحزب الوطني الديمقراطي وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال ، وقد تضمن الميثاق الذي وقعه ممثلو الاحزاب الاربعة اقرار قيام القومية الكردية ضمن الوحدة العربية على اعتبار ان الاكراد شركاء في هذا الوطن كما تضمن العمل على صيانة استقلال الوطن من كل تدخل اجني وضمن انتهاجه لسياسة الحياد الايجابي ونبذ الاحلاف والتكتلات العسكرية الاجنبية واقامة علاقات التعاون الدولي المتكافئ طبقاً لمبادئ مؤتمر باندونغ والتعايش السلمي على اساس المصالح المتبادلة وتوطيد السلام في العالم ، وتضمن ميثاق الجبهة ايضاً العمل على دعم الثورة وتحقيق اهدافها والسير لبلوغ حياة ديمقراطية سلمية واقامة اقتصاد موجه لتحقيق تعمير البلاد وتصنيعها وتطبيق الاصلاح الزراعي وزيادة الانتاج القومي ونشر الرخاء العام .

هذا وقد اذاعت الجبهة بياناً على الشعب العراقي اعلنت فيه انها اخذت على عاتقها مهمة توحيد الصفوف ونبذ الخصومات بين المواطنين وان جميع القوى المتألفة في الجبهة اتفقت على السياسة التي تحقق خدمة القومية العربية واعلاء شأنها وتحقيق افضل وامكن شكل من اشكال الارتباط بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة ، وقال البيان ان الجبهة الوطنية دائبة العمل في هذا المضمار وان املها وطيد في ان جميع المواطنين ان يتركو مجالاً للخصومة حول هذه المسائل التي هي موضع دراسة واهتمام من قبل المسؤولين والمعنيين بالامر ، ودعت الجبهة في ختام بيانها الشعب الى العمل بهذه الروح الديمقراطية ونبذ كل خلاف يؤدي الى تفريق الصفوف كما دعت المواطنين الى الكف عن المظاهرات والانصراف الى اعمالهم .

د - ولعل اضعف ما يستند اليه الحادسون بحرص العراق الجديد على قوامه المنفرد ، تخوفه المحتمل من ان يشاطر سائر البلاد العربية الموارد البترولية التي يختص بها الآن وحده ؛ وبدهي ان هذا التخوف يفقد سنده اذا كانت الوحدة العربية الآتية قائمة على اساس اللامر كزية من جهة والتكامل من جهة اخرى .

* * *

قدّمت اليكم عرضاً صادقاً لحواطر الناس في الوطن العربي حين وافاهم النبأ المفرح ، نبأ ثورة ١٤ تموز في العراق . ويثبت من كل ذلك يقين واحد وهو ان مصير العراق لن يقرّره الا شعب العراق . والمهم قبل كل شيء ان يلتحم الانشطار في الجبهة العربية وتتحد عزائم العرب على منازلة الاستعمار واجتراف آفاته . والثورة العراقية قد بدّدت جو المؤامرات الكئيب الذي كان يعطل القوى العربية ويصرفها الى التناحر في الداخل بدلاً من التضافر في الخارج .

وانكم لتبتسمون الآن اذا قلت لكم ان كثيراً من الناس هنا - بل حتى في العراق - كانوا قد قطعوا برأي نهائي مريح ، وهو ان العراق لن يثور ... وكانوا يدفعون بحججهم عن تثبت وتيقن مصطنعين سحنة العارفين ببواطن الامور ..

سمعنا من بعضهم ان ثورة في العراق تتأبى على التصوّر بسبب الجيوش التركية الرابضة قرب الحدود ، او لوجود بعض ضباط بريطانيين في الجيش العراقي ، او لأن العمال العراقيين ينعمون بأجور مغرية تلهيهم عن المطالب

الآخري ، ولأن ذوي النفوذ قد أطمعهم نوري السعيد بالرشى والوظائف
والأعطيات والتعهدات والمناقصات وما سأل ذلك .
وقد أكد لي أحد كبار العراقيين ان الثورة في العراق - اذا قُدر لها
ان تنشب - فلن يكون ذلك في الصيف ، بسبب القيظ المنهك من جهة
وعطلة الطلاب من جهة أخرى ..

والذين يرضي اقتناعهم مثل هذه العلل الظاهرية يفتلون عن دساتير
الثورات ويخلطون بين جوهرها وعرضها ولا يميزون بين دواعيها المباشرة
وعواملها العميقة .

قلت منذ لحظات أن الثورة العراقية المظفرة هي نتاج صراع رهيب بدأ
منذ الحرب العالمية الأولى . وكان صراعاً ضد الاستعمار وضد الرجعية
والاستعمار وضد التحكم والاستئثار .

وتعبّر ثورة ١٤ تموز عن جذورها التاريخية بهذه الفقرة التي وردت في
منشور للجمهورية العراقية : « ان جميع عناصر الثورة الاصلية تكمن في
في داخل العراق ، في نظام حكمه الفاسد ، في التناقض الشديد بين شكل
المجتمع ومحتواه الحقيقي ، وأخيراً في قنامي وعي الشعب وادراكه لحقوقه
ومسؤولياته . ومن هنا ترتبط حركة الشعب العراقي بكفاح الشعوب في
جميع أنحاء الأرض من أجل الحرية والاستقلال والسلام ، ومن هنا يمكن
ان نرى بوضوح أن حركة الشعب العراقي بقيادة جيشه الباسل كانت جزءاً
لا يتجزأ من حركة التاريخ التي شملت العالم أجمع ، فمنطق التاريخ يحتم
تحرر العراق وانطلاقه من قيوده وتقرير مصيره وسيوره في طريق مضيء
يبشر بكل خير ، كما يحتم تحرر جميع شعوب العالم المستعمرة والخاضعة للنفوذ
الاجنبي » .

لابدّ اذن من وضع ثورة ١٤ تموز في اطارها التاريخي ، ولابدّ ايضاً
من الالحاح على صفتها الاجتماعية بالاضافة الى صفتها السياسية .
وقد كان العراق موضع نهم المستعمرين البريطانيين منذ ان تقرر مصيره

الامبراطورية العثمانية المتهاقنة في اواخر القرن التاسع عشر . وجاءت الحرب العالمية الاولى متيحة الفرصة لاشباع هذا النهم ، فقد انضاف الى سياسة بريطانيا التقليدية في السيطرة على طريق الهند عامل جديد ذو شأن وهو التأكد من وفرة البترول في العراق . ففي خريف عام ١٩١٤ نزلت قوة بريطانية قرب شط العرب ، واحتلت البصرة ثم سارت باتجاه شمال العراق . ولئن اضطر الجيش البريطاني المحصور في الكوت الى الاستسلام (١٩١٥ - ١٩١٦) فان النجيدات البريطانية المتدفقة قد انقذت الموقف ؛ واحتل البريطانيون بغداد في ١٠ آذار ١٩١٧ وتوسّعوا نحو الشمال والغرب ؛ وكانوا على مقربة من الموصل حين أعلنت الهدنة في تشرين الثاني ١٩١٨ . وليس من شك في ان القائد البريطاني (ستانلي مود) كان يداعب العراقيين عندما نشر على سكان بغداد ، بعد تسعة ايام من احتلاله مدينتهم ، ان الانجليز لم يأتوا الى البلاد محتلين بل جاءوا منقذين ومحررين .

لاشك انه كان يمزح . . . لان اتفاقات سايكس بيكو المعقودة بين فرانسوا وانجلترا قبل ذلك بعام (١٦ ايس ١٩١٦) كانت قد قررت مصير العراق تحت الحكم البريطاني . . . ومن المستبعد ان يكون القائد الكبير يجهل في ذلك التاريخ تلك الاتفاقات السرية التي لم يعرفها العرب الا بعد ان نشرتها جريدة البرافدا السوفياتية بتاريخ ٢١ شباط ١٩١٨ .

وانتم تعرفون ان المزاح العابت (Humour) من طبيعة البريطانيين . . . فهم ايضاً قد وعدوا الشريف حسين بملك العراق مع الجزيرة العربية وسورية الشرقية وفلسطين منذ عام ١٩١٥ (مراسلات الحسين ما كاهون) . . . ثم قررت اتفاقات سايكس بيكو ان تكون سورية من نصيب فرانسوا . ووعد اليهود بفلسطين منذ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ (وعد بلفور) . . .

ومن قبيل الاغراب في الدعاية صدور التصريح البريطاني الفرنسي في ربيع ١٩١٨ ، الذي جاء فيه ان بريطانيا وفرنسا قد خاضتا غمار الحرب في الشرق الاوسط لتحرير سكانه تحريراً تاماً نهائياً وتأسيس حكومات

وطنية حرة تختارها الشعوب لتحقيق رغباتها ...
ولعل البريطانيين والفرنسيين قد خانتهم الذاكرة عندما اجتمعوا في
مؤتمر سان ريمو (٢٦ نيسان ١٩٢٠) وفرضوا الانتداب البريطاني على العراق
والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ...

ومهما يكن الامر فان الانجليز نظّموا أمرهم على البقاء في العراق ،
وحكموه حكماً مباشراً على هذا الأساس ؛ حتى أنهم عزموا في بداية الامر
على فصل جنوب العراق عن شماله ، والحاق الجنوب بمستعمرة الهند ...
ولا غرو أن يعاف العراقيون تهريج بريطانيا السمج ، فيستريبوا
بطويتها المغرّة ويتبينوا ان وعودها كلام لغب ...

راحوا ينددون بسياسة الاستعمار المتلفع برداء الانتداب وينادون
بالتحرر والحكم الذاتي . ولم يكن جواب بريطانيا مزاحاً هذه المرة ، كان
سجناً وسنقاً وتشريداً للأحرار . وأدّى الامر الى ما يجب ان يؤدي
اليه : الثورة .

وإذا جاز لنا ان نتخطى معايير الزمن ، قلنا ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨
قد بدأت بالفعل يوم ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠ . وكانت ثورة عارمة اشتعلت
في الجبال وفي السهول وفوق البوادي ، في المدن والقرى وفي مضارب
العشائر ، وشاركت فيها فئات الشعب كلها ، واستمرت اربعة شهور .

وأظهر البريطانيون أنهم انتفعوا بهذا الدرس البليغ ، ولكنهم في الواقع
سيحاولون ماوسعهم ذلك ان يحافظوا على جوهر حكمهم ويبدّلوا من
أسلوبه ، فالحكومة الوطنية الموقته التي أقاموها في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠
برئاسة تقيب الاشراف السيد عبد الرحمن الكيلاني كانت تنفّذ مشيئة المندوب
السامي البريطاني وتعمل بتوجيهه وتحت اشرافه .

وكان طبيعياً ان تتجه جهود البريطانيين في العراق الى اقامة اسرة مالكة
يتقبلها الشعب من جهة ويستطيعون الاعتماد على ولائها من جهة أخرى .
والمرشحون للتاج كثر ، بينهم عراقيون وعثمانيون وسعوديون وایرانيون ،

حتى ان من بينهم آغا خان زعيم الطائفة الاسماعيلية .
ورجحت كفة فيصل بن الحسين بلملة اسباب منها رغبة رؤساء القبائل
ورجال الدين وزعماء الثورة . ومن جانب بريطانيا كان في اختيار فيصل
ملكاً على العراق تعويض له عن عرش الشام المفقود وارضاء للاسرة الهاشمية
الموالية للحلفاء

وفي ١٢ آذار ١٩٢١ اجتمع في القاهرة وزير المستعمرات البريطاني المستر
تشرشل مع لفيق من الموظفين البريطانيين وبعض الوزراء العراقيين واتفقوا
على ترشيح الامير فيصل ، الذي لم يعلن قبوله الا بعد الحصول من
بريطانيا على ضمانات اعتبرها وافية . ونظّم استفتاء شعبي عام لاسباغ صفة
شرعية على اختيار الملك ، وقبيل حفلة التتويج التي جرت في ٢٣ آب ١٩٢١
تلقى الأمير برقية من المستر تشرشل تقتضيه ان يصرح في خطاب التتويج
عن عزمه على ترك القايد الحكم الفعلي بيد المعتمد البريطاني
فيصل هذا الاشتراط النائي وكاد يعدل عن قبول العرش

وبدا واضحاً منذ البداية ان بريطانيا تتبع مع فيصل سياستها التقليدية
المخادعة ؛ فكانت تدعم حكمه من جهة وتصطنع له العقبات والمتاعب من
جهة اخرى ، حتى تشعره دوماً بوجودها وتحمله على التيقن بأن عرشه عرضة
للضياع اذا ما تخلت عن مسانדתه .

واذا قلنا ان مهمة الملك فيصل كانت عسيرة كل العسر فنحن نعني انه
وجد نفسه بحكم الظروف وسيطاً بين الشر والخير ، وفي حومة النضال
المحتوم بين قوة المستعمر و ارادة الشعب كان امراً مقضياً ان يؤدي الملك
ضريبة التاريخ ويسقط صريعاً في الساحة ، غير محمود من الجانبين .

وبعد التتويج كان سير الامور المنطقي يفرض ان يلتئم مجلس تأسيسي
منتخب يعكف على تقرير دستور للبلاد ؛ ولكن بريطانيا شاءت غير ذلك ،
شاءت قبل كل شيء ان ترتبط الحكومة العراقية بمعاهدة معها تعترف فيها
بنفوذها ، ومن ثم يجتمع المجلس التأسيسي لابرار تلك المعاهدة ، وينصرف

بعد ذلك الى وضع الدستور . والغرض من ذلك غير خفي ، وهو ان يكون الدستور قائماً على اساس المعاهدة لا أن تكون المعاهدة متوافقة مع نصوص الدستور . وبالفعل سنتنص المادة الثالثة من المعاهدة على ان القانون الاساسي الذي سيقدم الى المجلس التأسيسي يجب ان لا يتضمن اية مادة تخالف بنود المعاهدة .

وعاود شعب العراق نضاله ولمّا ينقطع ، وتالت المظاهرات والاحتجاجات معلنة رفض المشروعات البريطانية المغلة للحرية والاستقلال . وكان الملك يستعد لاجراء عملية جراحية ، فرفض مطلب المندوب السامي (برسي كوكس) بضرب المعارضة وسجن المعارضين . ولكن المندوب تجاوز سلطان الملك فعطل الاحزاب واغلق الصحف وزج الاحرار في المحابس ، ولم يجد فيصل بدأ من الازدعان بعد شفائه . . ووقعت المعاهدة الأولى في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ ، على ان تعرض لتصديق المجلس التأسيسي . واكل ما فيها ان الملك يقبل ارشادات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالشؤون الاقتصادية والعلاقات الخارجية ، وتلتزم الحكومة العراقية بان تعقد مع بريطانيا اتفاقات عسكرية وقضائية ومالية ، وان تستخدم الموظفين البريطانيين في مصالح الدولة وادارتها المختلفة . . كل ذلك لقاء وعد بريطانيا بان تبذل جهودها لقبول العراق في عصبة الامم .

ومن الجدير بالملاحظة ان بريطانيا شرعت منذ ذلك العهد تربي قطيع الأعدوان والعملاء ، ففرضت رئاسة النقيب الكيلاني ثلاث مرات حتى ١٩٢٢ ، وسوف تستمر في اجتذاب الحول والعييد وتنشئتهم وتنميتهم حتى تتوفر لها « قطع التبديل » كلما دعت الحاجة . ونذكر على سبيل المثال ان نوري السعيد ولي الوزارة لأول مرة بين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ ، فكان قائداً اعلى للجيش ووزيراً للدفاع (وزارة عبد المحسن السعدون الاولى) . وفي هذه الحقبة بالذات وُضعت الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة ، تلك الاتفاقات التي حشدت الضباط البريطانيين في الجيش العراقي ومنحتهم رواتب ضخمة من موازنة

الدولة ، وخلقتم محاکم خاصة بالاوريين والاميريكين ، وألزمت الحكومة العراقية بدفع نفقات دار الاعتماد ، ووضعت على عاتق الخزانة تبعات مالية ثقيلة كتعويض عن المنشآت البريطانية الخ . . .

كل ذلك تمّ في ٢٥ آذار ١٩٢٥ ، قبل اجتماع المجلس التأسيسي بيومين ، وكان على هذا المجلس ان يصادق على المعاهدة قبل ان يضع الدستور . . . وجرت الانتخابات في جو متلبد بالضغط والتهديد والارهاب ، وعزم الاحرار في البدء على مقاطعة الانتخابات ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة جعفر العسكري ، وكان فيها نوري السعيد . . . وبعثت بريطانيا بتهديد قاطع : اما المعاهدة او الحاق ولاية الموصل بتركيا .

واخيراً التأم المجلس ، وبعد أشهر طويلة من النقاش العنيف وافق ٣٧ نائباً على المعاهدة ، وعارضها ٢٤ وتغيب عن الجلسة ٣١ واستنكف عن التصويت ٨ ، واعتبرت المعاهدة مبرمة حكماً ، الا ان النواب الموافقين اشتروا على الحكومة الدخول فوراً في مفاوضات مع الجانب البريطاني لتعديل الاتفاقات المالية المرهقة ، وقرروا ايضاً ان المعاهدة تصبح باطلة اذا لم تقم بريطانيا بالمحافظة على حقوق العراق في ولاية الموصل .

وعلى الرغم من هذه التحفظات فان تصديق المعاهدة ترك في جمهرة المواطنين اثرأ اليماً سيزداد مع الايام حدةً وشدةً . ذلك ان افراد الشعب هم الذين يقدمون الاضاحي من ارواحهم عندما يجزب الامر وتحتدم المعارك ، وهم أميل بالطبيعة الى الحلول الجذرية المتأبية على المساومة والمواطأة

وقد حدث في العراق ماحدث في غيره من البلاد العربية ، حدث ان الاستعمار استصفى بعض الاشباع والاتباع ، ومقتهم الشعب وقاومهم ووفق احياناً كثيرة الى قلبهم عن مناصب الحكم والانتهاض بالزعماء المعارضين الى مكانهم ، أولئك الزعماء الذين قادوا نضاله وازكوا حماسه وأوسعوه آملاً ووعوداً ، فما آتس الشعب منهم بعد تسلم الحكم الامهاودة

مع الاجنبي المستعمر بحجة الواقعية ومسايرة الظروف . ثم ان هؤلاء الزعماء الذين بنى الشعب زعاماتهم قطرة قطرة من دمائه حسبوا الوطنية في التحرر من عسف الاجنبي فحسب ، ولم يمنحوا الا اقل العناية للتحرر من العسف الاجتماعي والاقتصادي ، بمعنى انهم غفلوا عن الجوهرى من مطالب الفئات المكافحة .

والشيء الذي يتكشّف لنا الآن هو ان الشعب كان في الواقع اكثر واقعية من زعمائه . . . لانه ادرك بجبلته السلمية ان الصلابة اجدى في انتزاع الحق من الملائنة ، وان المطالبة بالعدل الاجتماعي لا تنفصم عن المطالبة بالتحرر السياسى . نعود الى سير الاحداث في العراق بعد تصديق المعاهدة الأولى ، فقد تسلم الحكم زعيم الوطنيين المعارضين للمعاهدة ياسين الهاشمي ، وفي عهده أبرمت مع بريطانيا اتفاقية امتياز النفط (١٤ آذار ١٩٢٥) ، وأوفدت عصبة الامم لجنة من قبلها للبت في قضية الموصل ، فاقترحت هذه اللجنة ابقاء الموصل ضمن العراق شريطة ان يمد اجل المعاهدة العراقية البريطانية سنة ٢٥ ، ووافقت العصبة على هذا الاقتراح ، مع ان امد المعاهدة كان محددآ في الاصل بعشرين سنة ثم قبلت بريطانيا انقاصه الى اربع سنوات .

وصدر الدستور العراقي (القانون الاساسي) عن المجلس التأسيسي في ٢١ آذار عام ١٩٢٥ ، اي بعد توقيع اتفاقية النفط باسبوع . . . وبدأت من ثم الحياة البرلمانية التي تعرّضت بصورة مستمرة للتعطيل او التزييف . ولا اشعر يجردى الاستمرار في تعداد وزارات العراق المتعاقبة وتحديد صلاتها بالبريطانيين . وما يعنيننا هو ان جميع المعاهدات المحاكة لربط بغداد ولندن في السنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣٠ ، ١٩٤٨ كانت تصور اصدق تصوير سياسة بريطانيا الأزلية في الموافقة على التبدل والتغيير مع الحرص على عدم التفريط في شيء ذي بال ، أي الرجوع دوماً الى الشيء ذاته . . . ثم ان بريطانيا كانت في اعقاب الحرب العالمية الاولى تثن من وطء الديون وتعطل الصناعات وفشو البطالة وبالتالي انتشار الاضرابات

واحتدام الصراع الاجتماعي ، حتى ان رجال الاعمال في اوروبا واميركا كانوا قد فقدوا الثقة بمستقبل بريطانيا . ولا يؤهلها هذا الوضع الى التسامح مع البلاد الخاضعة لها ، التي ترفدها بالموارد وتمتص عدداً من موظفيها وتسند جانباً من اقتصادها .

ان تطور بريطانيا الداخلي يلقي اذن بعض الضوء على سلوكها في البلاد العربية . ورغم ان حزب العمال تقلد الوزارة برئاسة رمزي ماكدونالد منذ عام ١٩٢٩ فانه لم يوفق الى معالجة الضائقة ، ولم تبدأ الازمة بالانفراج الا بعد عام ١٩٣١ ، وفي ذلك العام ألفت ماكدونالد وزارة قومية تضم العمال والمحافظين استمرت حتى ١٩٣٥ .

وفيما يتعلق بالعراق فان المعاهدات التي فرضتها عليه بريطانيا لم تتفاوت في جوهرها ، سواء وقعها اليمينيون او اليساريون ، ولكنها في جميع الاحوال كانت متأثرة بالكيان البريطاني العام . وكان الساسة العراقيون يلاحظون هذه الاعتبارات في مفاوضاتهم مع الانجليز ، ولكن الشعب العراقي لا يمكن ان يتحسس بذلك او يدخله في اعتباره ، فقد رفض جميع المعاهدات باصرار وعناد ، ولذا يجب الاعتراف بأن تحرر العراق مدين أولاً وآخرأ الى شعب العراق الذي ناهض المستعمرين واعوانهم والزعماء الوطنيين المتهاودين على السواء (١) .

(١) لم ترد معاهدة ١٩٢٦ (معاهدة السعدون) عن سابقتها الا بتحديد امدها ٢٥ عاماً ما لم يقبل العراق في عصبة الامم قبل ذلك . . والمعاهدة الثالثة التي وضعت عام ١٩٢٧ طالبت بها الوزارة الائتلافية التي شكها جعفر العسكري وضمت ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وغيرهما من المعارضين . وقد تضمنت اعتراف بريطانيا باستقلال العراق وسيادته من حيث المبدأ ، وتمهدت بترشيحه الى عصبة الامم اذا دل على تطور ملامح حتى عام ١٩٣٢ . الا ان بريطانيا رفضت مطلبين كان العراقيون يعتبرونها في مقدمة الاماني العاجلة وهما التجنيد الاجباري وتعديل الاتفاقات المالية والمسكرية . ولذا حمد الشعب في وجه هذه المعاهدة ايضاً وأظهر من البأس في معارضتها ما حمل الوزارة على الاستقالة في مطلع ١٩٣٨ ، فألف عبد المحسن السعدون وزارته الثالثة وأجرى

عاش العارقي اذن بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ في فورة محومة تراكت خلالها
حطامات الوزارات بعضها فوق بعض ، فكان لا بدّ لبريطانيا من يد غليظة
ووجه جهم وضمير متأكل لتحكم شعب العراق باسلوب آخر ، ووجدت
طلبتها في شخص نوري السعيد . .

أصبح هذا الرجل الحشيب رئيساً للوزراء لأول مرة في أيار ١٩٣٠ ،
واستعمل حكمه مجل المجلس النيابي ، ثم رحل الى لندن ، وبأقل من القليل عقد
مع بريطانيا معاهدة جديدة ظاهرها السيادة والاستقلال وباطنها الحماية
والاحتلال ، وقفل راجعاً الى بغداد ليمثّل الدور الذي أسند اليه وهو
القمع والارهاب وسفك الدماء ، وصنع برلمان رقيق الشرائط . . يستجيب
لمشيئة الأسياد البريطانيين دون تردد . وكان لبريطانيا ما أرادت فصدّقت
المعاهدة الرابعة في ١٦ تشرين الاول ١٩٣٠ باكثرية ٦٩ نائباً ومخالفة ١٣ .
تقول هذه المعاهدة : ان العراق مستقر استقلالاً تاماً ، ولكنه يقر
سياسته الخارجية بالاتفاق مع بريطانيا ، ويؤمّن لها طرق مواصلاتها ،
ويسمح لها باقامة مطارين على أرضه وبإبقاء قوات عسكرية داخل حدوده ،
ويكون حليفها ويمنحها حق استخدام طرق مواصلاته في حالة حرب ،
ويتعهد بأن يتدرب جيشه على أيدي ضباط بريطانيين ، وان لا يستخدم
سوى السلاح البريطاني ، وان يستعين في ادارة مرافقه بخبراء من بريطانيا . .
ومدة المعاهدة ٢٥ سنة تبدأ عقب قبول العراق في عصبة الامم ،

انتخابات نيابية جديدة ، ولما لم يصرار بريطانيا على رفض الرغبات الوطنية استقال
بدوره ، وبقيت البلاد دون حكومة مدة ثلاثة شهور ، ثم الف الوزارة توفيق السويدي
بعض الوقت ، وعاد السعدون مرة رابعة ، الا انه لم يستطع الخروج من المأزق وحله
الفضل على الانتحار عام ١٩٢٩ .

وهكذا نجح الشعب في ترك معاهدة ١٩٢٧ دون ابرام . ووزارة ناجي السويدي التي
التي استملت الحكم عام ١٩٢٩ لقيت الاصرار ذاته من قبل الانجليز وخاصة حين طلبت
الاستغناء عن بعض الموظفين البريطانيين لتخفيف العبء عن خزانة الدولة ، واستمالت
هذه الوزارة ايضاً وخلفتها وزارة نوري السعيد سديق البريطانيين الوفي . .

وحين يبدي احد الجانبين المتعاهدين الرغبة في استبدال المعاهدة يجب حتماً ان تنص المعاهدة الجديدة على ضمان المواصلات البريطانية وحمايتها .
هذا وان المعاهدة كان لها ذبول وملاحق عسكرية ومالية وقضائية
لا تعني سوى استثمار العراق والاستهانة بمشاعره ومصالحه .
وعلى أساس هذه المعاهدة العجيبة دخل العراق الى عصبة الامم في ٣
تشرين الاول ١٩٣٢ .

ولكن نوري السعيد ، رب المعاهدة الرابعة ورب حلف بغداد في
المستقبل ، لن يفلح في فليح العزيمة الشعبية ، وقد اضطر الى اعتزال الرئاسة
عام ١٩٣٢ ، ولئن عاد الى الحكم مرة ومرات فسيجد دوماً جداراً مرضوناً
من النقمة والكرهية يسد عليه المنافذ . وسينتهي به الامر الى ما عرفتم .
وبعد ١٩٣٢ تتعاقب على العراق حكومات أخرى ترتطم بايمان الشعب
من جهة وبمراوغة الانجليز من جهة اخرى . ويتوفى فيصل الاول في
سويسرا يوم ٧ ايلول ١٩٣٣ والعراق في حماه المستدبة . ويلجأ الانجليز في
السنوات التالية الى إيقاد الثورات العنصرية والقبلية وتزويدها بالمال والسلاح
لالهاء الشعب واستغال الحكام عن المعاهدة المقيتة ، فهم يثرون مثلاً
الآشوريين اللاجئين على الجيش العراقي قبيل موت فيصل ، فيضربهم ابنه
غازي في غياب أبيه ضربة يهلع لها فؤاد بريطانيا ، وتتقبلهم السلطات الفرنسية
في سورية .

ومن الانصاف ان نذكر بأن حكام العراق في ذلك العهد شغلوا
بالمنازعات على المناصب والمغانم حتى كادوا ينسون العدو البريطاني . وهذا
ما يعلّل لنا قيام الجيش العراقي بأول حركة انقلابية في ٧ تشرين الاول
عام ١٩٣٦ بقيادة بكر صدقي ، أفصت ياسين الهاشمي عن الحكم وجاءت
محله بحكمت سليمان . ولم يُقدّر لحركة الجيش الاولى ان تبلغ مقصدها ،
وقتل قائدها عام ١٩٣٧ . وفي آخر عام ١٩٣٨ جاء نوري السعيد رئيساً
لوزاره مرة ثانية بعد وزارة جميل المدفعي .

كان طبيعياً جداً ان يحكم العراق نوري السعيد بالذات في الوقت الذي بدا فيه ان الحرب العالمية الثانية وشيكة الوقوع . ولعل الظروف ترجّح ظنة من ذهبوا الى ان مصرع الملك غازي يوم ٤ نيسان ١٩٣٩ لم يكن مجرد حادث سيارة وقع قضاءً وقدرًا .. لان موت غازي معناه وصاية العرش لعبد الاله ريثما يبلغ الملك الطفل فيصل الثاني سن الرشد . واذا اجتمع عبد الاله مع نوري السعيد على رأس الحكم ضمنت بريطانيا المحاربة تنفيذ معاهدة ١٩٣٠ على النحو الذي يرضيها .

ولم ينجب أمل بريطانيا ، فان نوري السعيد أعلن قطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا منذ ان نشبت الحرب بينها وبين الحلفاء ، وبدأ يعدّ العدة لزج الجيش العراقي في المعركة . حينذاك اصطدم بمقاومة الشعب والجيش واضطر الى التخلي عن رئاسة الوزارة لرشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤٠ مع احتفاظه بمنصب وزير الخارجية ، بمعنى انه ظل يمثل المصالح البريطانية في صلب الوزارة العراقية .

وطلبت بريطانيا من رئيس الوزراء أن يقطع صلات بلاده مع ايطاليا حليفة ألمانيا ، وان يسمح للجيش البريطاني باستباحة أرض العراق بمجة ضرورات الاتصال ، وأيدّ الوصي ووزير الخارجية هذه المطالب ، واضطر رشيد عالي الكيلاني الى الاستقالة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٤١ ، وخلفه طه الهاشمي . ولكن الجيش والشعب أعادا الكيلاني الى رئاسة الوزراء في مطلع نيسان ، وهرب الوصي ونوري السعيد وكبار العملاء على طائرة اميريكية ولاذوا بجمي القواعد العسكرية البريطانية . ولما تدفقت الجيوش الانجليزية على منطقة البصرة أعلن رشيد عالي تأليف حكومة الدفاع الوطني ، وخلع عبد الاله عن وصاية العرش واستبدله بالشريف شرف .

ووقع الاصطدام بين الجيش العراقي والجيش البريطاني في مطلع أيار ١٩٤١ ، واستخدم الجيش الاردني ايضاً في ضرب جيش العراق وشعبه . وكان محتوماً ان يعجز عن المقاومة جيش فتي ضئيل العدة ، وفرّ

رشيد عالي مع وزرائه وضباطه الاحرار الى ايران ، ودخل عبد الاله ونوري السعيد بغداد في طليعة الجيش البريطاني ، وأسندت رئاسة الوزارة بضعة شهور الى جميل المدفعي ثم تولاه نوري السعيد مع وزارة الدفاع حتى ما بعد نهاية الحرب .

وقبض البريطانيون على وزراء الكيلاني وضباطه وسلّموهم الى نوري السعيد الذي شقهم تبعاً بين ١٩٤٢ و ١٩٤٥ ، وحكم العراق بالحديد والنار قرابة ست سنوات .

والتجأ رشيد عالي الى المانيا حيث ألتف حكومة عراقية حرة انتهت بسقوط المانيا النازية ، وفرّ على الاثر متخفياً الى سورية فالمملكة العربية السعودية ، ثم قطن بصر حتى قيام ثورة ١٩٥٨ .

وخلال سني الحرب هيمن على العراق جو احتلال مباشر في ظل الاحكام العرفية ، فألجأت الحركة الوطنية وسلّطت معاول الهدم على الجيش وُعدّل الدستور العراقي في ١٧ تشرين الاول ١٩٤٣ بغية توسيع سلطات الملك والحكومة .

وعقب الحرب مباشرة عاد النضال الشعبي أقوى ما يكون النضال ، وتلته بصورة مستمرة تدايير قمع وانتقام . ووجد الانجليز ان ابتعاد السعيد عن الرئاسة بعض الوقت قد أتاح للموج الوطني ان يصطبغ ، ولم ترضهم رئاسة أرشد العمري على بطشه بالشعب واستخذائه لهم ، فأجبروا السعيد أن يعود الى الحكم عام ١٩٤٧ تمهيداً لمكيدة جديدة كانوا بسبيل تهيئتها . وكان السعيد يدرك أسرع الادراك ما أرب البريطانيون القريبة والبعيدة ويهرع الى تعبيد الطرق الموصلة اليها . كانت مهمته هذه المرة ان يصنع مجلساً نيابياً مطواعاً ، وهو الضليع بصنع مثل هذه المجالس ، ثم يترك الرئاسة لغيره وينصرف هو الى اعداد الاحداث . . والاحداث المهمة هي عقد معاهدة خامسة مع بريطانيا اشد نكلاً من سابقتها وامعن في مسخ الحريات وكبل الاستقلال . أتى بصالح جبر لرئاسة الوزارة وألحق به فاضل الجمالي كوزير للخارجية

ومن ورائهما كان يكمن نوري السعيد . وتمخضت هذه « التركيبة » عن معاهدة بورتسموث او معاهدة جبر - ييفن الموقعة في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨ . وقد تجنّد الشعب كله لمنع تصديقها ، ورفض الجيش ان يشدّ أزر الحكومة ويقهر الشعب ، فكان لاجتهد من استقالة الوزارة وطبي المعاهدة ارتقاباً لفرصة اخرى .

ولم تدم أفراس الشعب طويلاً ، فقد جاءت حرب فلسطين ، وأعيدت بحجتها الاحكام العرفية وما يرافقها عادة من ضغط وقسر . وفي تاريخ كل بلد صفحات لا تقرأ الا بأعين دامية ، ومن هذه الصفحات مأساة الجيش العراقي في فلسطين ، حين رفض قائده الاعلى الوصي عبد الآله ان يستجيب لرغبة الشعب والجيش ورئيس الوزراء مزاحم الباجه جي في السماح للجيش العراقي ان يهب لنجدة الجيش المصري المحصور في القلوجة .

واستقال الباجه جي وعاد السعيد رئيساً للوزراء عام ١٩٤٩ ، ولماذا عاد ؟ انه جاء لتهيئة مشروع عربي جديد ، هو ما أسماه بالدفاع المشترك ، ومعناه الحقيقي تكتيل الدول العربية مع دول الغرب وصرف جهودها عن قضية فلسطين ، واشراكها في الحرب الباردة او الحارة مع الاتحاد السوفياتي ..

ثم ان نوري السعيد كان الاداة المختارة لتحقيق مشروع سورية الكبرى الأثير لدى البريطانيين ، وقد وهم هؤلاء ان الوقت قد حان للشروع في مرحلته التنفيذية . كان الاقليم السوري قد شهد أول انقلاب عسكري ، وهو الذي قام به حسني الزعيم بتاريخ ١٩ آذار ١٩٤٩ ، وخاب أمل البريطانيين في قائد الانقلاب حين عدل عن السير في ركابهم ورجع عليهم اصدقاءه الافرنسيين . وفي شهر ايار ١٩٤٩ يأتي نوري السعيد الى رئاسة الحكم ويدبّر الانقلاب العسكري الثاني في سورية ، أعني انقلاب سامي الحناوي بتاريخ ١٣ آب ١٩٤٩ ، الا ان الحناوي أزيح قبل ان يحقق الآمال المعقودة عليه بانقلاب أديب الشيشكلي الاول في ١٩ كانون الاول ١٩٤٩ . فشل نوري السعيد في تحقيق مشروع سورية الكبرى ، وفشل ايضاً

في حمل الدول العربية على قبول مشروع الدفاع المشترك الذي هيأه الغرب .
وذلك ان شعوب الوطن العربي كله هبتت تعارض هذا المشروع الماكر ،
فاضطر السعيد مرة اخرى الى التوازي مؤقتاً في الشهر الاخير من عام
١٩٤٩ ، وخلفه علي جودت الايوبي ثم توفيق السويدي .

ومن المهم ان نذكر بأن نوري السعيد كان ، بدفع من إنجلترا ، أشد
رجال العرب تحمساً لتأسيس جامعة الدول العربية ، وكان يرجو أن يشدّها
الى موكب البريطانيين ، فلما تأبّت عليه أصبح هو وبريطانيا من الدّ خصومها .
وفي عام ١٩٥٠ ظهر ان العرب قد أبلو من انتكاسة فلسطين ، وعاودهم
الشعور بضرورة لمّ الشمل والنكتل لمجاهة الخطر الصهيوني المنفام ؛ وتبلور
هذا الشعور في معاهدة الضمان الجماعي والتعاون الاقتصادي المبرمة بين دول
الجامعة العربية في ١٧ حزيران ١٩٥٠ ، وكان ذلك ردّ فعل للبيان الثلاثي
الانجليزي الاميريكي للفرنسي الصادر في ٢٥ أيار من ذلك العام والمستهدف
حماية اسرائيل .

ورأى الغرب في استفاقة العرب غير المنتظرة خطراً جسيماً على مصالحهم
ومشاريعهم ، وهي تقتضى عملاً تفكيكياً عاجلاً ، وليس مثل نوري السعيد
في معالجة هذه الامور بدهائه ووفائه المهودين ..

وقد أيقن أهل العراق والعرب جميعاً ، بعد تجربة طويلة ، ان نوري
السعيد هو نذير الخطر بالنسبة الى المكائيد المبيتة لهم ، فكلما عاد الى الحكم
كان معنى ذلك ان هناك خطة مدبّرة لا تبتغي سوى الشر لهم .

وبالاضافة الى الانتفاضة العربية كان عام ١٩٥٠ حافلاً بالاختار على
مشاريع الغرب بصورة عامة ومصالح إنجلترا على وجه الخصوص . فيجب
أن يوسد الحكم الى نوري السعيد ليقف الى جانب الغرب ويصون المصالح
البريطانية ، وسيدقى في الحكم حتى تموز ١٩٥٢ لان بريطانيا وامريكا
تريدان ذلك .

لنذكر ماجرى في هذين العامين :

في ايران ووضعت اتفاقية جديدة بين الحكومة وشركة النفط الانجليزية عام ١٩٤٩ ، ولكن لجنة شؤون النفط في البرلمان الايراني اوصت عام ١٩٥٠ برفض تلك الاتفاقية ، وبدأت حملات الدكتور مصدق من أجل التأميم ، الذي سيتمّ فعلاً في نيسان ١٩٥١ . ومن الطبيعي ان يكون لذلك صدى سريع في العراق حيث طالبت المعارضة أيضاً بتأميم النفط ، ولا يتأتىّ لغير نوري السعيد أن يدفع هذا الخطر ، ويحمل البرلمان العراقي على تصديق اتفاقية جديدة مع شركة نفط العراق (١٤ شباط ١٩٥٢) .
وخلال عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١ كانت حرب كورية .

وفي ٢٠ تموز ١٩٥١ قُتل الملك عبد الله في القدس ، وبدا مصير الاردن محفوفاً بالعموض .

وفي العام ذاته كان الفدائيون المصريون يناوئون الجيوش البريطانية المتمركزة على القناة ؛ وكانت المظاهرات لانهاداً في مدن العراق لمناصرة مصر على المستعمرين .

وأمر نوري السعيد ان يستجيم في العشر الاول من تموز ١٩٥٢ ، استعداداً لمعركة ماكرة اخرى ، بعد ان ضمن لبريطانيا نفط العراق وبعد ان خفّ التوتر الدولي ؛ وفي ابتعاده عن الحكم بعض الوقت ارضاء ظاهري لشعب العراق المتهب . وهكذا تخلّى السعيد لمصطفى العمري ، ذلك الذي عاصر ثورة ٢٢ تموز في الاقليم المصري .

وأجّجت انطلاقة مصر الكبرى نار الوطنية العراقية التي لم تنطفئ قط ، فكانت ثورة تشرين الاول ١٩٥٢ التي تساند فيها الشعب مع ابنائه الطلاب لارغام الحاكمين على تلبية المطالب القومية . وطار صواب الوصي عبد الاله عندما قيل له ان الجيش يحمي المتظاهرين بدلاً من ان يقمع حرّكتهم فأعفى وزارة العمري في اواخر تشرين الثاني واختار لرئاسة الحكم احد أعوانه الخالص من الضباط وهو رئيس الاركان نور الدين محمود الذي بادر الى اعلان الاحكام العرفية وفتح ابواب السجون حتى غصّت بالاحرار؛ ولمّا

تأكد ان الجيش ليس طوع بنانه أعاده الى ثكنتاته وأظهر انقياده لأماني
المواطنين باجراء انتخابات نيابية جديدة ، ولكن فورة الشعب أطاحت به
عن الحكم كما استطيع بوزارة خلفه جميل المدفعي .

نصل الآن الى عام ١٩٥٣ ، ولنا ان ندعوه بحق عام اقتضاح الاستعمار
الاميريكي ، فقد عزمت الولايات المتحدة على تحقيق مشروع الدفاع المشترك
باي ثمن . . . ، وقد زار دالس - وزير الخارجية الاميريكية - عدداً من
بلدان الشرق الاوسط والوطن العربي لهذه الغاية ، ولم يجد تقبلاً اعمى
لخطته المريية الا من ساسة العراق المعروفين وعلى رأسهم الوصي عبدالاله
ونوري السعيد وفاضل الجمالي .

فعندما جيء بفاضل الجمالي رئيساً للوزارة في ايلول ١٩٥٣ كان واضحاً
ان اميريكا قد صممت على تسيير السياسة العربية وفق هواها . وكان على
الجمالي ان يعمل اولاً على ربط جامعة الدول العربية ودول الشرق الاوسط
بمشاريع اميريكا ، وكان عليه ثانياً ان يحقق اتحاد سورية مع العراق
لتنصيب عبد الاله نائباً عن الملك في الاقليم السوري بعد أن استلم فيصل الثاني
سلطانه الملكية .

وحسب الجمالي انه امتلك الارض والسماء عندما عقد عام ١٩٥٤ ميثاق
الامن المتبادل مع الولايات المتحدة ، ولكن الشعب العراقي اليقظ جرّه من
رئاسة الوزارة بعدما فضح تبعيته النكراء للأحلاف الاجنبية . وأجرت
وزارة أرشد العمري (أيار - آب ١٩٥٤) انتخابات نيابية تهدئة الغليان
ثم تركت الامور لرجل المآزق نوري السعيد .

جاء نوري السعيد لتحقيق ما عجز عنه فاضل الجمالي ، وهو ربط دول
العرب بأحلاف الغرب . ولكن السعيد وجد أمامه الآن طوداً راسياً من
الشمم العربي ممثلاً في شخص الرئيس جمال عبد الناصر . وعبثاً حاول مندوبا
السعيد ، فاضل الجمالي وبرهان باش أعيان ، في مؤتمر رؤساء الحكومات
العربية المنعقد في القاهرة ، استلانة مصر وزحزحتها عن مبدئها السلم المرتكز

الى حقيقة بديهية ، وهي أن العرب في المرحلة الحاضرة من تطوّرهم السياسي يجب ان يجمعوا قواهم ضد الاجنبي لامع الاجنبي ، وان الدفاع عن الارض العربية لا يمكن ان يضطلع به غير العرب ، وان البلاد العربية لا تقيد من التحالف مع الغرب سوى معاداة الاتحاد السوفياتي دون مبرر ، وتعريض الوطن العربي لشروط الحرب .

لقد كانت حكومة الثورة في مصر أعمق الحكومات العربية نظراً حين أدركت ان التحالف مع الغرب المستعمر مكيدة من هذا الغرب لستور استعمارها بحجاب العهود والمواثيق .. أما حكومة سورية آنذاك فكان موقفها القلبي يميل الى العراق ، ولكن خشيتها من نقمة الشعب السوري جعلتها تقف رسمياً موقف الوسيط بين العراق ومصر .

ومهما يكن الامر ، فان دول الغرب ، ان لم تظفر بجذع العرب كلهم ، فقد نجحت على الاقل في تفتيت المعسكر العربي منذ ١٩٥٤ ، وهي أمنية للغرب لا تقدر بثمن ولا يقاربه في الفرحة بها سوى الفأر الصهيوني .

وقد تمّ تشكيل « حلف بغداد » على النحو الذي أريد له ، وذلك بتوقيع ميثاق الدفاع المشترك بين العراق وتركيا في ٢٤ شباط ١٩٥٥ ، وكانت تركيا قد ارتبطت بميثاق مماثل مع الباكستان منذ ١٩٥٤ ، ثم انضمت بريطانيا الى الحلف في ٤ نيسان ١٩٥٥ ، وتبعها الباكستان في ٢٣ أيلول وايران في ١٩ تشرين الاول . أما الولايات المتحدة فكانت تدير الحلف من وراء ستار وتشارك في أكثر لجانه .

وأخى حلف بغداد المعاهدة البريطانية العراقية لعام ١٩٣٠ واستبدلها باتفاق خاص يجعل من العراق مطية وطية لبريطانية المعظمى . وحسبنا تعقيباً على هذا الحلف ان انجلترا اعتبرته دعامة جديدة لنفوذها القديم ، وصرّح رجالها المسؤولون انه الأمل المرجو لاسرائيل في تثبيت خطاها المتعثرة .

وكان الجو السياسي قد تبدّل في الاقليم السوري بعد انتخابات أيلول

١٩٥٤ ، وبعد عودة فخامة شكري القوتلي الى رئاسة الجمهورية في آب ١٩٥٥ .
والنتيجة الحيرة الوحيدة لحلف بغداد هي في اسراع الحكومتين المصرية
والسورية الى عقد اتفاقية التعاون والدفاع المشترك في ٢٠ تشرين الاول
١٩٥٥ ، وأبرم مثل هذا الاتفاق بين مصر والمملكة السعودية ثم اليمن ،
واشتركت الاردن في هذا التكتل عام ١٩٥٦ .

وماحدث بعد ذلك لاتزال جراحاته تنزّ بالدم العربي السخين . ففي
٢٦ تموز ١٩٥٦ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم شركة القناة ، وفي ٢٩
تشرين الاول هاجم مصر أوغاد صهيون تآزرهم جيوش بريطانيا وفرنسا .
واستُخدمت أرض العراق لتقلع منها طائرات الانجليز حاملة الموت
لاهالي بور سعيد . وقار شعب العراق في كل مدينة ودسكرة وبيت ،
وسفك نوري السعيد دماء المئات ، وجعل من العراق سجنأ كبيرأ لاهله ،
لانهم عرب نهدوا لنصرة أخوتهم المدافعين عن القناة .

وخرج السعيد من معركة ١٩٥٦ ذبيحأ مستهاضأ هو وحلف بغداد .
وعزّ على اميركا ان يحتضر متبئتها حلف بغداد ، فألت ان تقذف الى
الوجود بمولود شرعي يحمل اسمها ، فوضعت « مبدأ ايزنهاور » أو « مبدأ
الفراغ » ، الذي أحدث صدعأ جديدأ في الجبهة العربية أعمق من ذلك الذي
أحدثه حلف بغداد .

وللمستعمرين ذاكرة عجيبة وقحة أعجب ، فقد أخذوا عام ١٩٥٧
يجترّون اجترار الأنعام فكرة الفراغ الموهوم في بلادنا كما كانوا يجترّون
مثل هذا الكلام الفارغ عشرات المرات من قبل .
كان الفراغ ذريعة المستعمرين في تمزيق الوطن العربي بعد الحرب العالمية
الأولى . قالوا حينذاك ان وطننا يضم أشتانأ متنافرة من السكان بأكل
بعضهم بعضأ ... ويهدّدون أمن العالم وسلامه اذا ماتوكوا وحدهم . وفرض
علينا الانتداب بحجة الفراغ والأمن والسلامة ...
وقالوا بعد الحرب العالمية الثانية أن بلادنا ثغرة خطيرة في بناء الامن

العالمي والسلامة الجماعية . قال ذلك في مجلس الامن عام ١٩٤٥ وزير خارجية
فرانسا (بيدو) ووزير خارجية إنجلترا (بيغن) ، تماماً كما قال
الاميريكيون عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ .

وللمرة الثانية تصدّت حكومة الثورة المصرية لكشف الزيف وتعرية
النوايا واظهار مبدأ أينهارر على حقيقته المطوية ، ونجحت في تجميده بعد
ان اعتنقه أكثر من بلد عربي .

وخلال العامين ١٩٥٦ و ١٩٥٧ مُنّغت الولايات المتحدة في عزل مصر
ونسج المؤامرات على سورية ، وأناطت بالعراق ولبنان والاردن أمر التنفيذ
بالإضافة الى دول حلف بغداد . ولما فضحت سورية خيوط المؤامرات
حمل شعب العراق على نوري السعيد حتى اضطره الى الاستقالة في
حزيران ١٩٥٧ .

وحاول رئيس الوزراء الجديد ، علي جودت الايوبي ، ان يُخرج
العراق من سجنه ويمهّد لعودة الصفاء بين الدول العربية ، الا ان الدول
الغربية والملك وخاله عبد الاله ونوري السعيد وبرلمان نوري السعيد . .
كل اولئك حالوا دون هذه الرغبة النبيلة ، فاستقال الايوبي في منتصف
الشهر الاخير من عام ١٩٥٧ ، وخلفه سياسي هزيل هو عبد الوهاب مرجان ،
وفي عهده التأمّت الوحدة بين مصر وسورية وتألّفت الجمهورية العربية المتحدة
يوم السبت في ١ شباط ١٩٥٨ ، وصادق عليه مجلس النواب السوري
ومجلس الامة المصري يوم الاربعاء ٥ شباط ، واستُقيّ شعب البلدين بصددّها
يوم الجمعة ٢١ شباط .

وأذهلت هذه الانتصارات السريعة المتلاحقة اعوان الاستعمار في العراق
فبادروا الى تغطية هزائمهم بتشكيل « دولة الاتحاد العربي » يوم ١٤ شباط ،
المؤلفة من مملكتي العراق والاردن . وكانت لفظة سياسية بارعة من الرئيس
جمال عبد الناصر تهنّئته لرئيس الاتحاد الجديد ، وكان منظرراً ان يتلقّى رداً
كريمياً يتضمن اعترافاً اخوياً بالجمهورية العربية المتحدة ، ويبدو ان رئيس

الوزراء مرجان كان يميل الى ذلك ، ولكن الرد جاء جافاً لا ينطوي الا على تبجح فارغ ، وأجبر مرجان على الاستقالة في مطلع آذار ١٩٥٨ ليفسح المجال مرة اخرى لرجل المآزق نوري السعيد .

وعكف السعيد على تليفق دستور الدولة الجديدة المرتجلة ، ووضعت مجلساً نيابياً بالتزكية لاقرار هذا الدستور ، وأصبح في منتصف أيار رئيساً للوزارة الاتحادية بينما تقلد وزارة العراق احمد مختار بابان ووزارة الاردن ميمى الرفاعي .

وانصرف السعيد من ثم الى معاونة حكام لبنان المأجورين ، عسكرياً ومادياً ومعنوياً ، على اخماد ثورة شعب لبنان واقحام الجمهورية اللبنانية في التحالف مع الاتحاد الهاشمي .

وفي ظل هذه الحكومة السعيدية المثالية بالنسبة الى مصالح المستعمرين قامت الثورة العراقية الاخيرة ، او بالاحرى كان يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ آخر يوم من أيام ثورة العراق المجيدة التي استمرت منذ ان حلّ الانجليز ضيوفاً غير مكرّمين على تراب العراق العربي . وفي هذه الحقبة الطويلة التي دامت نحواً من ٣٨ سنة تقلّبت على حكم العراق ٥٩ وزارة جابه الشعب اكثرها وتحمل بطشها وتنكيلها .

ولم تنهياً الأسباب بعد لتفصيل الوثبة الاخيرة من نضال الشعب العربي في العراق ، وحسبنا الآن أن نشير الى منجزات ثورة ١٤ تموز في أيامها الأولى ، فمن ذلك :

اعلان الجمهورية العراقية وتشكيل مجلس السيادة وتأليف الوزارة الاولى (١٤ تموز) .

انصاف المضطهدين والمتضررين من سطوة العهد البائد .

مصادرة اموال الاسرة المالكة السابقة وتسجيلها باسم وزارة المالية .

انسحاب العراق من الاتحاد العربي .

اهلان الدستور الموقت (٢٧ تموز) .

اعادة الصلات الدبلوماسية بين الجمهورية العراقية والاتحاد السوفياتي .
اعتراف الجمهورية العراقية بجمهورية الصين الشعبية .
تأسيس علاقات دبلوماسية بين الجمهورية العراقية ويوغوسلافيا .
الغاء نظام دعاوى العشائر .
تطهير الجهاز القضائي والحكومي .
تشكيل منظمات المقاومة الشعبية .
تخفيض اجارات دور السكن .
اصدار قانون معاقبة المتآمرين على سلامة الوطن ومفسدي نظام الحكم .
اصدار قانون بشأن الكسب غير المشروع على حساب الشعب .
تأليف لجنة لوضع قانون الاصلاح الزراعي (١)
والمرتب ان يصدر تصريح واضح عن حكومة الجمهورية العراقية
يعلن انسحابها من حلف بغداد رسمياً بعد ان انسحبت بحكم الواقع (٢) .

(١) صدر قانون الاصلاح الزراعي في الجمهورية العراقية مماثلاً في اكثر خطوته
القانون الصادر في الجمهورية العربية المتحدة، وهو يعين الحد الاعلى للملكية الزراعية بألف
دونم عراقي في الارض المروية (أي ٢٥٠٠ دونم سوري) ، وفي قانون الجمهورية العربية
المتحدة لا يتجاوز هذا الحد ٨٠ هكتاراً أي ٨٠٠ دونم سوري) وبألفي دونم في الارض
البعيلة (أي ٥٠٠٠ دونم سوري) ، وفي قانون الجمهورية العربية المتحدة ٣٠٠ هكتاراً
أي ٣٠٠٠ دونم سوري) .

(٢) خلال طبع صفحات هذا الفصل حدثت تطورات داخلية كثيرة في العراق الشقيق ،
فالقيد عبد السلام عارف الرجل الثاني في ثورة ١٤ تموز أعفي من منصبه الوزاري وعين
سفيراً في بون ، ولما عاد الى العراق قبض عليه في ٥ تشرين الثاني وأعلنت الحكومة انها
ستقدمه الى المحكمة بتهمة التآمر على سلامة الوطن . وفي ١٠ كانون الاول نشرت الصحف
نبأ اكتشاف مؤامرة قيل انها اميركية لقلب الحكم في العراق واغتيال زعماء الثورة ،
وردت بعض الصحف سائمة اخرى تحمل المؤامرة من صنع بعض الساسة الوطنيين المعروفين
مثل رشيد عالي الكيلاني . وفي ١٥ كانون الاول وصل المستر وليم راوتنري مساعد وزير
الحارجه الاميركية الى مطار بغداد فاستقبله الشعب بمظاهرات غاضبة .

محاولة عزل لبنان عن المجموعة العربية ليست من مبتكرات الدكتور شارل مالك ، فهو يلقي في نظراته التاريخية الى القوام العرقي لاهل سورية ولبنان مع انطون سعادة وسعيد نقي الدين واسد الاشقر وسائر القوميين السوريين . ولكن شارل مالك يتزبد عليهم في فصل لبنان حتى عن سورية والمجاهرة بضرورة ذوبانه في كيان الغرب سياسياً واجتماعياً وحضارياً .
وفيلسوف « بطران » - الدكتور شارل مالك - مستهام بحرية الفكر . ظلّ يؤكّد ذلك باللسان مادام استأذناً للفلسفة في جامعة بيروت الاميريكية .

وهو يفهم من حرية الفكر - كما كتب عام ١٩٤٥ - استطاعة الانسان حرّاً ان ينشد الحقيقة ، ويؤمن بها ، ويعلمها ، ويشهد لها ، ويغيّر اعتقاده بها متى عرف حقيقة أصح وافضل .

ونحن ابعد الناس عن معارضة شارل مالك في هذا الميدان ، والذي نعارضه فيه ونحاربه ونسقمه باسم حرية الفكر ذاتها هو ان يحاول فرض معتقداته على شعب كامل ويجرّه الى مالا يؤمن به ولا يرضاه . وهذه هي مصيبة شارل مالك بعد ان اصبح وزيراً لبلاد في الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ ثم سفيراً عام ١٩٥٣ ، وغدت المصيبة كارثة قومية فاجعة منذ ان اصبح وزيراً للخارجية عام ١٩٥٦ .

اجتمعت به في مصيف لبناني منذ خمسة عشر عاماً ، وباركت استقلاله
الفكري ، وأحسست بكرهه العميق للعرب والعروبة ، واقنعت نفسي
يومذاك بان مردّ هذا الكره هو وضع العرب المتخلف ورغبة الاستاذ
الفيلسوف في اصلاح المعائب ومداواة الاسواء والانتهاض بالعرب الى قمم
الامم الراقية .

قلنا لشارل مالك في بيته الشاعر ي الهاديء : نحن معك في تصوير
الواقع ، ونحن بوصفنا اساتذة ننسج للمستقبل نفوساً جديدة يحسن ان
نشخص ونعالج وان نهدم ونبنى .

ذهبنا معه الى أبعد من ذلك .. قلنا له على سبيل المداعبة : نحن نغتفر
لك ما اشتهرت به من شذوذ اذا كان هذا الشذوذ سيؤول في النتيجة الى
تكوين ناشئة مؤمنة بسلطان الفكر وفضيلة التسامح .

قال : اي شذوذ تعني ؟

أجبت : يُقال انك تذهل في تدريسيك أو تتعمد الذهول فتصرخ
وتصمت ، وتبتلع قطع الطباشير ، وترفع بنطالك الى الوركين ، وتمشي
حاملماً جاحظ العينين أو تلحق بالطلبة ساقماً داعياً الى العراك .. ويُقال
ايضاً انك كلما قصدت الى مسقط رأسك في « بطران » كتبت مسبقاً الى
مختار القرية محدداً وصولك ومبارحتك بالساعة والدقيقة والثانية ... حتى
يخفّ الاهلون لاستقبالك ووداعك ...

وضحك « فيلسوف بطران » ضحكته المججلة المعروفة .

وحدث في تلك الآونة حادث طريف روته صحف مصر بالحرف الكبير
ومهدت له بعناوين ضخمة وقدّمته على انباء الحرب العالمية المشتعلة آنذاك .
ذكرت تلك الصحف ان جملاً معدداً للذبح فرّ من المسلخ وقادته حوافره
الى حدائق الملك فاروق فأمر بحمايته ورعايته والحاقه بالاسطبل الملكي
السامي ... ؛ واطنّب المحرّرون في وصف اللقطة الملكية الكريمة ودعوا
للملك العظيم بطول البقاء ودوام السؤدد ...

قال شارل مالك بعد ان تنادرنا طويلا : متى يتور هذا الشعب ، شعب مصر ، على مليكه الخليع ؟ متى يدرك هذا الشعب معنى كرامة الانسان ؟
وحين بدأ شعب مصر يدرك كرامة الانسان بعد استفاقة عام ١٩٥٢
كان شارل مالك قد نسى معنى كرامة الانسان .

اريد ، ايها السادة ، ان استشهد بالكثير من اقوال « تشارلز » كما كان يُحب ان يُدعى ، لأن حرية الفكر تلازمها مسؤولية المفكر ، وشعب لبنان بل الشعوب العربية كلها تعتبر شارل مالك مسؤولاً عن انحراف السياسة اللبنانية ، مسؤولاً عن وأد حرية الفكر والتنكيل بها ، مسؤولاً عن تزييف الحقائق والعبث بمشئمة اللبنانيين ، مسؤولاً عن الرشوة والتضليل والتقتيل وازدراء أبسط القيم الأخلاقية والمفاهيم الانسانية .
كتب شارل مالك عام ١٩٤٥ مقالاً عن حرية الفكر في مجلة الأبحاث التي تصدرها جماعة من أساتيد الجامعة الاميريكية ببيروت . وجاء في هذا المقال :

« نعيش اليوم في لحظة أزمة وتقرير . فأمامنا في العالم العربي عدّة قرارات حاسمة . ثمّت القرار السياسي الذي يجابهنا جميعاً . عليه يتوقف مصيرنا السياسي . وثمّت أيضاً القرار الاجتماعي ، اعني كيفية تنظيم الحياة من جديد في مجتمع أفضل . وثمّت القرار الاقتصادي : كيف ننظّم موارد البلاد وتوزّع خيراتها بالعدل ونوجد فيها صناعة خلاقة تزيد من ثروتها الطبيعية وامكانياتها الانتاجية . وهناك أيضاً القرار الثقافي ، تعيين نوع الثقافة التي نريد شيوعها في البلاد وتوطيد صلتها بالثقافة الاصلية . ولكن فوق هذه القرارات كلها يوجد قرار اخير هو شرطها جميعاً . هذا القرار الاساسي الاخير هو قرار حرية الفكر .

أمامنا ان نقرّر حرية الفكر والضمير او عليها . واذا جاء قرارنا السياسي أمثل ما نصبو اليه ، وكان قرارنا الاجتماعي مُنزلاً ، وصرنا أغنى البشر ثروةً وامتهم اقتصاداً ، وثققتنا بخير الثقافات وأصعبها ، وكان مع

ذلك فكرنا مقيداً وضميرنا مكبلاً ، فبناؤنا كله يرتفع من أساسه على الرمل ، ولن يلبث ان ينهار عند أول عاصفة .

لست حرية الفكر حقاً طبيعياً فلكه بالفطرة او بالغريزة ، ولا هي صفة تحمل علينا بالصدفة أو بالصلاة والصوم البدوي ، رجل الفطرة ، لا يعرف معنى حرية الفكر ، لأنه عبد لغرائزه وخرافات ، عبد لحياه الجامع الالمحدود ، عبد كذلك للطبيعة القاسية الجرداء المحيطة به . الانسان يكسب حريته كسباً ، وذلك بقدر مايرث أحرار الفكر في التاريخ . اما السكائن خارج التراث العقلي الاصيل فلا أمل له قط بتلك اللحظة الحرة التي يرى فيها عين الحق فيصبح انساناً متعالياً حتى على انسانيته . من ابطال الفكر الذين جاهدوا وماتوا في سبيل الحقيقة والحرية تنحدر الحرية علينا هبة خالصة . واذا نبذناهم من تقليدنا بحجة أنهم أبناء أمة غير امتنا ونظرة أخيرة للحياة غير نظرتنا — كأن الحقيقة وقف على امتنا ونظرتنا — اذا فعلنا هذا في تعصب فطري تعس ، بقينا أبد الدهر خارج الحرية والنور نتخبط في ظلمات القدر . اما اذا تبنييناهم ووضعناهم في أسس تراثنا العقلي بحيث تصبح مشاكلهم مشاكلنا ورؤيتهم رؤيتنا ، فسرعان ما تنسبح حريتهم علينا نعمةً لا نحلم بها الان . في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد عاش معلم يوناني اسمه (بروتاغوراس) . كتب هذا المفكر كتاباً « في الآلهة » حمل فيه على تلك الآلهة الوثنية التي كانت شائعة بين الغوغاء في عصره ، مؤكداً بجرأة الحر العارف ان هذا الصنف السخيف من الآلهة لا وجود له في الحقيقة على الاطلاق . لكن الغوغاء التي مسّ نقده عقيدتها وعبادتها ثارت عليه وحرقت كتابه في الساحة العمومية في اثينا . غير ان الحق متى رُوي وُجهر به لم يعد للغوغاء ولا لغير الغوغاء اية سلطة على فعله وانتشاره .

وفي نفس الحقبة عاش سقراط الحكيم ، أبو الفكر الحر كله في التاريخ . أحب سقراط الحقيقة فوق كل اي شيء آخر ، فوق ذاته ومصالحه وأمته ومقدسات عصره الزائفة . نحن

اليوم كالأثينيين على عهده ، نضع المصلحة فوق الحقيقة ، أما سقراط فعاش سبعين سنة والحقيقة في نظره وتصرفه فوق مصلحته ومصلحة أهله . نحن اليوم ، كالفلسطائين في عصره ، نضع الذمة والنجاح السريع فوق الفكر والعقل ، أما سقراط فما فتىء يؤكّد طيلة حياته على ان العقل سيد الكون كله ، وان المتمرد عليه انما يحضن الفناء وهو لا يدري . نحن اليوم نميل الى وضع هذا الشيء الغريب الذي نسميه « السياسة » فوق القيم العقلية ، زاعمين انها تستطيع ان تلعب بمصير الفكر والروح كما تشاء ، اما سقراط فمات لانه عاش على مبدأ ان السياسة ليست كل شيء في الوجود ، بل فوقها أشياء وأشياء ، وفوق الجميع الفكر الحر الذي يستطيع وحده ان يكشف عن المقاييس الأخيرة التي يجب على السياسة ذاتها ان تتبعها والاهوت بنفسها الى الحضيض . نحن اليوم نؤمن بضرورة تكيف النفس من أجل البقاء ، متلونين حسب الظروف ، متجهين ابدأ حيث تتجه الريح ، اما سقراط فلم يؤمن بشيء اكثر من ايمانه ان تمت في الحياة مبادئ ثابتة لا تتغير ، وان الانسان لا يكون انساناً الا اذا أقرّ بهذه المبادئ واستقر عليها ، في اقتناع نير حر تام . نحن اليوم نسخر بأي ثمن في سبيل مجرد البقاء ، نصحي الفكر والمبدأ والحريّة والشرف والحقيقة ، نجود بكل شيء شرط ان نبقى ، دون اي تمحيص لصفة هذا البقاء ، اما سقراط ففي يوم محنته الكبرى لم يتردّد لحظة واحدة في ايثار الموت على البقاء صامتاً في شؤون الحق والحريّة . ولان سقراط أخلص للفكر الحر طيلة حياته ومات في النهاية شهيداً عنه ، ولانه احترم العقل وآمن بقدرته على ادراك الحقيقة ، ولانه تفانى في حبه للحلقة الخاصة من الشباب المتعطش الملتف حوله ، فلم يخذعهم مرة واحدة بل غرس فيهم الايمان بالمثل العليا والتطلع العقلي الدائم اليها ، لانه فعل كل هذا ، نبت من غرسته هذه افلاطون وأرسطو ، الدعامتان الاساسيتان للمدنية الغربية كلها . وان وُجدت اليوم معاهد البحث الحر العالي الكاشف عن حقائق الوجود ببركانها العقلية والمادية التي لا تحصى ، فعلتها الاولى ان

أفلاطون وأرسطو وُجدا ، وعلّة هذين ان سقراط من قبلهما صمد في معركة حرية الفكر حتى النهاية ، منتصراً في جولاته كلها على الغوغاء المظلمة الضائعة .
ومنذ سقراط حتى يومنا هذا لم يضمن تاريخ الانسان في الشرق والغرب
بجنود حرية الفكر . . .

وفي العالم العربي اليوم نريد ان تفتح امام عقول الطلاب المسؤول جميع
معايير الوجود ، بحرية تامة . ولا يتمّ هذا الا اذا تبنيّا تراث الحرية ودجنناه
في كياننا حتى اصبحنا واياه وحدة لا تتجزأ .

غير ان الفكر المسؤول في العالم العربي يعرف حق المعرفة انه لم ينتصر
بعد في معركة حرية الفكر ، بل لم يتر بعد هذه المشكلة كما يجب ان تُثار .
يعرف ان الفطرية والغوغائية والنفعية والظلامية والشعرية والعاطفية
والانفصالية ، كل هذه تضغط عليه ضغطاً يكاد يخنقه ولكنه يعرف في نفس
الوقت ان الفكر الحر وحده هو الذي يقدر ان يبني كياننا العتيد على
اساس ثابت لا يتزعزع . لذلك هو ينظر بتشاؤم ما بعده تشاؤم الى كل محاولة
سياسية او اجتماعية او اقتصادية او ثقافية لا تنهض في جوهرها وروحها على
الحرية الحقّة ، حرية الفكر والمعتقد . فما لم يُعترف بهذه الحرية بجميع
متضمناتها في صلب دساتيرنا وشرائعنا ونظرتنا الاخيرة الى الاشياء ، بحيث
يستطيع الفرد ، بصرف النظر عن بيئته وجنسه وأصله ، بصرف النظر عن
اي ضغط غوغائي ، ان يفكر ما يشاء ويكون من يشاء ، لن تتمكن قط
من ابداع تلك الحضارة العربية الاصلية الجديدة التي نتوق اليها جميعاً .
شرط الكيان كله حرية الكيان وحرية الصيرورة .

ان اكبر عار يلصق بنا جميعاً ان المؤسسات الباحثة بحرية تامة عن
الحقيقة الحقّة الاخيرة تكاد تكون معدومة من العالم العربي ، وان قادتنا
ببذلون لكل شيء الا لتشجيع البحث المنقب الحر . ابن المعاهد العربية
التي تبحر العالم الطبيعي وتعرف حقيقته ؟ ابن الهيئات المسؤولة التي تعرف
حقيقة الانسان ، حقيقة التاريخ ، حقيقة الروح ، حقيقة العقل ، حقيقة

الكائن الأسمى ، بل حقيقتنا نحن في العالم العربي ؟ أليس خزيًا ان تكون حقيقتنا نحن ، حقيقة تاريخنا ونظرتنا وعقليتنا ، معروفة واضحة في الأوساط المسؤولة في الغرب ، بينما نحن نتهرب من معرفتها ومجاهتها خوفاً من غضب الغوغاء ؟ الكيان المغلقة حقيقته عليه ، فضلاً عن حقائق الوجود حوله ، ليس بالكيان السليم ، ولا يقدر مجال من الاحوال ان يقف على رجليه . العقل الحر لا يعترف باي شيء لا يجوز له ان يلج به . الوجود كله من اقدسه الى انفه ، مفتوح بطبيعته امام العقل السليم . اما اذا حجزنا بعض الاشياء عن رؤية العقل بحجة انها « مقدسة » « محرمة » ، فما ذلك الا لاننا غلبنا على امرنا بوجه من الوجوه . والمغلوب على امره يضع غير الحقيقة فوق الحقيقة . لكن العقل والحقيقة معبودته فوق جميع الاشياء ، ولا يمكن له ان ينشدها ويدركها ويتأكد منها الا اذا كان في ذاته حراً وتعهده جو انساني مشبع بالحرية .

حرية الفكر لاتعني الفوضى واللامسؤولية . لاتعني ان اي صحافي او محام او قاجر يستطيع ان يحكم في اي مسألة كما يشاء . حرية الفكر تعني اول ماتعنيه التحرر التام من الأجواء القائمة الخنثاة الشائعة في هذه البلاد ، تلك الاجراء المنفوثة سماً زعافاً ، للفارضة عليك تفكيروها من قبل ، المحشوة بعبادة القوة والتعسف ، القائلة فيك كل تفتّح وكل انطلاق ، المتمسحة باسم الدين والنظام والقومية ، والدين والنظام والقومية براءً كلها منها .

حرية الفكر تعني احترام عقل الغير والتوكيد على قداسة شخصيته . حرية الفكر تتضمن الاقرار بجرمه الضمير ، وان الانسان حر في قراراته الشخصية الاخيرة وحرية هذه يجب ان تضان من كل ضغط غوغائي ...

أمنيقي ان يحاسب شارل مالك عن حرية الفكر هذه ، لماذا تنكّرت لها حكومة هو أبرز أعضائها ؟ لماذا قتلت الأحرار وأفسدت حرية الضمير ؟ أمنيتي ان يمثل شارل مالك أمام محكمة طلابه الذين فاشدهم ان يكونوا أحراراً ، فلما أرادوا ان يكونوا احراراً سجنهم وعذبهم ولعب بمصيرهم .

أمنيته ان يُسأل عن شرعة حقوق الانسان ماذا صنع بها في لبنان ،
وهو أحد من صاغوها في منظمة الامم المتحدة .

ففي صيف عام ١٩٤٦ تحدّث شارل مالك في المجلس الاقتصادي
الاجتماعي المنعقد بنيويورك فقال : « لاشيء يهنا ويثير حماسنا في لبنان
أكثر من قضية الحقوق الانسانية والحريات الاساسية . ان تاريخ وطني ،
لقرون خلت ، هو بالضبط تاريخ وطن صغير يجاهد ضد كل العقبات في
سبيل المحافظة على حرية الفكر والضمير الحقّة . وقد وجدت أقليات مضطهدة
لا تعد ، على مر العصور ، حمى على غاية التساهل في وطني ، حتى ان قاعدة
كباننا عينها هي احترام كلي لتباين الرأي والمعتقد ، لذلك لاشيء يسرفنا
ويتزاحج بالفعل مع حقيقة خلقنا الاساسية اكثر من انشاء مسؤول ومعاودة
فعلية لشرعة أساسية ترتكز على قاعدة الضمير الانساني في أجود حال
له وأسماها .

انه لمن السهل الكلام عن الحرية بوجه عام ، كما انه من السهل تركيزها
تركيزاً اعتباطياً على مظهر او مظهرين من الحياة الانسانية . ان ما يهنا في
لبنان وما نحاول تحقيقه فوق كل شيء آخر ، هو حرية الفكر والضمير ،
حرية العمل والوجود .. » .

وفي كانون الثاني ١٩٤٩ يلقي شارل مالك محاضرة عن شرعة حقوق
الانسان في الجامعة اليسوعية ببيروت يذكر فيها في جملة ما يذكر :
« في هذا البلد اللبناني وفي الشرق العربي على العموم لاشيء
يرعبني ويقض عليّ مضجعي اكثر من تشكيكنا واستهزائنا بالشؤون الاخيرة
(حقوق الانسان) . فنحن في الدرجة الاولى تجاريون عمليون
نفعيون ننشد جنى الفائدة السريعة من كل شيء .
أما ان نقف بنحشوع الازل أمام الحق ناشدين حضرته من
أجل ذاته ، فهذا مالا نفقه له معنى او على الاقل مالم نعتد عليه . وعندما
اتأمل بوضعنا هذا الحزين ، كثيراً ما أسائل نفسي بروح قانطة : ما هو سبب

نفورنا من رؤية الحق؟ ترى أياكون سببه ان الحق ذاته سبق ونفر منا؟ أياكون سبب عدم محبتنا له انه هو لايجبنا؟ هذا بالطبع ايها السادة اشراف على الكفر، لكن الآلام الكيانية الحفية تكاد 'تكفّر' لولا ان الحق ذاته ينبليج في اللحظة الاخيرة فرحاً ووثوقاً ومحبة في القلب الكسير .

ومهما يكن الامر فما لاشك فيه ان استهزائتنا تشك في فائدة شرعة حقوق الانسان . مما لاشك فيه ان التساؤلات الآتية في كل بال وعلى كل لسان : ماهي القيمة العملية لاعلان حقوق الانسان؟ هل يعني هذا الاعلان ان الشعوب والحكومات ستتارس هذه الحقوق والحريات في الحال ، او على الاقل ستتخذ اجراءات لتطبيقها مع الزمن؟ هل يعني هذا الاعلان انني انا وانك انت كموطن لبناني سنمنح هذه الحقوق كلها غداً صباحاً فننعم في الحال بكل ماننادي به من خيرات وحريات؟ اليس هزءاً وسخرية ان تتحاور الدول حول حقوق الانسان مدة سنوات ثلاث وهذه الحقوق مداسة بمتهمة في كل مكان؟ هل الدول بالفعل جادة بالامر وهي معتزمة على احترام ما أقرته الهيئة العامة وأوصت به من حريات وحقوق؟ ليست كل هذه الجدالات وللنقاشات والاعلانات كلاماً فارغاً لا طائل تحته واحلاماً مرّضية لامتسولة؟ اليس هو بالفعل افلاس الامم المتحدة ان تنهم لهذه الاعلانات النظرية ، والسياسة العملية تسير في منطقتها المألوف ، منطق البطش والظلم ، منطق استبداد القوي بالضعيف؟

يشير البعض هذه التساؤلات الخطيرة لا أنهم توّاقون الى الحقيقة قلقون على الكيان بل لفنائية هدّامة رافضة تعصف بعقولهم . يثيرون هذه التساؤلات والشكوك لانهم آخر الامر لا يؤمنون بإمكان التعاون الدولي، بل يؤثرون ان تذهب كل دولة وكل شعب مذهبه الخاص في النظر الى الانسان . فهم لذلك لا يؤمنون بأن الانسان واحدي جوهره ايها وكيفها كان ، بل يوقفون حقيقته على البيئة والامة التي ينتمي اليها . وهذا بالطبع يتعارض مع البراءة الحاضرة التي تعلن نفس الكرامة لكل انسان في كل

ظرف . واذن لا يبدي هؤلاء الظرفاء قلقاً حقيقياً على تطبيق هذه الحقوق بل يكشفون في براعة شكهم عن رفضهم الأساسي للكرامة الانسانية الواحدة . ويشير البعض الآخر هذه التساؤلات لانهم يفتنون في الحال الى ان هذه الحقوق تتعارض مع بعض العقائد التي شتبا عليها . وهذا بالطبع يقلقهم لانهم يعيشون ، مادياً وخيالياً وعاطفياً ، على تأصل هذه العقائد في نفوس الغوغاء التعسة . وبما انهم يؤثرون الظلام على النور ولا يعرفون نعمة الطلب والوصول ، نعمة نقد النفس حتى فيما ورثوا من مقدسات ، تراهم يرفضون مسبقاً كل ما لا ينطبق انطباقاً تاماً على عقائدهم . فكأنهم هم المقياس وكأن العالم لا يتحرك الا اذا حك بهم ، مع ان العالم والنور يسيران بثبات حتى دون معرفة وجودهم . واذن تساؤلهم حول امكان تطبيق هذه الحقوق لا يعني ايماناً بها وبالتالي قلقاً حقيقياً محبباً على تحقيقها ، بل على العكس يعني انهم بادية ذى بدء لا يؤمنون بها قط وانهم لا يكرهون شيئاً اكثر من كرههم تطبيقها ، لانها اذا طبقت وانتشرت وحقق الانسان بها كرامته وحرية الكاملتين ، ذهبت بعض عقائدهم هباءً منثوراً وتبخّر كل اساس لعيشهم الغوغائي المهني .

ويشير البعض الآخر هذه التساؤلات لان مشاكلهم الشخصية ملحة حادة تتطلب حلاً سريعاً . ولذلك تراهم يرتمون على احدث البدعات متنقلين من شعوذة الى شعوذة على فيها من السحر ما يفرج كربتهم ويرفع عن صدرهم الهموم . الى هؤلاء اقول بتمتهى المحبة : ان الامم المتحدة لاتؤمن بالسحر ولا تعنى بالشعوذة ولذلك لا يفيد اعـلان حقوق الانسان انكم غداً ستتمكنون من تسديد ديونكم او ستوظفون او سينظر في هذه او تلك من قضاياكم المعلقة ان هذا الاعلان هو وصف نظري دقيق مسؤول لكرامتكم الانسانية وقد اتفقت عليه الدول ، بما في ذلك لبنان ، فوجب عليكم اولاً ان تتأملوه وتستوعبوه حتى يستقر في نفوسكم وتتيقنوا من حقيقته ، وعندئذ يتوجب عليكم ان تحملوا سلطاتكم ، بالطرق الاقناعية الشرعية ، على نحو

قوانينكم بما يتلاءم مع نصوص هذا الاعلان ... »
أصغيت الى ماطالب به شارل مالك مستمعيه ؟ طالهم بأن يحملوا
سلطاتهم بالطرق الاقناعية الشرعية على تحويل القوانين بما يتلاءم مع نصوص
وثيقة حقوق الانسان .

وإذا كانت هذه القوانين صالحة في الاصل ، وكانت الحكومة تترقبها
وتلهو بها وتمطل مفعولها ؟

هل تجدي حينذاك « الطرق الاقناعية الشرعية » ؟ اظن ان شارل
مالك نفسه يجيب على هذا السؤال المخرج بقوله : في مثل تلك الظروف
تجب الثورة على الحكومة ، وهو بذلك يبرر ثورة مايو ١٩٥٨ في لبنان .
ولقد أسرفت في ايراد منشور شارل مالك كما أسرفت من قبل في
الاستشهاد بأقوال الحبيب بورقيبة وفاضل الجمالي . ذلك انني مؤمن بأن
مقاضاة التاريخ رجال الفكر من ساسة العرب ستكون اعسر من مقاضاته
الساسة المحترفين . وازدت منذ الآن ان ادلّ محكمة التاريخ على مايقنعها
من حجج ومستندات ...

ولسوف يتعلّل الدكتور مالك أمام عتبة التاريخ بأنه لا يستجريء
الحياذ السيامي في ايجابيته او سلبيته ، ولا يتحصّس شيئاً يشدّه الى مصير
ملايين العرب ولا يطيب له ان يذكرهم او يذكر انه منهم كما دأب في ان
يفعل صديقه وزميله الدكتور قسطنطين زريق ، وهو لا يرى منكرآ ان
يتماحض الهوى مع الاميريكيين ويمشي بين يدي رغباتهم . ويرد التاريخ
على الفيلسوف المتأمرّك بقولة فيلسوف اميريكي صميم وهو جون ستيوارت
ميل الذي كتب منذ قرن : لو أجمع البشر كلهم على رأي وشذّ واحد
بفردته عنهم لما جاز لهم ان يسكتوه ، كما انه هو ، لو أوتي القوة ، لا يجوز
له اسكاتهم ، وانه لا يمكن التأكد من ان الرأي الذي نحاول خنقه زائف ،
وان خنقه — حتى لو تأكدنا من زيفه — شر ايضاً ..

وشارل مالك قد أوتي القوة ، وجوزّ لنفسه ان يخنق شعباً يعانده في

الرأي وينكب عنه في الميول .

* * *

والبطل الثاني في مأساة لبنان الجريح هو سامي الصلح . وليس عندنا حديث طويل عن هذا الصنف من الناس . عاش هذا الرجل عثمانياً - ان كان حقاً انه عاش - وسميوت عثمانياً . وهل تؤمل رعشة عربية عطوف ممن لم يقرأ في حياته التافهة كلها كتاباً عربياً واحداً؟! .

* * *

وثالث الابطال - بل سيدهم - كميل شمعون . كهل دمتم المظهر مهيب الطلعة ، اصبح عضواً في البرلمان اللبناني عام ١٩٣٤ وهو في ربيع العمر ، وأُسندت اليه وزارة المالية عام ١٩٣٨ . وعُرفت عنه في مطلع حياته السياسية امور ثلاثة : الطموح والفقر والحرص على استقلال لبنان في كنف الفرنسيين . ولما انهزمت فرانس في مستهل الحرب العالمية الثانية أدار لها ظهره وركز آماله كلها على الاسد البريطاني . ولم يغفر له الفرنسيون تحوُّله عنهم فكانوا اول من سماه بعميل الانجليز .

وفي انتخابات عام ١٩٤٣ ناصر الفرنسيون جماعة السيد اميل اده ، والتزم البريطانيون جانب الشيخ بشارة الخوري واشياعه ، ومن بينهم السيد كميل شمعون الذي حاربه خصومه بعنف ناسبين اليه التفريط في استقلال لبنان والميل الى سياسة التكتل العربي .

وكان أن فاز المحامي كميل شمعون بالنيابة ، واصبح وزيراً للداخلية في الحكومة الاستقلالية الاولى التي التقها المغفور له رياض الصلح في ظل رئيس الجمهورية الجديد الشيخ بشارة الخوري .

وقلوب العرب كلهم تذكر البيان التاريخي الذي ألقاه رياض الصلح باسم حكومته في الندوة النيابية بتاريخ اليوم السابع من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٣ ، ذلك البيان الذي دعت به لبنان بوثيقة الاستقلال ، ومنح النواب الحكومة تقمهم بالاجماع على وعد الاستمساك بما جاء فيه .

وقد جاء فيه :

« ان لبنان مدعو كغيره من بلدان العالم الى التعاون الدولي تعاوناً يزداد وثوقاً يوماً فيوماً . والعصر يأبى العزلة التامة للدول كبيرها وصغيرها . ولبنان من أحوج الدول الى هذا النوع من التعاون ، وموقعه الجغرافي ولفة قومه وثقافته وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقاته بالدول العربية الشقيقة في طليعة اهتمامه . وستقبل الحكومة على اقامة هذه العلاقات على أسس متينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده الحاضرة ، فلبنان وطن ذو وجه عربي يستسيغ الخير النافع من حضارة الغرب .

ان اخواننا في الاقطار العربية لا يريدون للبنان الا ما يريدونه ابناؤه الاباء الوطنيين ، نحن لانريد له الاستعمار مستقراً ، وهم لا يريدونه للاستعمار اليهم بموا ، فنحن وهم اذن نريده وطناً عزيزاً ، مستقلاً ، سيداً حراً » .

وعلى مبدأ عروبة لبنان واستقلاله وحياده وتضافره مع الدول العربية الاخرى اعترفت هذه الدول بحدوده وضمنت سلامة ارضه ، وذلك عندما وقعت بروتوكول الاسكندرية في السابع من تشرين الاول عام ١٩٤٤ . ووثيقة الاسكندرية هذه ادخلت لبنان في جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ . كان السيد كميل شمعون اذن احد اركان الوزارة الوطنية الاولى التي حازت من الدول العربية جميعها الاعتراف الضريح باستقلال لبنان ، لانها اكدت عروبتها واعلنت نفرته من محاضنة الاجنبي .

وكان كميل شمعون ايضاً مع الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح حين اعتقل مندوب فرانسوا (هيللو) رجال الدولة اللبنانية وبعض النواب على اثر الجلسة التاريخية التي عقدها المجلس النيابي في ٨ تشرين الثاني من عام ١٩٤٣ وأقر فيها مشروع الحكومة لتعديل الدستور وتجريده من كل ما يشوب استقلال لبنان .

ويعترف كميل شمعون نفسه بأن ضغط الشعوب العربية وحكوماتها كان له وزنه العظيم في حمل فرانساً على تقبّل استقلال لبنان الكامل واعادة الوزراء الى مناصبهم بعد أحد عشر يوماً قضوها معتقلين في حصن راشيا . وبدءاً من ذلك الموقف الصلد تخلّت فرانساً عن جميع ميزات الانتداب وجلت جيوشها عن أرض لبنان العطرة في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦ .

ان الدول العربية كلها قد دعمت استقلال لبنان بالقول وبالعمل . ولعلكم تذكرون ان قادة سورية الوطنيين كانوا في عهد الانتداب الفرنسي يجعلون الوحدة السورية في رأس مطالبهم ، ويدخلون ضمن هذه الوحدة ماضية الجزائر غورو الى متصرفية جبل لبنان عام ١٩٢٠ . وتعرفون ان الجزائر غورو أعلن تشكيل « دولة لبنان الكبير » في اول ايلول ١٩٢٠ من متصرفية جبل لبنان القديمة مع طرابلس وبيروت وصيدا وصور المنتزعة من ولاية بيروت ومع بعلبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون المنتزعة من ولاية سورية . وكانت متصرفية جبل لبنان الممتازة لا تريد في الحوزة عن ٥٧٤٠ كم^٢ ولا يتجاوز سكانها ٤٨٠,٠٠٠ نسمة ، فرجع القائد الفرنسي مساحة « لبنان الكبير » وسكانه الى الضعف .

تنازل السوريون فرحين عن كل مطلب لهم في لبنان عندما وثقوا انه لن يكون وكرراً للاجنبي المتآمر ، فكانوا في حرصهم على استقلال لبنان لبنانيين اكثر من شارل مالك وكميل شمعون وسامي الصلح الذين فتحوا ابواب لبنان لتلججه جيوش آيزنهاور في السادس عشر من تموز ١٩٥٨ .

الا تذكرون ان حكومات لبنان كانت تقاوم كلها مشروع سورية الكبرى الذي تبنته الحزب القومي السوري ، وان حكومة حسني الزعيم سلّمت حكومة لبنان زعيم هذا الحزب انطون سعادة الذي خلق في لبنان أزمة مجرمة كادت تعصف بكيانه في حزيران ١٩٤٩ ، وأعدم في تموز من ذلك العام ؟

★ ★ ★

وشيء آخر جاء في « ميثاق الاستقلال » الذي تحدثنا عنه ، وكان
كميل شمعون احد اعضاء الحكومة التي التزمت به ، وهو محاربة الطائفية .
يقول بيان الحكومة الاستقلالية الاولى :

« ومن اسس الاصلاح التي تقتضها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية
والقضاء على مساوئها ، فان هذه القاعدة تقيّد التقدم الوطني من جهة وسمعة
لبنان من جهة اخرى ، فضلاً عن انها تسمم روح العلاقات بين الجماعات
الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني . وقد شهدنا كيف ان
الطائفية كانت في معظم الاحيان اداة لكفالة المنافع الخاصة كما كانت اداة
لايهان الحياة الوطنية في لبنان ايهاً يستفيد منه الاغيار ، ونحن واثقون انه
مضى غمر الشعب الشعور الوطني الذي يتورع في ظل الاستقلال ونظام
الحكم الشعبي يقبل بطمأنينة على الغاء النظام الطائفي المضعف للوطن .

ان الساعة التي يمكن فيها الغاء الطائفية هي ساعة يقظة وطنية شاملة
مباركة في تاريخ لبنان . وسنسى لكي تكون هذه الساعة قريبة باذن
الله . ومن الطبيعي ان تحقيق ذلك يحتاج الى تمهيد واعداد في مختلف
النواحي ، وسنعمل جميعاً بالتعاون ، تمهيداً واعداداً ، حتى لا تبقى نفس
الا وتطمئن كل الاطمئنان الى تحقيق هذا الاصلاح القومي الحظير .

من ذا الذي دأب على ايقاظ الفتنة الطائفية في لبنان ونفت مومها ونشر
اباطيلها ليتسمر على كرسي الرئاسة ويعبّ واسرته واشياعه من نعمها ؟ انه
كميل شمعون .

عندما رشّح نفسه لهذا المنصب عام ١٩٥٢ كان يتهم منافسه حميد فرنجية
بأنه مسيحي متعصب يكره العرب والمسلمين . وعندما عمل على تعديل
الدستور لتجديد رئاسته عام ١٩٥٨ زعم انه حامى المسيحيين والمدافع عن
سيادة لبنان ضد الخطر العربي الاسلامي . .

كميل شمعون هو الذي افتضح تضليله حينما سعى للتحالف مع دولتين
عربيتين مساهمتين ملكيتين : العراق والاردن . وهو الذي انكشف حرصه

الكاذب على استقلال لبنان حينما سلم قياد لبنان لسفراء امريكا وانجلترا وفرنسا .

السرف في كل ذلك هو ان كميل شمعون مفهوم بالجاه والثراء ، ولا سميل اليها الا اذا حبس نفسه كرسي الرئاسة واستمر يستعطي المال من امريكا وحلف بغداد (١) . وهو يعرف ان مصيره بعد ترك الرئاسة سمسار

متجول في دول امريكا اللاتينية على احسن احتمال .
الطائفية فشل كميل شمعون في بعثها لأن غبطة البطريرك الماروني بولس المعوشي وأئمة الدين للطوائف كلها وقفوا عزيمتهم على تعرية مقاصد شمعون وتحذير المسلمين والمسيحيين على السواء من دخيلته الآثمة .

والطائفية فشلت لأن شعب لبنان يعرف ان مرماها موت لبنان وحياة كميل شمعون . وكاد رد اللبنانيين على طائفية شمعون خلق جبهة مسيحية اسلامية للدفاع عن حياة لبنان .

• • •

وفي « وثيقة استقلال لبنان » التي كفلتها حكومة رياض الصلح عام ١٩٤٣ وعاقدت عليها الشعب عهد بأن « يشعر بنعمة الاستقلال وفضائله كل فرد من اللبنانيين في كل مرافق الحياة فيلمس ميزات في حسن الادارة واستقامة العمل وشيوع المساواة وازدهار الاقتصاد اللبناني » .

(١) كشفت محاكمات بغداد عن المبالغ الضخمة التي ابتزها كميل شمعون من خزينة الدولة العراقية . وفضح الزعيم صائب سلام استعداد كميل شمعون لان يمشي في اي ركاب شريطة تجديد رئاسته ، في مذكراته التي نشرتها مجلة (صباح الخير) القاهرية خلال شهر تشرين الاول من هذا العام . قال صاحب المذكرات :

عرض علي كميل شمعون رئاسة الحكومة وأعطاني كل ما اريد مقابل موافقتي على تجديد رئاسته . ورفضت ذلك . وعاد يقدم عرضاً آخر هو رئاسة الحكومة بما فيها من منافع مادية ضخمة مقابل عدم معارضي فقط للتجديد . ورفضت ذلك ايضاً . وقدم عرضاً ثالثاً مثيراً هو استعداده للدخول في اتحاد فيدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة مع رئاسة الحكومة !!

ونكت كميل شمعون هذا العهد كما نكت كل عهد ، ونحو لبنان في
ظله الى متجر مفلس يُبذل فيه بالمجان للخلاص والاشباع جميع المرافق والمنافع
وُتباع الذمم والضائر.

وكان شمعون قد عُيّن وزيراً لبلاده في لندن عام ١٩٤٤ ؛ ونجده عام
١٩٥٢ في اهاب «تارتوف» ينادي بشعارات الاستقامة والنزاهة ويندد
بفساد الحكم واستغلاله لمآرب المقربين ، وتلقى دعوته رجعاً في مشاعر
المواطنين فيتخلى الشيخ بشارة الحوري عن منصب الرئاسة ويتولاه «تارتوف»

* * *

كانت غايتي من هذا العرض بيان العوامل الغورية لثورة أيار ١٩٥٨ في
لبنان .

على أن طور التحفيز لهذه الثورة بدأ عام ١٩٥٤ مع تبشير حلف بغداد.
ففي نيسان ١٩٥٤ انعقدت أولى حلقة من هذا الحلف بين تركيا
والباكستان ، وكان مرتقباً ان تتلاحق وتتشابك بقية الحلقات . واذا عبّر
اللبنانيون عن مقهم للتحالف التركي الباكستاني فذلك لانهم حرصوا على
تحذير الحاكمين من الانجراف في سياسة الاحلاف الاجنبية .
وفي العام ذاته عقد فاضل الجمالي الميثاق السري للامن المتبادل بين العراق
والولايات المتحدة .

وليس من قبيل الصدفة ان يتسلم رئاسة الحكومة العراقية نوري السعيد
في آب ١٩٥٤ وان يصبح سامي الصلح رئيساً للوزارة اللبنانية في ايلول من
السنة ذاتها ويحتفظ بالحكم حتى ايلول من العام الذي يليه .
وأبرم ميثاق الدفاع المشترك بين تركيا والعراق في ٢٤ شباط ١٩٥٥ .
وفي العشر الاول من آذار ١٩٥٥ عُقد بيروت مؤتمر عام لختلف
الاحزاب والهيئات الوطنية ، صدر عنه بيان يناهض الاتفاق التركي
العراقي ويطلب الى الحكومة اللبنانية بعزم واصرار شجب هذا الاتفاق
والسير في سياستها الخارجية على دعامة الحياد والتعاون المحلص مع الدول العربية .

وفي آذار ١٩٥٥ أيضاً خرج الى الوجود مشروع الدفاع المشترك بين مصر وسورية والمملكة السعودية ، ذلك المشروع الذي سيتم تكوينه في تشرين الاول .

ورفض حكام لبنان الانحياز الى الحلف العربي الحاصل وظلت قلوبهم وجيوبهم مشدودة الى حلف بغداد الاجنبي ؛ الا ان يقظة الشعب جعلتهم يمتنعون على حسرة عن الاندماج رسمياً في حلف الاستعمار ، ولكنهم آلاوان ينسجموا مع سياسته بالفعل . ورأينا كميل شمعون يزحف الى انقرة في آخر آذار ليمطئن جلال بيار على مشاعر حكومة لبنان ، ويرد له الزيارة هذا الاخير في شهر حزيران . ويعم لبنان مد عارم من السخط والاحتجاج . وفي نيسان من ذلك العام أيضاً يلتئم مؤتمر باندونغ ليؤلف ما بين الشعوب الآسيوية والافريقية ويحشد جهودها لمكافحة الاستعمار ، ويمثل اميريكاف في هذا المؤتمر ، ويدافع عنها ويطري سياستها ، شارل مالك وفاضل الجمالي ..

وعام ١٩٥٥ هو ايضاً عام تدير المؤامرات والاغتيالات من بيروت ، ولازلنا نذكر لوعة الوطن العربي كله بمقتل العقيد عدنان المالكي . ثم تتلاحق الامور على النحو الذي تذكرون ، ويتوارى سامي الصلح الى حين ، وتقوم حكومة عبد الله اليافي وصائب سلام وتنتهج مسلكاً مغضباً لشركات النفط الاميركية ، ويحدث الهجوم الغادر على مصر ، ويجتمع ملوك العرب وحكامهم في بيروت خلال تشرين الثاني ١٩٥٦ ، ويرفض كميل شمعون ان يقطع علاقات بلاده بفرانسا وانجلترا تضامناً مع الاقليم المصري المعتدى عليه ، وتستقيل حكومة اليافي ويعود سامي الصلح الى الحكم في الشهر الاخير من عام ١٩٥٦ ويضم اليه في الوزارة صديق اميريكاف العظيم شارل مالك .

وفي عام ١٩٥٧ يتجرّد الثلاثي شمعون - الصلح - مالك من كل قناع ويسفرون عن وجوههم المكفهرة ويجعلون من لبنان اقطاعاً لحلف بغداد

ومصنعاً للمؤامرات على استقلال سورية . وفي ١٦ آذار من ذلك العام يعقد شارل مالك اتفاقية تبعية لبنان لأميركا لقاء عشرة ملايين دولار يتناهبها الثلاثي الكئيب مع الموظفين الأميركيين .

ولكن ولاية شمعون تنتهي حكماً في أيلول ١٩٥٨ ، والمادة ٤٩ من الدستور اللبناني المعدل لا تجيز إعادة انتخاب الرئيس إلا بعد ست سنوات لانتهاء مدة ولايته . ومعنى ذهاب شمعون انهيار الثالث الحاكم وانقطاع موارده الثروة . فليبق اذن شمعون وليعدل الدستور رضي الشعب ام كره . .

ولماذا لا تزور الانتخابات وتستخدم وسائل الضغط والرشوة والتغريب؟ ذلك شيء مألوف في تركيا والعراق ، وتستطيع حكومة لبنان الاعتماد على خبراء مجريين مستوردين من هذين البلدين . .

وفي ٣٠ ايار ١٩٥٧ سالت دماء الشعب غزيرة في لبنان لأن هذا الشعب طالب بحكومة حيادية تشرف على الانتخابات . وزُيِّفت الانتخابات على النحو الذي يكفل لشمعون برلماناً مدركا اشبه ببرلمانات التركية في العراق . . .

ومنذ ايار ١٩٥٧ حتى ايار ١٩٥٨ عاش لبنان في معركة حقيقية مع الثالث الحاكم ومن ورائه أميركا وحلف بغداد ومن امامه العصابات المسلحة المأجورة .

وقامت الجمهورية العربية المتحدة في شباط ١٩٥٨ وعبر الشعب اللبناني عن مقته لحكومة العملاء على أرضه برسائل مئات الألوف من ابنائه لتحية الرئيس جمال عبد الناصر في دمشق .

كان شعب لبنان في ثورة على حكومته قبل ميلاد الجمهورية العربية المتحدة ، ولما وُلدت اتمتها تلك الحكومة باشغال نار الثورة في البلد الهادئ المطمئن . . .

ولم يكن مصرع الصحافي الحر نسيب المتني في ٨ ايار مبدءاً لانطلاقة الثورة بل مبدءاً لتنظيمها وتعميمها وتركيز قيادتها .

وجايت حكومة لبنان ثورة الشعب بسلاح حلف بغداد واموال اميريكا .
وكان الاسطول الاميريكي السادس لايبارج المياه اللبنانية تأييداً لعملائه
وارهاباً لأبناء لبنان الاحرار .

وطلبت حكومة لبنان في ٢٢ ايار الى مجلس جامعة الدول العربية ان
يبعث شكواها ضد الجمهورية العربية المتحدة التي تقسر اللبنانيين على العصيان
وتمنعهم السلاح وتأمرهم بالقتل . . . ، وقدمت مثل هذه الشكوى الى
مجلس الامن .

واجتمع مجلس الامن في ٢٧ ايار وقرّر ارجاء بحث الموضوع حتى ينظر
فيه مجلس جامعة الدول العربية المقرر عقده في اليوم الاخير من الشهر ذاته
وكان التجاء حكومة لبنان الى مجلس الجامعة العربية امراً اليمياً في ذاته ،
ولكنها عندما رفضت قراره بالوساطة وأصرّت على بحث شكواها في مجلس
الامن خرج الامر عن كونه خلافاً بين شقيقتين يلتزمان التقاهم ، واصبح
واضحاً ان حكومة لبنان تعمل على تدويل لبنان وسحق الثورة الوطنية
بينادق الاميريكيين والانجليز .

وتذكرون ان مجلس الامن قرّر في ١١ حزيران تكوين قوة طواريء
دولية ترابط على الحدود بين الاقليم السوري ولبنان . ولم تستطع هذه القوة
الدولية تسجيل حادثة واحدة تدين الجانب العربي .

ثم كانت ثورة العراق في ١٤ تموز ، وقرّت اعين شمعون والصلح ومالك
برؤية الجنود الاميريكيين يدوسون حرم لبنان في ١٦ تموز . وظفرت الثورة
المباركة - على ما تعرفون - بترشيح اللواء فؤاد الشهاب لرئاسه الجمهورية في
اليوم الاخير من تموز ، على ان يتولى سلطاته الدستورية في الرابع والعشرين
من شهر ايلول (١) .

* * *

(١) بضغط الرأي العام العالمي انسحب الجنود الاميريكيون من لبنان في آخر تشرين
الاول كما انسحبت القوى البريطانية من الاردن . وقرر ان يحلوا فريق المراقبة الدولي
عن لبنان في موعد لا يتجاوز منتصف كانون الاول ١٩٥٨ .

قالوا عن ثورة لبنان انها اضطراع بين المسلمين والمسيحيين ، وقال رؤساء جميع الطوائف الدينية في لبنان انها انتفاضة وجدانية على الفساد الداخلي والانقياد الخارجي وذكرت جريدة « لوموند » الفرنسية ، المعروفة بميولها الغربية ، في عددها الصادر بتاريخ ١٥ - ١٦ تموز ، ان ٤٠ ٪ على الاقل من مسيحيي لبنان يؤيدون الشوار ويشتركون في الثورة .

وقالوا عن ثورة لبنان انها من صنع زعماء مونتورين لانهم فقدوا مقاليد الحكم . والذين يروجون هذا المزعم يتناسون ان حكومة عبد الله اليافي هي التي قدمت استقالتها لتصون ماء وجهها .

ورويت اشياء اخرى لتهوّن من شأن هذه الثورة . فلقد كتب محررو بعض الصحف الاجنبية ان لبنان لم يثر بل مثل الثورة . وذلك لان الحكومة تعرف مقر قيادة الثائرين ولا ترسل قواها للقبض عليهم ومحاكمتهم واعداءهم ، بل هي لاتمنع عنهم المؤن والنور والماء ، وترسل موظفيها لاصلاح هواتفهم اذا اصابها تعطل ، وتسمح لهم بارسال برقيات الاحتجاج عليها وثلبها من مراكز البريد الرسمية . وبعض ذلك صحيح ، ولكن علته ليست في ممانحة نفس الحاكمين بل في عجزهم عن تسخير قوى الجيش والامن الوطنية والموظفين الوطنيين لرغباتهم المجرمة .

* * *

والعرب في جميع اقطارهم لا ينكرون على لبنان استمساكه بالاستقلال حتى عن المجموعة العربية ، ولكن ما لا يستطيعون تقبله هو ان يصبح امراةيل الثانية مسدساً يقبض المستعمرون على زفاده ويهدّدون به دنيا العربوبة حين لاتستغذي لمشيئتهم .

ولست أحداث السنوات الاخيرة هي التي تثير وحدها مخاوف العرب ، فهم لا يزالون يذكرون رسالة المونسنيور مبارك ، مطران بيروت ، حين اقترح في تشرين الاول من عام ١٩٤٧ ان تضيق حوزة لبنان ليصبح مسيحياً

محصاً، وتؤلف دولة يهودية في فلسطين، ثم يتعاون لبنان المسيحي وفلسطين
اليهودية على صدّ الاسلام وضمان السلم في الشرق الاوسط بالاعتماد على
الصدقة الاميركية . . .

وثورة لبنان العربية حملت الطمانينة الى النفوس، ودعمت استقلال لبنان
حين كان خصوصها يفرطون فيه .

والوحدة العربية المرجوة لن تكون شيئاً ذا قيمة اذا لم تكن اجتماع
قلوب تمفو الى الوحدة وعقول تعي ضرورتها وتجد فيها أمنها ومصالحها .
ولن يضار العرب ان يكون للبنان استقلاله الكامل شريطة ان يكون
استقلالاً صحيحاً، وان يكون متعاوناً معطاءً مع الدول العربية الاخرى
وليس منعزلاً مزوراً الوجه .

والذين يرجعون ان يبقى لبنان وحدة ذات كيان منفصل ضمن الوحدة
العربية لهم اكثر من حجة . منها ان بعض المسيحيين من ابناءه قد لا يقدر
البون بين الوحدة العربية والجامعة الاسلامية، ولا يميزون ما كان في عهد
بني عثمان عما سيكون في فيء القومية العربية المتسامية، وقد أتى على لبنان
زمان وهم بعض ابناءه بايحاء المستعمرين ان من الخير لهم ان يعتزوا بالفينيقية
المندثرة، كما كان كثير من المصريين يفاخرون بالفرعونية . وفي مرحلة ما
من تاريخ لبنان زعم احد كهانه ان الموارنة يتحدرون من اصل حثي آري
بجدة انهم احفاد الجراجمة او المردة سكان جبال أمانوس الاقدمين . . .

والعلم الاتنولوجي والتاريخ يبطلان هذه الأوهام بسهولة ويسر، لكنهما
لا ينفيان وجود نزعة متأصلة في التمييز والاستقلال .



ان ضمن استقلال لبنان العربي هو ذلك الذي يضمه ويحوطه سائر

العرب ، وقد ثار شعب لبنان على كميل شمعون لانه جعل من استقلال لبنان
المنتزع عام ١٩٤٣ والموثق بعهد الاسكندرية ، جعل منه شيئاً مستخاد ميمياً
أشبه بذلك الذي طالب به داود عمون والبطريك حويك عام ١٩١٩ ،
او الذي جاد به الجنرال غورو في اليوم الاول من ايلول عام ١٩٢٠ وتأيد
بدستور عام ١٩٢٦ ، او ذلك الذي أعلنه الجنرال كلترو في ٢٦ تشرين
الثاني عام ١٩٤١ .

١٣ - المملكة الاردنية :

دولة طفيلية النشأة في التاريخ ، ملفتة الأضالة في الجغرافيا ، مهزوزة
العماد في الاقتصاد ...

يقول الفرنسي « بيير كيلر » : لاشك ان الذين صنعوا دولة الاردن
ارادوا ان يتحدوا العقل السليم ...

وهل هو شيء غير معاندة المنطق اقتطاع مفازة من فلوات الشام المحملة
يعيش عليها ٢٥٠,٠٠٠ من البدو وانصاف البدو مع آلاف معدودة من
المتصرين على النجود وعند مشارف الغور ، وتعميد ذلك دولة كاملة الذات
تحمل اسم « امارة شرقي الاردن » وتمتد حدودها على طول ٢٠٠٠ كم ؟ !
يؤكد العارفون ان الانجليز اوجدوها مرضاة لصديقهم المخلص عبد الله ،
وذلك صحيح من حيث المآل « ولكن الانجليز لا يقيمون سياستهم على مشاعر
الحب او الكره ، وهم قد صمموا مصور بلادنا الجغرافي قبل ان يفكروا
بصاحبهم عبد الله بن الحسين .

نجد في اتفاقية سايكس بيكو لعام ١٩١٦ ان بلاد الاردن موضوعة
في منطقة ب الخاضعة للنفوذ البريطاني والممتدة من العراق حتى البحر الابيض .
ومعنى ذلك لا يحتاج الى ايضاح ، فبلاد الاردن كانت مهية لان تؤلف حلقة
الاتصال البري بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، اي ان تكون عقدة

حيوية في خطوط المواصلات التجارية والعسكرية للامبراطورية البريطانية .
وكانت منطقة شرقي الاردن قبل الحرب العالمية الأولى جزءاً من ولاية
سورية ، وقد احتلتها جيوش الثورة العربية بقيادة فيصل بين ١٩١٧ و١٩١٨
وبقيت تابعة للملكة الفيصلية حتى تقويضها ، ولما خضعت دمشق لحكم
الفرنسيين ظلت منطقة الاردن معلقة المصير ، فالجيوش الفرنسية تجنبت
دخولها عملاً باتفاق سايكس بيكو ، وتآلفت فيها حكومات محلية منفصلة
(عجلون ، اربد ، السلط ، الكرك) عين البريطانيون مندوبين عنهم لكل
منها . وكان عبد الله حينذاك مع والده في الحجاز حاقداً تماماً لأنه لم يظفر بعرش .
وكانت الدماء العربية المسفوحة في ميسلون لم تجف بعد حين خف
المندوب السامي البريطاني في فلسطين الى الاردن ، وهو اليهودي هربرت صموئيل ،
وجمع زعماء البلاد وشيوخ القبائل في مؤتمر عام بمدينة السلط (آب ١٩٢٠)
وزف اليهم البشري المفرحة . . . بأنهم غدوا في حمى بريطانيا . . . وبأن
حكومة صاحب الجلالة عازمة على خلق دولة عربية في الاردن تتمتع بالحكم
الذاتي تحت اشرافها .

وفي مطلع الشهر التالي تبلور شكل الدولة المقرر تكوينها باجتماع
الزعماء والشيوخ مع مندوب انجلترا في عجلون ، ذلك الاجتماع الذي وجه
المندوب على اثره رسالة الى الشيوخ والزعماء عُرفت باسم « معاهدة أم قيس »
أهم مضمونها وعد قاطع بمنع الهجرة الصهيونية الى الاردن واختيار امير
عربي لحكم المنطقة .

وفي تلك الاثناء كان عبد الله ابن الحسين يستعد - أو يُظهر أنه يستعد -
لاستخلاص سورية من الفرنسيين ، وقد أعدّ لذلك جيشاً من ٣٠٠٠ آلاف
محارب بدوي هبط معهم في معان ثم سار الى عمان .

واستدعاه وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل الى الالتقاء به
في القدس (آذار ١٩٢٠) واتفق معه على توليته امانة شرقي الاردن ،
شريطة ان يكف عن تهديد الفرنسيين .. وان يستوشد بنصح مندوب

بريطاني يقيم الى جانبه في عمان وأن يسمح لبريطانيا باقامة قواعد ومطارات على أرض الامارة .

وتأسست دولة شرقى الاردن برئاسة عبد الله في ٧ نيسان ١٩٢١ ، وكان تشرشل قد عقد مؤتمر القاهرة في شهر آذار أيضا ، حضره عبد الله ولاورانس وهربرت صموئيل للموافقة على ترشيح الامير فيصل ملكاً مع العراق والامير عبد الله أميراً لشرقى الاردن .

ووافق مجلس عصبة الامم على انتداب بريطانيا لحكم فلسطين ، وشمول هذا الانتداب للأردن مع استثناء شرط التعهد باقامة الوطن اليهودي (تموز ايلول ١٩٢٢) .

وكان اول مندوب بريطاني في الاردن هو لاورانس بالذات حتى نهاية ١٩٢١ ثم خلفه فيليبي حتى ١٩٢٤ ، قبل ان يعود الى نجد مستشاراً للملك ابن سعود ، وتلاه كوكس حتى ١٩٣٩ ، ثم كيركبرايد تلميذ لاورانس ، الذي اصبح لقبه عام ١٩٤٦ وزير بريطانيا العظمى في عمان .

بيد ان الهيمنة البريطانية في الاردن كان لها مرتكز اقوى من الممثلين السياسيين ، كان لها الطابور الاردني المسلح (اللجيون) الذي نظمته ودرّبه البريغادير بيك Peake (بيك باشا) ثم آزره في قيادته بعد عام ١٩٣٠ الماجور كلوب Glubb (كلوب باشا = ابو حنيك) وكان قبل ذلك رئيساً لدائرة البدو في العراق ، وحل محل بيك عام ١٩٣٩ ، وظل يقود الجيش الاردني حتى اغفاه الملك حسين بن طلال عام ١٩٥٦ وسلم القيادة الى اللواء راضي عنتاب .

ولم يكن الجيش الاردني منظمة عسكرية فعسب بل كان أداة ضغط سياسي بيد بريطانيا . كانت تختار رجاله من العشائر والامر المعروفة وتنفق عليه مليوني جنيه في العام . ولولا حفنة من الشبان المؤمنين بعروبهم الذين تسربوا الى صفوفه لكان بلاء على الامة العربية كلها .

وعبد الله ابن الحسين كان مرتكزاً آخر لبريطانيا في الاردن .

وصفه لاورانس في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) بأنه مزيج متناقض من الحفة والاعتزان ، يحب اللهو والاسراف ويميم بالدسائس المريبة .
كان يري في نفسه سياسياً نابغة يُخلق ليطيرو صيته في المشرق والمغرب .
فلما لمع نجم اخيه فيصل حسده وحمل له أقم الحقد ، وعاش في قصر رغدان الذي بناه عام ١٩٢٥ يتزجى بالثرثرة ولعب الشطرنج . وفي مذكراته التي ينشرها عام ١٩٤٧ يتسهم فيصل بأنه مختلس سلبه عرش العراق .
ولو لم يكن عبد الله اميراً ثم ملكاً للاردن لكان اديباً من طبقة جيدة .
ذلك انه كان واسع المعرفة بأدب العرب وادب الاتراك على السواء . اما الحرب فكان على حبه لما اقل الناس قدرة على كسبها ، وكانت جريمة لا تغتفر في حق الامة العربية أن يقود جيوش العرب المقاتلة في فلسطين عام ١٩٤٨ .

عاش عبد الله سني شبابه كلها في الأستانة ضيفاً مع والده على السلطان عبد الحميد ثم نائباً عن مكة في مجلس المبعوثان . وكان اشتراكه في الثورة العربية الكبرى أقل من القليل ، فقد تولى حصار العثمانيين في الطائف ، وكان تحت امره أخيه الأكبر علي في حصار المدينة . وانهمزم عام ١٩١٩ انهماماً مزرباً في معركة طربة أمام الجيش السعودي حين بعث به والده للاستيلاء على واحة خرمه .

وتقلد رسمياً منصب وكالة الخارجية في حكومة الحسين ؛ وكان على خصومة لا تهدأ مع أبيه العظيم ، حتى انه وقف ضده وانحاز الى جانب الانكليز عندما طلبوا ان يكون لهم الاشراف على المحاجر الصحية في الحجاز ، ورفض الحسين مطلبهم ؛ وكان ذلك سبباً في استقالة عبد الله ورحيله الى المدينة قبل ان يؤتم معان ويبدأ هنالك مغامرته الكبرى ...
وقد ذكرت منذ قليل ان عبد الله فكر في احتلال سورية بعد خروج فيصل منها ووقوعها تحت النير الفرنسي ، ولعلته منذ ذلك التاريخ كان يحلم بمشروع سورية الكبرى ، على انه رضي بامارة الاردن عندما أمره تشرشل

ان يرضى بها ، وسوف يعود الى اثاره موضوع سورية كلما طلب اليه
البريطانيون ذلك .

وبعد فرض الانتداب على الاردن عام ١٩٢٢ زار عبد الله لندن
شاكراً للحكومة البريطانية وفاءها بعهودها وتحقيقها آمال العرب ..

وفي ٢٥ ايار ١٩٢٣ صرّحت بريطانيا بأنها « تعترف بوجود دولة مستقلة
في شرقي الاردن برئاسة صاحب السمو الامير عبد الله بن الحسين ، بشرط
ان توافق جمعية الامم على ذلك وان تكون حكومة شرقي الاردن
دستورية تمكّن حكومة صاحب الجلالة البريطانية من القيام بتعهداتها الدولية
فيما يتعلق بتلك البلاد وذلك بواسطة اتفاق يعقد بين الحكومتين » .

ويظهر ان عبد الله اساء فهم هذا التصريح وحمله من المعاني ما لم يدر
بمجد بريطانيا . وحدث ان حركة مسلحة قامت في الاردن اثناء وجود
عبد الله في الحجاز عام ١٩٢٤ فاغتنت بريطانيا هذه الفرصة وجردت الامير
من سلطاته الادارية وفرضت مراقبتها الكاملة على مالية الامارة .

ومنذ عام ١٩٢٤ دفعت بريطانيا عبد الله الى ضم العقبة ومعان الى
امارته ، وكانتا تابعتين للحجاز ، وتمّ ذلك رسمياً عام ١٩٢٥ بعد ظفر
السعوديين على الهاشميين .

وكان همّ عبد الله ان لا ينزعج الاجانب المحتلون وان لا يقلق واحتمهم
احد بدعوى المطالبة بالسيادة والاستقلال وغير ذلك من المطالب الوطنية ..
وقد اعتبر كل حركة ترمي الى مجابهة الانتداب جريمة تتنافى وواجب الطاعة
والنظام ، كما قال في خطاب له على الملأ عام ١٩٢٤ .

وأظهر عبد الله تفهماً كاملاً لمصالح الانجليز والصهيونيين فوافق على ان
يستغلوا موارد الاردن المائية والمعدنية دون ان يطلب لبلادهم نصيباً من
المغانم . من ذلك مثلاً شركة الكهرباء الفلسطينية التي أسسها اليهودي روتنبرغ
عام ١٩٢٣ وساهمت في اارؤوس اموال بريطانية واميركية ، وباشترت
عملها سنة ١٩٢٦ ، واحتكرت حق توليد الكهرباء من مياه الاردن ،

والتزمت الحكومة الاردنية نحوها بالتزامات ثقيلة لا يقابلها اي نفع . وأصمّ عبد الله مسمعه عن اصوات الاحتجاج التي رفعها مؤتمر اقتصادي عربي تصدّي لدراسة المشروع وفضح مساوئه .

ووافق عبد الله ايضاً على استثمار موارد البحر الميت من قبل شركة بريطانية يهودية اميريكية ، وهى شركة البوتاس التي تأسست عام ١٩٢٩ ، واستنكر اهل البلاد دون جدوى حبس خيراتهم على الاجانب ..

واقبعت بريطانيا في الاردن نهجها التقليدي في منح سلسلة من المعاهدات بين الفينة والاخرى ايهاً للشعب وايهاناً لنضاله الوطني .

وقد عرضنا لتصريح ٢٥ ايار ١٩٣٣ ، وبلاستناد اليه وقعت المعاهدة للبريطانية الاردنية الأولى في ٢٠ شباط ١٩٢٨ بين اللورد بلومر وحسن خالد باشا ابو الهدى .

وتجمل هذه المعاهدة من الاردن دولة مستقلة .. اشبه شيء بالمستعمرة او دون ذلك .

فصاحب السمو الامير يستعين في امارته بموظفين بريطانيين ، ولا يعيّن فيها موظفاً غير ذي جنسية اردنية دون موافقة صاحب الجلالة البريطانية . وصاحب السمو ينقاد لمشورة صاحب الجلالة في جميع الشؤون المختصة بعلاقات الاردن الخارجية .

وهو يتكرّم بأن يمنح ممثل بريطانيا حق الاشراف على الشؤون الادارية والمالية وموارد الخزينة ، ويتبع مشورة صاحب الجلالة في سن قانون الموازنة السنوية .

ورغبة في معاونة صاحب الجلالة على الاضطلاع بمسؤولياته وعهوده في الاردن ، يتعهد عبد الله ان لا يسنّ من القوانين او يتخذ من الاوامر والتدابير ما يعوق ذلك ، وان يسنّ من القوانين ويتخذ من التدابير والاوامر ما قد يراه صاحب الجلالة ضرورياً ...

وتنص المعاهدة ايضاً ان لا يكون بين فلسطين وشرقي الاردن حاجز

جمركي ، ويتولى صاحب الجلالة البريطانية المصادقة على التعريفات الجمركية الاردنية ..

وتقول المادة العاشرة من المعاهدة :

« لصاحب الجلالة البريطانية ان يقيم قوات مسلحة في شرقي الاردن ، وله ان يجنّد وان ينظّم وان يلي من قوات مسلحة ما يراه ضرورياً للدفاع عن البلاد ولمعونة صاحب السمو الامير في حفظ الامن والنظام .
ويتعهد صاحب السمو بأن لا يجنّد ولا يقيم ولا يسمح ان يجنّد ويُقام في شرقي الاردن قوة حربية او عسكرية من دون موافقة صاحب الجلالة » .

وتفرض نصوص المعاهدة على حكومة الامير تأدية مرتبات الممثل البريطاني وافراد ديوانه ونفقاتهم ، وتحتّم عليها الاعتراف بان اكلاف القوات اللازمة للدفاع في شرقي الاردن تكون عبئاً على ايراداته .. واذا لم تكف هذه الايرادات يُنظر في امداد من الخزينة البريطانية سواء يجعل معين او بعقد قرض .

وتقول المادة ١٤ :

« يتعهد صاحب السمو ان يتبع مشورة صاحب الجلالة في امر اعلان الاحكام العرفية في جميع شرقي الاردن او في اجزاء منها » .
وجاء في المادة ١٦ :

« يتعهد صاحب السمو ان يُيسر في جميع الاحيان كل تسهيل لانتقال قوات صاحب الجلالة البريطانية (داخلاً في ذلك استعمال دوائر اللاسلكي وخط التلغراف والتلفون) ولتنقل الوقود والعتاد والذخيرة واللوازم واختزانها في طرق شرقي الاردن وسككها الحديدية ومسالكها المائية وموانئها » .

وجاء في المادة ١٧ :

« يتعهد صاحب السمو ان يعمل بمشورة صاحب الجلالة في جميع الامور

المتعلقة بمنح الامتيازات او باستغلال الموارد الطبيعية او بانشاء السكك الحديدية واعمالها وبقروض القروض ...
واصبحت هذه المعاهدة نافذة المفعول في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٢٨ .
وكان لابد من دعم المعاهدة بدستور تضعه بريطانيا وتطلب الى الامير ان يتفضل به على شعبه .. ، وقد أعلن هذا الدستور يوم ١٦ نيسان ١٩٢٨ باسم (القانون الاساسي لشرق الاردن) .
والاسلوب الديموقراطي الذي استنته الدستور يشبه الشبه كله الاستقلال الذي تضمنته المعاهدة ...

وتبتدئ هذه الديموقراطية في المواد التالية :

تُحوّل السلطات التشريعية والادارية للأمير عبد الله ابن الحسين ولسلالته الذين يخلفونه في العرش من بعده « مادة ١٦ آ » .

الأمير مصون من كل تبعة ومسؤولية « مادة ١٨ »

الأمير رأس الدولة والقائد الأعلى لقواتها العسكرية وهو الذي يصدّق

على جميع القوانين ويصدرها ويراقب تنفيذها .. « مادة ١٩ (أ) »

سمو الامير هو الذي يعقد المعاهدات ولكن لصاحب الجلالة البريطانية ان يدخل عند الضرورة بالنيابة عن شرق الاردن في اية معاهدة تجارية او

معاهدة تسليم مجرمين او ابي اتفاق دولي عام ... « مادة ١٩ (ب) »

الامير هو الذي يصدر الاوامر باجراء الانتخابات للمجلس التشريعي

ويدعو المجلس الى الاجتماع ويفتتحه ويؤجله ويفضه ويحله .. « مادة ١٩ (ج) » .

الأمير هو الذي يعيّن رئيس الوزراء ويقيله او يقبل استقالته من

منصبه ، والامير يعيّن جميع الموظفين ويعزلهم .. « مادة ٢٠ »

يؤلّف مجلس تنفيذي لاسداء المشورة الى الامير من رئيس الوزراء

واعضاء آخرين .. يعينهم الامير بناء على توصية رئيس الوزراء اما من

الموظفين الرئيسيين في الادارة او من نواب الامة المنتخبين .

تُعهد ادارة شؤون شرق الاردن الى المجلس التنفيذي ويجتمع تحت

رئاسة رئيس الوزراء ليقرّر ما ينبغي ان يتخذ من التدابير في الامور

المتعلقة بأكثر من مصلحة واحدة ولتحقيق جميع المسائل المهمة المختصة بمصلحة واحدة ، ويرفع رئيس الوزراء الى الامير قرارات المجلس ويستوثق من رغبته بشأنها « مادة ٢١ » .

الامير يمنح الرتب العسكرية ورتب الشرطة ويستردها . « مادة ٢٢ » .
تُناط السلطة التشريعية بالمجلس التشريعي والامير . « مادة ٢٥ » .
على كل عضو من اعضاء المجلس قبل ان يتبوا مقعده ان يقسم بين يدي المجلس بين الاخلاص للامير والمحافظة على القانون العام وخدمة البلاد . « مادة ٣١ » .

يرأس رئيس الوزراء اثناء حضوره اجتماعات المجلس التشريعي كافة ، وفي غرضون تعيينه يرأسها الذي يعينه رئيس الوزراء لتلك الغاية من وقت لآخر من الاعضاء غير المنتخبين ، واذا لم يحصل تعيين كهذا فيرأس الاجتماع اكبر اعضاء المجلس التشريعي مقاماً غير المنتخبين « مادة ٣٢ » .
لا يسري مفعول اي قانون ما لم يقبله سمو الامير ويقترن بتوقيعه دلالة على ذلك القبول ويمر شهر واحد على نشره في الجريدة الرسمية ، الا اذا ارتأى سموه في المجلس وبموافقة معتمد جلالته البريطانية المفوض ان من الضروري للمصلحة العامة ان يسري مفعوله من اي تاريخ آخر « مادة ٣٨ » .

اذا رفض المجلس التشريعي اجازة اي قانون وضع امامه لتأمين انجاز التزامات سمو الامير العهدية فليسوم في المجلس ان يضع التشريع اللازم بصورة قانون مؤقت ، ولا يُعرض هذا القانون المؤقت على المجلس التشريعي « مادة ٤١ » .

تلك المعاهدة الاستعمارية وذلك الدستور الاستبدادي أثارا سخط الشعب الأردني ، فتنادى زعماءه الى مؤتمر وطني عام وروضعوا ميثاقاً قومياً معتدلاً تعاهدوا على تنفيذه .
قالوا في هذا الميثاق :

د بالاستناد الى العهود المقطوعة للعرب عامة من جانب حليفهم بريطانيا العظمى اثناء الحرب العامة .

والى الوعود الرسمية المقطوعة من قبلها لشرقي الاردن خاصة ، والى المادة ٢٢ من عهد جمعية الامم .

والى مباديء الرئيس ولسن الاربعة عشرة التي اعترف بها الحلفاء ووعدها رسمياً بتحرير الشعوب المظلومة على اساسها .

والى الوعد الرسمي الصادر عن وزارتي خارجية انكلترا وفرنسا سنة ١٩١٨ للبلاد العربية المحررة .

قد اجتمعنا نحن ممثلي الامارة العربية الاردنية في مؤتمرنا الوطني المنعقد في عمان يوم ٢٥ تموز ١٩٢٨ وقررنا ميثاقاً وطنياً لبلادنا البنود الآتية :

١ - امارة شرقي الاردن دولة عربية مستقلة ذات سيادة بحدودها الطبيعية المعروفة .

٢ - تُدار بلاد شرقي الاردن بحكومة دستورية مستقلة برئاسة صاحب السمو الملكي الامير عبد الله بن الحسين المعظم واعقابه من بعده .

٣ - لا تعترف بلاد شرقي الاردن بمبدأ الانتداب الا كمساعدة فنية تزجية لصالح البلاد ، وهذه المساعدة تحدّد بموجب اتفاق او معاهدة تعقديين شرقي الاردن وحليفة العرب بريطانيا العظمى على اساس الحقوق المتقابلة والمنافع المتبادلة دون ان يمس ذلك بالسيادة القومية .

٤ - تعتبر شرقي الاردن وعد بلفور القاضي بانشاء وطن قومي لليهود بفلسطين مخالفاً لعهود بريطانيا ووعدها الرسمية للعرب وتصرفاً مضاداً للشرائع الدينية والمدنية في العالم .

٥ - كل انتخاب للنياحة العامة يقع في شرقي الاردن على غير قواعد التمثيل الصحيح وعلى اساس عدم مسؤولية الحكومة امام المجلس النيابي لا يُعتبر انتخاباً ممثلاً لارادة الامة وسيادتها القومية ضمن القواعد الدستورية بل يعتبر انتخاباً مصطنعاً لا قيمة تمثيلية صحيحة له، والاعضاء الذين يُنتخبون

على أساسه اذا فصلوا بحق سياسي او مالي او تشريعي ضار بحقوق شرقي الاردن الاساسية لا يكون لفصلهم قوة الحق المعترف به من قبل الشعب، بل يكون فصلهم جزءاً من اجزاء تصرف السلطة الانتدابية وعلى مسؤوليتها.

٦ - ترفض شرقي الاردن كل تجنيد لا يتجزأ من السيادة الوطنية .

٧ - ترفض شرقي الاردن تحمل نفقات اية قوة احتلالية اجنبية وتعتبر كل مال يُفرض عليها من هذا القبيل مالاً مغتصباً من عرق عاملها المسكين وفلاحها البائس .

٨ - ترى شرقي الاردن موارد هــا - اذا مُنحت حق الخيار بتنظيم حكومتها المدنية - كافية لقيام ادارة دستورية صالحة فيها برئاسة سمو الامير المعظم صاحب الامارة الشرعي . اما الاعانة المالية التي تدفعها الحكومة البريطانية فان بلاد شرقي الاردن تعتبرها نفقات ضرورية لخطوط المواصلات الامبراطورية وللقوى العسكرية المعدة لخدمة المصالح البريطانية ليس والا . لذلك فان هذه الاعانة التي يضاف اليها اليوم قسم من واردات البلاد لتحقيق غايات لا مصلحة لشرقي الاردن فيها كما هو الواقع لا تخوّل بريطانيا العظمى حق الاشراف على مالية شرقي الاردن هذا الاشراف المركزي الضار الواقع اليوم ، ولهذا فانتنا نعتبر الوضع المالي الحاضر المبني على سياسة تخفيف الاعانة المالية عن عاتق المكلف البريطاني على حساب المكلف الاردني عبارة عن وضع ضار غير مشروع لا تتحمله موارد البلاد ومن الواجب ابطاله واستبداله بنظام يؤيد استقلال حكومة شرقي الاردن المالي ، مقررين ان التصرف المالي الحاضر لا يجوز صدوره عن حليفة غنية كبريطانيا بالنسبة لبلاد فقيرة كشرقي الاردن .

٩ - تعتبر بلاد شرقي الاردن كل تشريع استثنائي لا يقوم على اساس العدل والمنفعة العامة وحاجات الشعب الصحيحة تشريعاً باطلاً .

١٠ لا تعترف شرقي الاردن بكل قرض مالي وقع قبل تشكيل المجلس النيابي .

١١ - لا يجوز التصرف بالاراضي الاميرية قبل عرضها على المجلس النيابي وتصديقه عليها وكل بيع وقع قبل انعقاد المجلس يعتبر باطلا .
وعقد الوطنيون الاردنيون عدداً من المؤتمرات المماثلة حتى عام ١٩٣٣ ولم يفوزوا بطائل ، فيما عدا نقمة عبد الله عليهم وانتقامه منهم . وقد تجسّمت المعارضة الوطنية في الحزب العربي الاردني الذي ترأسه الدكتور صبحي ابو غنيمه ، واضطر اعضاؤه الى الهرب واللوذ بدمشق حيث لا يزال الدكتور ابو غنيمه مقيماً الى اليوم . وحمل الامير البرلمان الاردني على اصدار تشريع خاص لنزع جنسيتهم عنهم ، وهكذا اضحى الامير الغريب عن الاردن يتصرف بمصائر اهل الاردن ...

وعلى اثر دخول العراق الى عصبة الامم اُضيف الى المعاهدة البريطانية الاردنية ذيل يمنح حكومة الاردن حق تعيين القناصل في البلاد العربية (عام ١٩٣٤) . وفي عام ١٩٣٩ وافقت بريطانيا على تحويل المجلس التنفيذي الاردني الى مجلس وزراء . وصدر قانون يعدل القانون الاساسي لعام ١٩٢٨ - القانون رقم ١٩ بتاريخ ٥ آب ١٩٣٩ - ويسبغ رداءاً ديموقراطياً مهلهلاً على هيكل الحكم في البلاد .

ينص هذا القانون ان الامير هو الذي يُعيّن رئيس الوزراء ، وان الوزراء يُعيّنون من قبل الامير بناء على تنسيب رئيس الوزراء ، ورئيس الوزراء مع الوزراء مسؤولون تجاه الامير مسؤولية مشتركة عن السياسة العامة للدولة ، وبالإضافة الى ذلك فكل وزير مسؤول تجاه الامير عن دائرته او دوائره ، والامير هو الذي يقبل رئيس الوزراء او يقبل استقالته من منصبه ، وهو يقبل الوزراء او يقبل استقالتهم من مناصبهم بناء على تنسيب رئيس الوزراء ...

وقدّرت بريطانيا لحكومة شرقي الاردن موقفها الوفي خلال الحرب

العالمية الثانية ، فعقدت معها معاهدة جديدة في ٢٢ آذار ١٩٤٦ . وفي الخامس والعشرين من ذلك الشهر حقّق عبد الله احلامه الملكية فأعلن نفسه ملكاً على الاردن .

وكان لابدّ من تعديل الدستور مرة ثانية ، فصدر القانون رقم ٩ بتاريخ ١٩٤٦/٥/٢٥ .

والجديد في هذا التعديل ان الدولة اتخذت لها اسم « المملكة الاردنية الهاشمية » وكانت من قبل تُدعى « امارة شرقي الاردن » . ويعلّق احد المؤلفين الانجليز على هذا التغيير الخطير بقوله : لقد كان ذلك امتباقاً للحوادث التاريخية المهيّأة ، فان إنجلترا قرّرت منذ ذلك التاريخ التخلّي عن فلسطين لليهود ، وتواطأت مع عبد الله لقاء ذلك على ضم الضفة الغربية من نهر الاردن الى مملكته .

وفيا عدا الاسم فان التعديل الجديد للدستور قد نصّ على احوال تعبير « صاحب الجلالة الملك » محل « سمو الامير » . . .

وفي واقع الامر ان معاهدة ودستور ١٩٤٦ لم يبدّلا من اوضاع الدولة الاردنية شيئاً . فالمعاهدة أنهت الانتداب واعترفت بالاستقلال ، ولكنها ربطت إنجلترا والاردن بمجلف دائم ، واكثرت من جديد اعتماد الدولة العربية على الخبراء والموظفين البريطانيين ، وتوكت لبريطانيا هيمنتها الثقيلة على الجيش الاردني ، وسمحت لها باحتلال مراكز جوية وعسكرية في البلاد .

وقد حان ان نعرض خطة عبد الله في توحيد اجزاء سورية الطبيعية تحت حكمه الظاهري وحكم بريطانيا الحقيقي ، تلك الخطة التي عُرفت باسم « مشروع سورية الكبرى » والتي وسّع البريطانيون مداها فيما بعد واقصوا العراق فيها ، وتولى نوري السعيد الدعوة اليها باسم « مشروع الهلال الحبيب » .

حشد عبد الله جهوده كلها لتحقيق مشروع سورية الكبرى اثناء الحرب العالمية الثانية وخاصة منذ عام ١٩٤١ . فلقد رأى في انهيار فرانس وانقسامها فرصة مناسبة لتحقيق امنيته الغالية ، وطفق يدهو رجالات العرب الى الانجراف معه في هذا التيار ، وأجابه السيد فارس الحوري بأدب ولباقة قائلاً ان مشروع الوحدة عزيز على قلب كل عربي ، ولكن سورية تأمل ان تنال استقلالها بوسائلها الخاصة ، وان الله حباها بنظام جمهوري وهي لا تجد ضرورة لتبديله . ولم يثن ذلك عبد الله عن عزمه ، فأعلن انه يقبل ان يكون رئيساً للاتحاد السوري ...

وعاود مساعيه عندما اوقفت فرانس رجال الدولة اللبنانية عام ١٩٤٣ وحين قامت بعدوانها العاشم على دمشق عام ١٩٤٥ .

وفي خطاب العرش الذي يلقيه في الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٥ يضرع على وتر الوحدة العربية ويوضح دور بلاده المنتظر في بعثها ، فيؤكّد ان شرقي الاردن تحرص على مبدأ الوحدة بين اجزاء الوطن الواحد ، وتعارض كل تقسيم يشوّه جمال الوطن للعزيز ويجول دون التقاء افراد الاسرة الواحدة على ارض الاجداد ، ويعلن ان حكومته يدافع الوعي القومي ستعمل على تحقيق الوحدة رغم الاطماع الشخصية لانها امل الوطن والاجيال العربية ...

بعد هذا التصريح بزمن قليل دُعي عبد الله الى لندن مرتين وعاد بمعاهدة ١٩٤٦ وبلقب صاحب الجلالة الملك ...

فماذا نفسّر مكافأة بريطانيا له على جهوده المخلصة ؟ !

لقد اتفق معها في لندن على حل للقضية الفلسطينية بالشكل الذي أشرنا اليه ، وكانت تشعر بأن بقاءها في فلسطين اصبح مستحيلاً ، ولا بدّ لها من تعويض ذلك بانشاء سورية الكبرى وتركيز جماع نفوذها هناك . وحق لا يعترض الوطنيون في سورية وغيرها على ربط بلادهم بأمر خاضع

لانتداب بريطانيا ، منحه لقب ملك واعلنت استقلال بلاده ورفع
الانتداب عنها .

وتعرفون ان مشروع سورية الكبرى قد قاومه السوريون
واللبنانيون والسعوديون على السواء ، وقد ترددت اصداؤه في اجواء جامعة
الدول العربية منذ تأسيسها . فخلال الدورة الثانية لمجلس الجامعة المنعقد
بالقاهرة في تشرين الثاني عام ١٩٤٥ نشرت احدى الوكالات الاجنبية
تصريحاً للامير عبد الله يشير فيه الى عزمه على بسط المشروع امام المجلس ،
ورغم تكذيب مندوب شرق الاردن للتصريح وقف مندوب لبنان
السيد حميد فرنجية يندد بالمشروع ويعلن معارضة لبنان له ، وجاء في رده
انه مندهش لهذه النعمة التي تعود بين الفينة والاخرى لاسباب لا تخفى
على احد ، وقال ان الحكومة اللبنانية قد اعلنت اكثر من مرة انها
لا توافق على هذه الفكرة ، وتساءل هل بوسعنا ان ننسى ان البلاد العربية
قد نالت استقلالها في حدودها الراهنة ، وان كل دولة منها قد اعترفت
باستقلال الدول الاخرى ضمن تلك الحدود ، وان جامعة الدول العربية
قامت على هذا الاساس ؟ واستمر قائلاً : ان هذه المشاريع تعارض معارضة
صريحة ميثاق الجامعة وانني لأستغرب ان تصدر عن عضو فيها ، ان سياسة
لبنان واضحة ، فهو بحمد الله يتمتع باستقلاله وسيادته ضمن حدوده الحالية ،
وقد انتسب الى جامعة الدول العربية على هذا الاساس ، ولا يقبل بديلاً
عن هذه السياسة ، والدول العربية قد تضافرت باخلاص في جميع الشؤون
المشتركة ، فأمل ان تنقطع هذه النعمة ، كي لا تعكّر صفو الجو الذي نعمل
فيه متضامين لمصلحة الجميع .

وأجابه مندوب شرقي الاردن ، السيد محمد الشريقي ، ان هذه النعمة
التي يعافها مندوب لبنان هي اعذب لحن في آذان العرب ..
ان معارضة لبنان كانت تتبع عن نزعة الى الاستقلال والحفاظ على
كيانه الراهن . ومعارضة المملكة السعودية كان مبعثها الخوف التقليدي

من فيام دولة هاشمية قوية تتاخم حدودها الشمالية كلها وتمهّد سلامتها مع المملكة الهاشمية الاخرى : العراق .

اما الوطنيون السوريون فأسباب معارضتهم بغنوة عن الايضاح : فهم قد طالبوا دوماً بالوحدة السورية الكبرى ، ولكنهم كانوا يريدونها وحدة مستقلة حقاً وديموقراطية حقاً ...

واشدّت حرص عبد الله على تحقيق مشروعه الكبير بعد ان اصبح صاحب جلالة ، فقد رجع الى الموضوع في خطاب العرش الذي القاه في ١١ تشرين الثاني عام ١٩٤٦ وحيّاه نواب المجلس التشريعي وتمنوا عليه تحقيق ذلك في جوابهم الرسمي على خطاب العرش . وبعد يومين وقف السيد فيليب تقلا في الندوة النيابية اللبنانية يعلن بقوة ان اللبنانيين لا يريدون مشروع سورية الكبرى ولا يقبلونه بأية حال . وفي ٢٣ تشرين الثاني استجوبت الحكومة السورية في المجلس النيابي وردّ عنها وزير الخارجية السيد خالد العظم ردّاً لم يرض رئيس الوزارة الاردنية ابراهيم باشا هاشم ، وكاد الامر يعرض مرة اخرى على مجلس جامعة الدول العربية .

وفي مطلع كانون الاول من العام ذاته يصدر عن المجلس التشريعي الاردني قرار يؤيد مشروع سورية الكبرى ، ويعلن تعلّق الاردن بالميثاق الذي اقرّه المؤتمر السوري العام بدمشق يوم ٢٠ آذار من عام ١٩٢٠ .

ويبدو ان عبد الله عزم على الشروع في التنفيذ عام ١٩٤٧ ، فيمهد لذلك بعقد معاهدة صداقة مع تركيا ومعاهدة تحالف مع العراق ...
وفي ١٢ حزيران ١٩٤٧ يلقي في بغداد كلمة مشبوبة تنذر خصومه وتعد اصداقاه ، فيرد عليه الرئيس شكري القوتلي يوم ١٦ حزيران ردّاً حازماً يعيده الى صوابه . وتنتهي المسرحية عند هذا الحد ، وتعلن بريطانيا ان لاشأن لها في الامر كله ، ويسدّ المجلس النيابي السوري آخر الابواب على الملك عبد الله بالبيان الذي اصدره يوم ٥ تشرين الاول ١٩٤٧ .

ونحن في سورية لا ننسى صداقة عبد الله للاتراك وتعاونه معهم
ورحلته الى بلادهم عام ١٩٤٧ ، وزيارته لمرفاً اسكندرون السليب على يمت
الرئيس التركي عصمت اينونو ...

* * *

وتنهك الدول العربية عام ١٩٤٨ في امر فلسطين وتتناسى في الظاهر
خصوصياتها واحقادها .

ويدخل العرب ارض فلسطين في ١٥ ايار لتحريرها من رجس الصهيونيين
وهم على اسد ارتياب من نوايا عبد الله ومن ورائه اسياده الانجليز .
واليوم المشؤوم في تاريخ العرب الحديث هو يوم ٢٠ ايار ١٩٤٨ .
في ذلك اليوم القبيح خفّ رئيسا جمهوريتي سورية و لبنان ، السيد
شكري القونلي والشيخ بشارة الخوري ، ووصي العراق عبد الاله ، وأمين
جامعة الدول العربية السيد عبد الرحمن عزام ، خفّوا الى لقاء الملك عبد الله
في درعا ، فاستقبلهم في خيمته المزدانة بفاخر الطنافس وتقبّل منهم قيادة
الجهاد في فلسطين ...

وتذكرون نكبة فلسطين العربية وما خلّفته من جراحات وآلام .
وفي ايلول ١٩٤٨ تألّفت حكومة عربية في غزة بجمى الجيش المصري ،
وكان جواب عبد الله على ذلك اعلان نفسه بمدينة جرش ملكاً على «محموم
فلسطين» في شهر كانون الاول .

وفي ٣ نيسان ١٩٤٩ وقّع عبد الله اتفاقية الهدنة مع اسرائيل ، وتنازل
لها عن أجزاء هامة من ارض فلسطين كان يربط فيها الجيشان الاردني
والعراقي .

ووقف عبد الله من القضية الفلسطينية بعد الهدنة موقفاً ينبو على اجماع
العرب ، فكان بوحياً من انجلترا يدعو الى توطين اللاجئين في البلاد
العربية واقامة صلح دائم مع اليهود . وشرع في التفاوض سرّاً مع اسرائيل
على هذا الاساس ، الا ان مجلس جامعة الدول العربية أغلق عليه الطريق

حين حضر على جميع الاعضاء في نيسان ١٩٥٠ التفاوض مع اليهود أو ضم جزء من فلسطين. وعمل عبد الله بوصبة بريطانيا فألحق الضفة الغربية بالمملكة الاردنية ، وأجرى انتخابات نيابية في الضفتين ، ووافق النواب المنتخبون في ٢٤ نيسان على تكوين المملكة الاردنية في حدودها القائمة اليوم ، وسارعت بريطانيا الى الاعتراف بهذا الوضع .

وانتخبت المملكة الاردنية موقفاً شاذاً آخر حين أعلنت اشتراكها في حرب كورية مع جيوش الامم المتحدة ، متحديّة النهج الحيايدي الذي رجع العرب ساوكة . وكان آخر عمل دبلوماسي لعبد الله قبل مقتله توقيع اتفاق النقطة الرابعة مع الولايات المتحدة في آذار ١٩٥١ .

تلكم سيرة الرجل الذي اختارته إنجلترا لتنفيذ خططها في الاقليم السوري بعد رحيل أخيه فيصل عنه . والحق انه عاش وفيّاً لها ومات من أجلها ..

بقي ان نذكر ان إنجلترا جدّدت معاهدتها معه في آذار ١٩٤٨ ، أي قبيل المأساة الفلسطينية . ولم يكن ذلك طبعاً من قبيل الصدفة .. فانجلترا قد رسمت مصوّر فلسطين اليهودية ، وسوف تعهد الى جيش عبد الله ان يبلغ الحدود التي عيّنتها . والمعاهدة الجديدة تجعل من المملكة الاردنية مركزاً رئيسياً للقوى البريطانية في المنطقة وتؤكد امتيازاتها العسكرية في البر والجو والبحر ، وتؤمّن طرق مواصلاتها ، لقاء العون المالي الذي تسدّه به عجز الموازنة .

* * *

قتل الملك عبد الله في القدس يوم ٥ تموز ١٩٥١ ، وخلفه ابنه طلال الأوّل الذي التزم سلوكاً مبيناً لسلوك أبيه سواء في السياسة الداخلية أم في السياسة الخارجية . فالدستور الذي منحه في كانون الثاني عام ١٩٥٢ يشتمل على بعض الأسس الديموقراطية ، لاسيما مسؤولية الوزراء تجاه مجلس

النواب المنتخب ، الذي يشترك في السلطة التشريعية مع الملك ومع مجلس الأعيان . تنص المادة ٥٣ من هذا الدستور :

« تُطرح الثقة بالوزارة أو بأحد الوزراء أمام مجلس النواب فإذا قرّر المجلس عدم الثقة بالوزارة بأكثرية ثلثي الاعضاء الذين يتألف منهم المجلس وجب عليها أن تستقيل ، وإذا كان القرار خاصاً بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال منصبه . »

وأُنيط إبرام المعاهدات بالملك ، إلا ان المادة ٣٣ تحدد هذا الحق ، فهي تقول : « معاهدات الصلح والتحالف والتجارة والملاحة والمعاهدات الاخرى التي يترتب عليها تعديل في اراضي الدولة او نقص في سيادتها أو تحميل خزانتها شيئاً من النفقات أو مساس بحقوق الاردنيين العامة او الخاصة ، لا تكون نافذة الا اذا وافق عليها مجلس الامة (مجلسا النواب والاعيان) . ولا يجوز في أي حال ان تكون الشروط السرية في معاهدة ما مناقضة للشروط العلنية . »

الا ان الملك احتفظ بحق حل مجلس النواب وتأجيل أو فض مجلس الامة (مادة ٣٤) . وهو يعين رئيس الوزراء ويقيله ويقبل استقالته ، ويعين الوزراء ويقيلهم ويقبل استقالتهم بناء على تنسيب رئيس الوزراء (مادة ٣٥) ، وهو ايضاً يعين أعضاء مجلس الأعيان (مادة ٣٦) .

وفي الميدان الخارجي أبدى طلال معارضة شديدة لحطط بريطانيا ولا سيما مشروع سورية الكبرى ، وخطا خطوات محمودة نحو التقرب من مصر وسورية .

ومن المرجح ان اعتلال صحة الملك طلال ليس قصة ملفقة . ومهما يكن الامر فانه تنازل عن العرش لابنه الحسين ، وصدر قرار بذلك عن مجلس الامة الاردني في ١١ آب عام ١٩٥٢ . وتوَّج الحسين في ٢ أيار ١٩٥٣

وحكم الاردن قبل ذلك مجلس وصاية مؤلف من ابراهيم هاشم وسليمان طوقان وعبد الرحمن الرشيدات .

* * *

يقول الذين خبروا الملك حسين عن قرب انه فتي سهل المأخذ ، ينقاد لكل تأثير يرضي نزوهه الى العظمة وحاجته المستحكمة الى المال .

لم يرث عن ابيه وجده ميسرة تذكر ، ولم يتهماً له ان ينشأ في بيئة تغرس الايمان بالقيم المعنوية . وهو بعد شاب في طراوة السن يهفو كما يهفو لذاته الى التنعم واللهو والجاه ، وعن طريق هذه اللامسات المطمعة يمكن لبطانته وغير بطانته النفوذ الى حبة قلبه والسيطرة عليه .

اراد الانجليز ان يشعروه منذ بداية عهده بحاجته الى حمايتهم ، فحملوا امرا ئيل على اقتحام بلاده والفتك برعاياه ، وانكم لتذكر ون الهجوم الصهيوني الغادر على (قبية) في تشرين الاول ١٩٥٣ وما تلاه من احداث مدبرة طوال عام ١٩٥٤ .

ومن طرف آخر وقع الانجليز معه اتفاقية العون المالي في ٥ كانون الاول من ذلك العام .

والولايات المتحدة كان يطمحها قبل كل شيء دعم ببيان الدولة اليهودية وترسيخ أسسها ، ولم تطلب الى الحسين سوى مساعدتها على بلوغ هذا الهدف . ولفقت من اجل ذلك مشروع « الانماء الموحد لموارد مياه نهر الاردن » وعهدت بمهمة تنفيذه الى المستر اريك جونستون ، الذي هرع الى زيارة بلادنا في تشرين الاول من عام ١٩٥٣ ، وعارضت الدول العربية كلها ذلك المشروع ، فتركه مصحومه وبيع العرب « معركة المياه » عام ١٩٥٥ . وكان حلف بغداد قد انتظم عقده عام ١٩٥٥ ، ووجد المليك الشاب نفسه موزعاً بين قوى متعارضة تجذبه ذات اليمين وذات الشمال . فالشعب يجيش حقداً على الاجانب ويهيب بالملك ان يتحرر من طوقهم ، والعملاء منهم من يدفعه نحو المجلثرا كهزاع المجالي او نحو امريكا كسمير الرفاعي

او نحو الاثنتين كبهجت التلهوني، واليهود يشنون الغارة تلو الغارة على مملكته ليحملوه على مصالحتهم ، وسورية ومصر والمملكة السعودية تشجعه وتدعمه وتعدده بما شاء من مال وسلاح اذا استقرت على سلوك سياسي يرضيها .
ورأس الملك الصغير يدور ، والوزارات تتقلب او تنقلب مع حركات المد والجزر ..

واخيراً صدر في تشرين الاول ١٩٥٥ بيان عن حكومة السيد سعيد المفتي جاء فيه ان مملكة الاردن لاتنحاز الى الكتلة السورية المصرية السعودية ولا الى حلف بغداد ..

وفي منتصف كانون الاول زار عمان رئيس اركان الجيش البريطاني الجنرال تمبلر ليملي ارادة بريطانيا على شعب الاردن وينظم المملكة في سلك حلف بغداد . وكانت ثورة في الاردن كله قدفت بتمبلر خارج البلاد . واستقالت حكومة سعيد المفتي . فمن دعا الملك لرئاسة الوزارة ؟
الداعية الاكبر لحلف بغداد هزاع المجالي ..

وفهم الشعب ان الملك غلب على امره ان لم يكن قد حسر عن طويته ، فشهدت ارض الاردن اياماً رائعة زارت فيها القومية العربية زيوها المرعب ، وتراجع الحسين خوفاً وهلعاً ، وعين لرئاسة الوزارة ابراهيم هاشم في ٢٠ كانون الاول ، ثم سمير الرفاعي في ٩ كانون الثاني ١٩٥٦ .
وطوّف الرئيس الجديد في سورية ولبنان والعراق ومصر والمملكة السعودية خلال شهر شباط ، يوز النوايا ويوز القوى ويقدر الممكنات ويمهد للاتجاه نحو اميريكاً بدلاً من انجلترا ..
وفي ٢ آذار اعلن الحسين اقالة كلوب باشا .

وكانت بادرة بارعة ضمت حوله القلوب ونهضت باسمه الى القمة الشاخحة .
واسرعت مصر وسورية والمملكة السعودية الى التعهد للاردن بتعويض معونة بريطانيا المالية اذا ما طالبت حكومة الاردن بالغاء المعاهدة البريطانية ووقفت الى اجلاء الجيوش الانجليزية عن ترابها .

وفي نيسان جاء حسين ورئيس حكومته لزيارة الرئيس شكري القوتلي بدمشق .

والواقع ان الحسين فاوض العراق اولاً على رفده بالمال ، ولما لم يجد هناك الكرم الذي ارتجاه سار في الطريق المعاكس ، وفي تصميمه ان يتنكب السبيل ثانية عندما يعثر على بمول اطول باعاً وارحب سخاءاً . .
وفي ايار تسلم قيادة الجيش الاردني اللواء علي ابو نوار المعروف بوطنيته المتقدمة ومطالبته برفع النفوذ الاجنبي عن الجيش وعن الحكومة . ورافق ذلك عودة سعيد المقتي الى منصب رئيس الوزراء .

وفي تلك الآونة ارتبط الاردن بمعاهدات دفاعية مع سورية ومصر . وفي تموز بلع التعاون الاقتصادي اوجه بين الاردن وسورية . وعاد ابراهيم هاشم الى رئاسة الحكومة .

وكان مرتقباً ان تتكرر وتشتد غارات الصهيونيين على حدود الاردن ، تشجعها وتدفع اليها بريطانيا الغاضبة .

واسفرت الانتخابات النيابية في تشرين الاول من عام ١٩٥٦ عن فوز الاحزاب المعبرة عن مشيئة الشعب في التحرر والوحدة العربية والحياد الدولي . وألف رئيس الحزب الوطني الاستراكي السيد سليمان النابلسي وزارة مؤتلفة ضمت ممثلين عن حزبه وعن الجبهة الوطنية وحزب البعث والمستقلين ، وذلك في ٢١ تشرين الأول ١٩٥٦ . وهي الوزارة التي عاصرت العدوان المثلث على مصر ووقفت منه موقف سائر العرب الأباة .

ولم يعيش الاردن في تاريخه كله حقبة كذلك الحقة ، حماساً وحيويةً واملاً واستقراراً وطمأنينة وثقة متبادلة بين الشعب والحكومة وتضامناً وثيقاً مع الدول العربية المتحررة .

وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٥٧ وقع الملك حسين في مصر اتفاقية التضامن العربي التي تلازم المملكة السعودية وسورية ومصر بدفع نفقات الجيش العربي الاردني التي كانت تضطلع بها بريطانيا ، حتى يتهيأ للدولة الاردنية ان تتحرر

من السيطرة الاجنبية وتمزق صك عبوديتها لبريطانيا ، وقد تقرّر ان تدفع الحكومات الثلاث الى الاردن ١٢٠٥ مليون جنيه ، تؤدّي مصر منها خمسة وكذلك المملكة السعودية ، وتسدد سورية ما تبقى . ومدة الاتفاقية عشر سنوات .

وبعد مفاوضات قصيرة وقّعت الحكومة الاردنية مع بريطانيا اتفاق ١٣ آذار ١٩٥٧ الذي يلغى معاهدة ١٩٤٨ ويصفّي القواعد البريطانية في الاردن ويفرض على بريطانيا سحب قواتها من ارضه خلال ستة اشهر . وأقرّ مجلس الامة الاردني بالاجماع القانون التاريخي التالي :

المادة الاولى : يُطلق على هذا القانون اسم « قانون انتهاء معاهدة التحالف الاردنية - البريطانية لسنة ١٩٤٨ » ، ويُعمل به من تاريخ ١٤/٣/١٩٥٧ .
المادة الثانية : تنتهي معاهدة التحالف الاردنية البريطانية المعقودة ما بين حكومة المملكة المتحدة وحكومة المملكة الاردنية الهاشمية الموقّعة في عمان بتاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٤٨ مع ملحقاتها وجميع المذكرات والكتيب المتبادلة عند توقيعها وأية اتفاقات اخرى لاحقة متعلقة بها ، وبطل مفعولها والعمل بها .

المادة الثالثة : يعبر الكتابان المتبادلان بين وزير الخارجية وبين السفير البريطاني والاتفاق المالي الملحق بهما المرفقين لهذا القانون جزءاً متمماً له .
المادة الرابعة : رئيس الوزراء والوزراء مكلفون بتنفيذ احكام هذا القانون .

ولقد دُهِش بعض الناس لموافقة بريطانيا على تفويض امتيازاتها التي ارسختها خلال عشرات السنين ، وقبولها بهذه السهولة اجلاء قواتها والتخلي عن قواعدها .

والحق ان تحرّر الاردن كان نتيجة محتّمة لنضال الشعوب العربية كلها ضد الاستعمار ، فهو لا ينفصل عن وثبة سورية وعن ثورة مصر .
ثم ان بريطانيا كانت على علم مسبق بما تنوي حليفها اميركا ان تعمل في

الاردن . كانت الحطة مدبرّة ان تتخفّف بريطانيا من نفقاتها الباهظة وتتحمل الولايات المتحدة ذلك محلها ، وتؤمّن لها مصالحها ومواصلاتها عن طريق مبدأ ايزنهاور .. ولندكر ان الرئيس ايزنهاور والمستر هارولد مكميلان قد عقدا مؤتمرهما في جزيرة برمودا خلال شهر آذار ١٩٥٧ .

وخطت الاردن خطوتها التحررية الثانية حين عقدت مع مصر وسورية اتفاق الوحدة الثقافية العربية في ٢٥ آذار ١٩٥٧ .

وبدأت اميريكا وانجلترا ضغطها الاقتصادي على الاردن ، فأوقفت النقطة الرابعة الاميريكية معظم أعمالها ، وبدأت وكالة غوث اللاجئين تلمح الى قرب انتهاء مهمتها ..

وفي شهر آذار ايضاً قدم المبعوث الاميريكي ريتشاردز الى الشرق الاوسط ليبيشر بمذهب ايزنهاور ويقسم ٢٠٠ مليون دولار بين الدول التي تعلن اعتناقها له .

كان الهدف تقنين الكتلة العربية المتحررة وانتزاع الاردن من صفها وعزل سورية ومصر وضربهما في مرحلة لاحقة .

ووفق الاميريكيون الى مشتري كميل شمعون في لبنان وابن حليم في ليبيا . وسافر شمعون بمهمة رسمية الى المملكة السعودية ...

وفي الأسبوع الاول من شهر نيسان ١٩٥٧ بدأت محنة الاردن . كانت الاشواك تُنثر في طريق الحكومة الوطنية لانها وثقت اوامر الاردن بسورية ومصر وعارضت حلف بغداد ونظّفت اداة الحكم واستكملت تسليح الجيش .

ورفضت حكومة النابلسي مبدأ ايزنهاور ، وتقبّله الملك حسين . أغرمي الحسين بالثراء العريض . وأوهم ان عرشه يتساقط اذا استمر على مجاملة الحركات التحررية ، وأثبرت مخاوفه من اسرائيل ، وقيل له ان اميريكا وحدها تستطيع حمايته من عدوانها .

قلنا ان الحسين فتى سهل المأخذ ، وقد أخذ على اهون سبيل ، وبدأ

يعيد ما يتلقته عن اميركا ويتحدث عن التغلغل الشيوعي في هيكل
الدولة الاردنية ...

وأبلغت حكومة سليمان النابلسي رغبة الملك في ان تستقيل بينما كانت
تعقد جلسة رسمية لتطهير الجهاز الاداري .

وبدأت الآلة الاميركية تعمل في الليل والنهار : الاسطول الاميركي
السادس يتحرك والاشاعات والاكاذيب تُتلق وتُتشر ، والاموال تُوزع
بسخاء ، والسفير الاميركي وملاحقه العسكري بعان ينسجان خيوط
المؤامرة مع العملاء ، ويصرح اينهاور ان اميركا ستهب لتجدة الاردن
وحمايتها من الشيوعية الزاحفة اليها عبر سورية ...

وقد نجح الاميريكيون في جرف المملكة السعودية ، فأزرت بالها
وبجيشها المرابط في الاردن على تنفيذ الانقلاب الاستعماري .

وكان لا بد في البداية من الاختباء وراء ستر التمويه . فقد بدأ الملك
بتشكيل وزارة مقبولة برئاسة الدكتور حسين فخري الخالدي ، الذي
استقال بعد تسعة أيام ، ثم جاءت الى الحكم وزارة من النوع التقليدي القديم
برئاسة ابراهيم هاشم واستراك رجل الساعة سمير الرفاعي . وبادرت وزارة
الانقلاب الى حل الاحزاب واعلان الاحكام العرفية ومنع التجول وعزل
الضباط الوطنيين . ورابط الجيش في كل مكان وفتحت ابواب السجون
للاحرار .

ولم يكن امراً صعباً افتعال المبررات .. فاختلقت قصة المؤامرة على
حياة الملك ، ودبرت فتنة الزرقاء العسكرية ، واثمهم الجيش السوري المرابط
في الاردن لمحايته من غزو اسرائيل بأنه يتواطأ على احتلال البلاد . كل ذلك
حتى يتأتى للولايات المتحدة ان تقحم قواها في النزاع باسم مبدأ اينهاور ..
انكم لتذكرون تلك الايام الخالكة السواد ، ولربما كان بعضكم في
عداد الكتائب السورية التي أمرت بالانسحاب من الاردن .

وهل من ضرورة الى مرد ماحدث في البلد الشقيق بعد الانقلاب الخائن؟

النواب الوطنيون يُزجّون في المحابس او يفرّون الى سورية كما يفرّ اليها قادة الجيش المخلصون. ويُحكّم الاردن حكماً ديمقراطياً مباشراً يهدف الى وأد الحركة القومية وتشتيت القوى التحررية، ذلك الحكم المستمر حتى اليوم .

أصبحت سورية العربية في نظر حكام الاردن أبعد عنه من اسرائيل . . . وقد صرّح بذلك سمير الرفاعي دون استحياء . . . وعمد المسؤولون الاردنيون الى اصطناع التهم وتديير المؤامرات ضد الدبلوماسيين السوريين والمصريين . ففي ٨ حزيران ١٩٥٧ جرّبت الحكومة الاردنية ان توقع الملحق العسكري المصري في مكيدة مدبّرة، ورغم افتضاح الامر تُطلب الى مصر ان تسحب ملحقها العسكري في عمان وقنصلها العام في القدس .

وفي اواخر شهر حزيران ايضاً عمل وزير الدفاع والحاكم العسكري العام سليمان طوقان ورئيس الاركان العامة حابس المجالي على تأليف محكمة عسكرية سورية للنظر في « محاكمة جميع الاشخاص الذين استرکوا في مؤامرات الاعتداء على حياة جلالة الملك وقلب نظام الحكم في المملكة والتآمر على سلامة الدولة وامنها الداخلي والخارجي » . . .

وفي الوقت ذاته نشرت وكالات الانباء ان اميريكاً عرضت مساعدة مالية على الاردن اذا وافق على تسوية مشكلة اللاجئين العرب مع اسرائيل، وأبدت حكومة الاردن استعدادها بتوطين مائة الف منهم . .

كان احرار الاردن يُسامون العذاب في بلادهم لمصلحة اسرائيل وحدها، وكان عداء الاردن لمصر وسورية لمصلحة اسرائيل وحدها ايضاً . . وكل ذلك بتديير الولايات المتحدة الاميريكية .

وفي ٤ تشرين الثاني من عام ١٩٥٧ نشرت جريدة الشعب المصرية تفاصيل مؤامرة اميريكية ترمي الى اضعاف فلسطين وتصفية القضية الفلسطينية وتوطين اللاجئين مقابل ثلاثين مليون دولار قبضها الملك حسين .

وإذا لم يخرج التصميم الى حيز التنفيذ فلأن الحكومة الاردنية أحست
بُسُدر الثورة في صفوف المواطنين جميعهم وعرب الضفة الغربية على
وجه التخصيص .

وفي ١١ كانون الاول ١٩٥٧ قامت الحكومة الاردنية بطرد ثلاثة من
موظفي السفارة السورية بعمان .

★ ★ ★

حسبي هذا القدر من الحديث عن الاردن المنكوب بحكامه ، فهو حديث
يمضّ القلب ويرمض العين .

تذكرون الاتحاد الهاشمي المعلن في ١٤ شباط ١٩٥٨ ، وتذكرون
انهاره في ١٤ تموز من ذلك العام ، ودعوة الجيوش البريطانية الى احتلال
الاردن بعد يومين من ذلك .

وفي ٢٠ تموز النعى الاردن اتفاقية الوحدة الثقافية مع الجمهورية
العربية المتحدة .

وفي ٢٩ تموز ذكر ان الملك حسين عقد مع الانجليز معاهدة سرية
تخمس سنوات ...

د - الاقتصاد العربي بين الواقع والامكان

الاقتصاديون مولعون بالارقام ، فهم يركنون اليها كما يركن المؤمن التقي الى الادعية والاوراد . ويظهر انهم يصلون بطريقةها الى نتائج عجيبة . فلنأخذ منهم بعض ارقامهم ، البعض النزر اليسير الذي ليس من إيراده بد .

وستكون جوائتنا الاولى تصويرية ، نحاول فيها ان نرسم الملامح والقسمات للاقتصاد العربي برمته . وفي جولة ثانية سنتفحص عن الدول التي جرى العرف ان تسمى عظمى او معظمة ، ترى ماهي عناصر هذه العظمة من وجهة نظر الاقتصاد ؟

ثم نردّ الطرف مرة اخرى الى دنيانا العربية باحثين عن هذه العناصر بالذات ، هل هي موجودة ام مفقودة ؟

١ - ملامح اقتصادنا الحاضر

ابرز ما يميزه انه اقتصاد تابع غير مستقل ، استعماري يرافقه احتلال عسكري او نصف استعماري تستغله الشركات والاحتكارات الاجنبية . وهو ثانياً اقتصاد مشتت مبعثر ، لأنه مجزء الى وحدات غير متكاملة مربوطة بأسواق خارجية . فكأن الوطن العربي جسم حي فصلت اعضاؤه

والصقت باجسام حية اخرى .
ان من الطبيعي ان يتكافل الاقتصاد العربي كله فلا يعوق تكافله حواجز
مانعة . ان من الطبيعي ان يكون للعرب سوق موحدة ونقد موحد
وشركات موحدة ومصارف موحدة حتى يتأتى لهم الصمود في وجه المنافسة
الاجنبية القوية . والواقع هو عكس ذلك :
ان دول الغرب تتعد وتتنظم في مجموعات اقتصادية متضافرة لتغزو
الوطن العربي وتستثمر موارده وثرواته .

الاصل ان تكون المبادلات بين اجزاء الوطن العربي راجحة على
المبادلات مع العالم الخارجي . والمشاهد هو النقيض .

ان القول بان البلاد العربية متماثلة الجو متشابهة الغلات فلا مجال للتبادل
الواسع بينها هو وهم جغرافي ؛ فلكل قطر عربي خصائصه وقابلياته ،
والتنسيق المنهح كفيل بأن يجعل من المجموعة العربية وحدة اقتصادية
مكتفية او شبه مكتفية بذاتها .

يصح ان تستورد البلاد العربية من البلدان الاجنبية ما لم تنهياً بعد
لاننتاجه على أرضها كالات والمصنوعات المعدنية وبعض المواد الخاصة
بالبلاد الحارة كالمطاط ؛ وقد يجوز لها الى أجل قريب ان تستمر على مشتري
الادوية والمنتجات الكيماوية ، أما الحيوانات والمنتجات الحيوانية
والنباتات والمنتجات الغذائية والحياوط والمنسوجات والملبوسات المتنوعة
فأمر جد مستغرب ان تعتمد على الدول الاجنبية في جزء كبير منها .

هذا مثال بسيط استمدّه من حولية الشرق الاوسط لعام ١٩٥٧ التي
تنشر في نيويورك ولندن : في عام ١٩٥٥ استوردت المملكة السعودية
ومصر والبحرين وقطر والكويت من الولايات المتحدة و إنجلترا وحدها
بما قيمته ٢١ مليون ليرة سورية من الحيوانات والمنتجات الحيوانية و٤٧
مليون ليرة من المواد الغذائية النباتية والمشروبات و٢٠ مليون ليرة من
الغزول والمنسوجات والملبوسات ..

ومن يريد الاستقصاء يجد في الاحصاءات الرسمية الغرائب من هذه
المفارقات . وما أردت هنا سوى المثال .

ان البلاد العربية تستهلك بن البرازيل بدلاً من قهوة اليمن ونسيج
الحرير الفرنسي بدلاً من قماش سورية وقطنيات ايطاليا وغيرها عوضاً عن
أنسجة مصر . والامثلة المشابهة لاتحصى . نجد ان ٧٠٪ على الاقل من
مبادلات تونس تجري مع فرنسا ، وتجارة الجزائر كلها تحتكرها الدولة
المستعمرة . وحتى الاقليم السوري فانه في تجارته الخارجية لايزال تابعاً
للدول الاجنبية ، ففي عام ١٩٥٧ بلغت قيمة الواردات الى سورية ٦١٦
مليون ليرة سورية منها ١٢١ مليون ليرة فقط من البلدان العربية اي ٢٠٪ ،
وبلغت قيمة الصادرات في العام ذاته ٥٤٨ مليون ليرة منها ٢٠٣ مليون
الى البلدان العربية أي ٣٧٪ .

اذا جاز لنا ان نستورد السلع الانتاجية لقاء تصدير الفائض من موادنا
الاولية فلا يجوز لنا الاستمرار على استيراد السلع الاستهلاكية التي نصنع
مثلها أو يجب ان نصنع مثلها .

ثم ان اقتصادنا يعتمد بالدرجة الاولى على القطاع الزراعي ، فالفاعلية
الاولى (زراعة ، رعي) تشغل من ٦٠ الى ٩٠٪ من مجموع السكان
العاملين في الوطن العربي ، بينما لاينتمي الى الفاعلية الثانية (الصناعة)
سوى ١٠٪ في أعظم احتمال .

ومن المعروف ان دخل الفاعلية الاولى ضئيل اذا قيس بدخل
الفاعليات الاخرى .

ولقد ظل الغربيون الدهر الاطول يغلغون أعيننا على الوهم بأن بلادنا
لاتصلح الا للزراعة ؛ فلما قامت الثورة المصرية بتصنيع الاقليم المصري
انجابت العشاوة عن أعيننا .

والصفة الرابعة لاقتصادنا انه حساس متأرجح . ذلك لانه يعتمد على:

أ - الموارد الزراعية المرتبطة بغيث السماء في اغلب الاقطار العربية .

ب - بيع المواد الاولية في الاسواق الخارجية ، وهي غير ثابتة بسبب ظروف العالم السياسية والاقتصادية .
 فاذا أخذنا الاقليم السوري مثلاً للبلد الزراعي الذي يعتمد على ري المطار في القسم الاكبر من مزروعاته نجد ان انتاجه الفلاحي يتغير تغيراً ضخماً من سنة الى اخرى حسب مقدار الغيث واليسم البرهان :

تقدير عام ١٩٥٨	عام ١٩٥٧
انتاج الحنطة ٦٧٦,٠٠٠ طن	١,٣٥٤,٠٠٠ طن
انتاج الشعير ٢٠٣,٠٠٠ د	٧٢١,٠٠٠ د

ومثال آخر على تبدل الاسواق الخارجية :

كانت تجارة الاستيراد للاقليم السوري تسجل مع الاتحاد السوفياتي أقل من مليوني ليرة عام ١٩٥٦ فارتفعت الى ٤٥ مليون عام ١٩٥٧ . وكانت مستوردات الاقليم من الولايات المتحدة اكثر من ٧٧ مليون ليرة عام ١٩٥٦ فهبطت الى ٤٤ مليون عام ١٩٥٧ . وكانت صادرات الاقليم السوري متراجعة على النحو التالي في العامين ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ :

سنة ١٩٥٧	سنة ١٩٥٦	بلد التصدير
٩٢,٩ مليون ليرة	١٢٠,٦ مليون ليرة	لبنان
٥٦,٣ د	٦٣,٤ د	فرانسا
١٢,٣ د	٤ د	الاتحاد السوفياتي
٦,١ د	١٠,٩ د	بريطانيا
٢٠,٧ د	٢١,٢ د	الولايات المتحدة

وبما ان سكان البلاد العربية يستمدون مواردهم الرئيسية من الزراعة فيتسم اقتصادهم بالبطالة المقتتعة . ذلك ان اتساع الارض المزروعة لا يتوافق مع تكاثر السكان ، فان قسماً من هؤلاء يصبح بالفعل عاطلاً عن العمل اذا لم ينزح الى المدن ويجد مورداً جديداً في الصناعة أو التجارة

وهكذا فان المجتمع الريفي يتكاثر في العدد ولا تزداد ارضه الفلاحية ،
 ويعني هذا ان افراد اسرة الفلاح يصبحون اكثر عدداً بما تستلزمه أعمال
 الارض ، ونسمي ذلك بالبطالة المستترة او المقنّعة .
 ولا أدل على ذلك من الاقليم السوري :

نسبة الزيادة	عام ١٩٥٧	عام ١٩٥٦	عدد السكان
٢,٩%	٤,١٤٤,٩٨٠	٤,٠٢٥,١٦٥	
١,٣%	٤,٦٥٠,٠٠٠ هكتار	٤,٥٩٠,٠٠٠ هكتار	مساحة الأرض المزروعة

ولعل أعمّ ظاهرة للاقتصاد العربي وأدعاها الى التامل هي هجوة
 الميزان التجاري ، وذلك ان البلدان العربية تصدر المواد الاولية ونصف
 المصنوعة ، وهي رخيصة الثمن ، وتستورد السلع المصنوعة الاستهلاكية
 والانتاجية المرتفعة القيمة .

ففي المثال التالي تجدون ان الاقليم السوري قد خسر في الميزان
 التجاري نحواً من مليار ليرة سورية في السنوات السبع الاخيرة ، وهو
 يعوّض بعض هذه الخسارة بموارد غير مرئية كموارد السياحة وأموال
 المغتربين والبضائع المهربة :

تجارة الاقليم السوري الخارجية :

السنة	الاستيراد بملايين الليرات	التصدير بملايين الليرات	الخسارة
١٩٥١	٤٣٥	٢٧٧	١٥٨
١٩٥٢	٤٥٩	٣٢٠	١٣٩
١٩٥٣	٤٦٢	٣٧٦	٠٨٦
١٩٥٤	٦٣٤	٤٦٦	١٦٨
١٩٥٥	٦٧٧	٤٧٤	٢٠٣
١٩٥٦	٦٩٠	٥١٦	١٧٤
١٩٥٧	٦١٦	٥٤٨	٠٦٨

وفي المدة ذاتها بلغت خسارة الاقليم المصري في الميزان التجاري نحواً
من ٢٩٠ مليون جنيه :

تجارة الاقليم المصري الخارجية :

السنة	الاستيراد بملايين الجنيهات	التصدير بملايين الجنيهات	العجز
١٩٥١	٢٤٢	٢٠٠,٧	٤١,٣
١٩٥٢	٢٢٣	١٤٢,٩	٨٠,١
١٩٥٣	١٧٧	١٣٥,٩	٤١,١
١٩٥٤	١٦١	١٣٦,٨	٢٤,٢
١٩٥٥	١٨٣	١٣٧,١	٤٥,٩
١٩٥٦	١٨٥	١٤١	٤٤
١٩٥٧	١٨٢,٦	١٧٠,٢	١٢,٤

وبسبب الظروف السياسية انقلب ايضاً تيار التجارة الخارجية للاقليم
المصري ، كما يدل ميزان التعامل التجاري بين مصر والاتحاد السوفياتي
والولايات المتحدة الاميريكية :

السنة	تجارة مصر مع الولايات المتحدة		تجارة مصر مع الاتحاد السوفياتي	
	التصدير	الاستيراد	التصدير	الاستيراد
١٩٥٥	٩ مليون جنيه	٢١,٨ مليون جنيه	٧ مليون جنيه	٢,٣ مليون جنيه
١٩٥٦	٤,٦	٢٤,٩	٥,٥	٧,٨
١٩٥٧	٥,٨	٥,٦	٣١,٢	١٨,٥

وقد بلغت خسارة العراق في تجارته الخارجية عام ١٩٥٧ نحواً من ٩٩
مليون دينار ، يعوّض ٦١ مليوناً منها ببيع النفط .

ولولا رفق المغتربين وموارد الاصطيف لتهوى اقتصاد لبنان من
أساسه ، لأن عجزه في المبادلات الخارجية يزداد عاماً عن عام :
تجارة لبنان الخارجية بملايين الليرات :

السنة	المصدّرات	المستوردات	اعادة التصدير	العجز
١٩٥١	٩٧,٦	٣٢٠,٧	٨,٢	٢١٤,٩
١٩٥٢	٧٧,٤	٣٤٧	١٩,٥	٢٥٠,١
١٩٥٣	٨٧,٧	٣٦١,٧	١٢,٢	٢٦١,٨
١٩٥٤	١٠٥,٦	٤٨٤,٤	١٤	٣٦٤,٨
١٩٥٥	١٢٠,٥	٥٢٧,٣	١٦,٤	٣٩٠,٧
١٩٥٦	١٤٥,٨	٥٦١	١٤,٥	٤٠٠,٧

والعجز التجاري يزيد عن ٢٥ مليون دينار سنوياً في الاردن و ١٠ ملايين جنيه في كل من ليبيا ومستعمرة عدن وتراوح هذا العجز بين ٢٢ و ٢٨ مليار فرنك في تونس خلال السنوات الاخيرة لمصلحة فرانساً وحدها .. أما خسارة مملكة المغرب في التجارة الخارجية فتزيد عن ٦٧ مليار فرنك في العام ..

هذه أرقام تنطق بما لا يتطرق اليه الريب ؛ وهي تثبت ان الخسارة التجارية للدول العربية ليس سببها المبادلة فيما بينها بل المتاجرة مع الدول الاجنبية .

وعندما نقول بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها من دول الاستعمار ان القومية العربية المتنامية من شأنها ان تنقص رفاهة ابنائها فهي على حق ، لان رفاهة ابنائها تقوم على تضور ابنائنا جوعاً وتختلف بلادنا وضياح مواردنا .

وقد حاولت ان استقصي مغامر إنجلترا والولايات المتحدة من تجارتها الخارجية مع بلادنا في سنة طبيعية كسنة ١٩٥٥ ، فوصلت الى النتائج الآتية ، وهي لاتشمل ارباح النفط والاحتكارات والمؤسسات المالية وأعطيات الموظفين والخبراء :

لقد ربحت بريطانيا من فرق مبادلاتها التجارية مع عشر دول عربية عام ١٩٥٥ نحواً من سبعين مليون جنيه استرليني . واليكم القائمة بالتفصيل :

الوطن العربي م ١٨

صادرات بريطانيا الى	واردات بريطانيا من	الربح الصافي
المملكة السعودية ٧,٨ مليون جنيهه	٣,١ مليون جنيهه	٤,٧ مليون جنيهه
مصر ٢٣,٦	٨	١٥,٦
العراق ٢٧,٤	٢,٢	٢٥,٢
الاردن ٥,٢	٠,١	٥,١
ليبيا ٣,٦	٠,٩	٢,٧
السودان ١٥	١٤,٢	٠,٨
لبنان ٨,٢	٠,٥	٧,٧
البحرين ٤,٧	-	٤,٧
مستعمرة عدن ٦,٥	٤,٤	٢,١
سورية ٥,٥	٤,٨	٠,٧

ورجحت الولايات المتحدة الاميريكية في العام ذاته قرابة ١٢٠ مليون دولار من تسع دول عربية :

صادرات الولايات المتحدة الى	واردات الولايات المتحدة من	الربح
المملكة السعودية ٦٩ مليون دولار	٥٦,٣ مليون (مع النفط)	١٢,٧ مليون
مصر ٥٥,٥	٢٣	٣٢,٥
العراق ٣٨	١,٦	٣٦,٤
الاردن ٧,٣	٠,٠٥	٧,٢
ليبيا ٠,٦	٠,٠٠٧	٠,٥
السودان ٣	٢,٨	٠,٢
لبنان ٢٠	٣,٤	١٦,٦
البحرين ٥	-	٥
سورية ١٣,٥	٦	٧,٦

ونكرّر القول بان السلع الغذائية والمواد الاولية هي الراجعة في ميدان التصدير لدى البلدان العربية ، مثال ذلك ان الصادرات في الاقليم السوري رغم تصنّعه توزعت كما يلي عام ١٩٥٧ :

مواد غذائية : ٢٠٧,٣ مليون ليرة

مواد اولية : ٢٦٠,٥ »

مواد مصنوعة : ٨٠ »

بينما تأتي المواد المصنوعة في رأس المستوردات ؛ ففي العام ذاته كانت مستوردات سورية تنقسم الى الفئات التالية (١) :

مواد مصنوعة : ٣٨٥,٥ مليون ليرة

مواد اولية او نصف مصنوعة : ١٧٠,٦ مليون ليرة

مواد غذائية : ٨٩,٩ مليون ليرة

هذا وان الدول الكبرى تستهلك القسم الاعظم من نتاجها الزراعي والصناعي في اسواقها الداخلية ، فالولايات المتحدة الاميريكية والاتحاد

(١) كانت كثرة دول اوربا الشرقية في مثل احوالنا تحلفاً واعتماداً على الزراعة وقد جهدت بعد الحرب العالمية الثانية ان تنمي صناعاتها وتزيد من صادراتها الصناعية كما يدل المثال التالي عن بلغاريا :

تصدير	سنة ١٩٣٩	سنة ١٩٥٠	سنة ١٩٥٢	سنة ١٩٥٥
منتجات صناعية	٣,٨%	١٥,٩%	٢٩,١%	٤٤,٥%
منتجات زراعية	٩٦,٢%	٨٤,١%	٧٠,٩%	٥٥,٥%
أونصف مصنوعة				

ومن الامثلة على الدول التي اهتمت أخيراً بالتصنيع بولندا . فقبل الحرب الاخيرة كان ٦١,٦ ٪ من سكان هذه الدولة يعتمدون في كسب عيشهم على الزراعة ، وكان عدد السكان الريفيين الزائدين عن الحاجة يقدر بحوالي ٨ ملايين . وفي عام ١٩٥٠ أصبح ٤٥,٧٥ ٪ فقط من السكان يعولون أنفسهم عن طريق الزراعة ، والاعلبية - أي ٥٤,٢٥ ٪ - تعمل في الصناعة والنقل والتجارة والادارة وغيرها .

هذا ولا بد في كل نهضة اقتصادية من البدء باستيراد السلع الانتاجية (كالمعامل) ولذا نجد ان مستوردات الاقليم المصري من هذه السلع قد ارتفعت الى ٣٦ ٪ من جملة المستوردات عام ١٩٥٧ بينما لم تزد عن ١٨ ٪ عام ١٩٣٠ .

السوفياتي تتاجر مع الخارج بأقل من ١٠٪ من انتاجها ، بينما يعتمد الاقتصاد العربي بنسبة الربع او الثلث على التجارة الخارجية .
ولاستكمال اللوحة الاقتصادية للبلدان العربية يجب ان نذكر دور الاحتكارات والشركات الاجنبية في استغلال موارد تلك البلاد ، من مصارف وشركات صناعة وتجارة ونقل بالاضافة الى احتكارات النفط .
وقد حُسب في مصر عام ١٩٥١ ان رؤوس الاموال في الشركات المساهمة بلغت ١١٨ مليون جنيه يمتلك الاجانب ٦١٪ منها ...

يحتاج الوطن العربي ، اذن الى تصميم جديد كامل لمناحيه الاقتصادية على أساس الوحدة والتكامل . ولا ريب ان ذلك لا يقع دوماً موقع القبول في نفوس المواطنين الذين اعتادوا نهجاً تقليدياً في شؤونهم الاقتصادية لا يرتضون تبديله بسهولة . وكل تكوين مجدّد لاندحة له عن الاصطدام بالاجواء الراكدة قبل ان يحركها ويقم توازنها على ركائز مغايرة تنهض بالقدرة الانتاجية وترفع بالتالي من المستوى المعاشي .

٢ - شرائط عظمة الامم في الميدان الاقتصادي

نحّب للوطن العربي ان يداني الدول المعظمة ، فما هي دعائم تلك الدول ؟

تكلمنا منذ البداية عن رأس المال البشري في السلم وفي النوع ، ولا نعرض هنا الا الى المقومات الاقتصادية .
وأهمها امتلاك موارد رئيسية تغذي صناعات رئيسية ضرورية في زمن الحرب وزمن السلم .

وتلك المواد الرئيسية لا يتأتى لدولة ما ان تتوافر فيها كلها ، ولا بدّ من الاعتماد على المبادلة الخارجية في جزءٍ منها . ونستطيع حصرها في الزمر التالية :

أ - المواد الغذائية : كالجبوب واللحوم والالبان ومشتقاتها .
ب - القوى المحركة : الفحم الحجري ، البترول ، الفحم الابيض ،
القدرة الذرية .

ح - المعادن الصناعية : كالحديد والرصاص والالمنيوم والمنغنيز
والقصدير الخ ..

د - المعادن الثمينة : الذهب ، الفضة ، البلاتين .

هـ - المواد الكيميائية الطبيعية : كالبوتاس والفوسفات والكلور .

و - المواد الكيميائية الصناعية : سلولوز الخشب ، الاسمنت الخ ..

ز - المواد الحيوانية والنباتية الطبيعية او المصنوعة : المطاط ، القطن ،
الصفوف ، الحرير الخ ..

ويجب ان تنهياً الى جانب هذه الموارد طرق مواصلات كثيفة وأموال
عينية بالاضافة الى الخبرات الفنية والافادة من هذه الموارد تجعل للدولة
جيشاً منيعاً محمي استقلالها .

٣ - وصيد الوطن العربي بالموارد الرئيسية

آ - لا يستغلّ العرب من أرضهم الصالحة سوى رقعة يسيرة مستعنيين
بوسائل مفرقة في القدم والبدائية ، ورغم ذلك فهي تعطيهم من الغذاء
ما يفيض عن حاجتهم ، وما ينقص في قطر يتوفر فضل منه في قطر آخر ،
ويتبقى رصيد كبير للتصدير .

خذوا الحبوب مثلاً ، فان محصولها الوسطي يتجاوز ١٧ مليون
طن ، ويعني ذلك ان كل مواطن عربي - بما في ذلك الرضع والاحداث -
يصيبه سنوياً ٢٠٠ كغ ، وهو لا يحتاج الى اكثر من ١٥٠ - ويستطيع
الوطن العربي أن يصدّر الى البلدان الاجنبية نحو ٤ ملايين طن تدرّ عليه
قرايه ثلاثة أرباع المليار من الليرات السورية . وعندما تتحسن طرق
الانتاج سيتضاعف هذا الرقّ مرات ثلاث ، وحينئذ ذلك نبلغ مرتبة الاتحاد
السوفياتي والولايات المتحدة الاميريكية حيث يصيب الفرد سنوياً من
منتوج الحبوب ٦٤٠ و ٦٠٠ كغ .

وفي الوضع الراهن بمكنة الاقليم المصري كفاية نفسه بالحبوب مع
تصدير الارز . وفي السنوات العادية تتمكن الدول العربية في افريقيا الشمالية

مع سورية والعراق ان تسدّ حاجة باقي البلدان العربية التي تنتج من الجبوب أقل من كفايتها ، بالاضافة الى ما تصدره الى العالم الخارجي .

ويمتلك الوطن العربي مقادير ضخمة من الاشجار المثمرة ، وقد حسبت ان كل مواطن عربي يصيبه شجرة نخيل وشجرة زيتون وثلاث غرسات من الكرمه فيما عدا اشجار الثمار الاخرى الكثيرة التنوع .

ان عدد اشجار الزيتون تبلغ في ستة بلاد عربية فقط ٧٠ مليوناً ، وهي تونس والمغرب والجزائر والاقليم السوري ولبنان وليبيا . وتضم تونس وحدها ٢٧ مليون غرسه يثمر منها ٢٠ مليوناً .

وست دول عربية أيضاً تزدان ارضها بنحو ٦٣ مليون شجرة نخيل ، وهي العراق والسعودية والجزائر والمغرب وتونس وليبيا . ويمتلك العراق وحده نصف ما يمتلكه الوطن العربي كله من النخيل ، وهو المصدر الأول للتمور في العالم .

وتنتج دول المغرب وتونس والجزائر ولبنان وليبيا نحو ٧٠٠ الف طن في العام من الحمضيات ، وفي مصر وحدها ٧ ملايين غرسه ، وكان انتاج دولة المغرب ٣٥٠ الف طن عام ١٩٥٧ ، وقد استلب اليهود منا ٤٧٠,٠٠٠ طن تلبت سنوياً على أرض فلسطين المعطاء .

ولست هنا في موضع الاستقصاء ، وانما التحير الأمثلة . .

ولا ندحه من الاعتراف بأن مثل هذه الاحصاءات لا تكون الا تقريبية ، ومع ذلك فهي عظيمة الدلالة .

هذه بضعة أرقام اخرى متناثرة مستقاة عن الاحصاءات الرسمية

عام ١٩٥٧

كان في الاقليم السوري ٩٠ مليون شجرة مثمرة موزعة بين الكرمه والزيتون والتين والمشمش والتفاح واللوز والفسق الخ . .

بلغت غلة الكروم وحدها في دولة المغرب ١٧ مليار فرنك .

انتجت جمهورية تونس ٨٠ الف طن من زيت الزيتون بينما حاجة الاستهلاك المحلي لا تزيد عن ٣٠ الف طن . .

ونريد ان نخلص من كل ذلك الى التأكيد بأن ثروة العرب الغذائية
 المعتمدة على الأرض ستجعل من دولة العرب الموحدة قوة اقتصادية ذات
 وزن في الاقتصاد العالمي ، وذلك حين تتسع شبكات الري وتتطور ادوات
 الانتاج .

**والثروة الحيوانية اكثر نماءً في الوطن العربي بالنسبة الى عدد السكان
 منها في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة .**

ففي الاتحاد السوفياتي ١٣٠ مليون رأس من الضأن والماعز و ٧٠
 مليون رأس من البقر ، أي أن لكل مواطن رأس من الانعام
 وفي الولايات المتحدة ٧٨,٥ مليون رأس من البقر و ٣٤ مليون من
 الغنم والماعز ، فيقابل الفرد الاميريكي أقل من دابة .

أما في الوطن العربي فعدد الأغنام والماعز يزيد عن مائة مليون ،
 والابقار والجواميس لا تقل عن ١٦ مليوناً ، فيكون نصيب المواطن
 رأس ونصف من الماشية تقريباً .
 وفي البلاد العربية عدد من الابل يقابل في القيمة عدد الخنازير في البلاد
 الاجنبية وجمهورية السودان وحدها تمتلك نحو مليوني جمل بالاضافة الى
 ٥٥ مليون من الابقار .

وفي الواقع ، قليلة هي الاقطار العربية التي لا تجد ضمن حدودها
 ما يكفيها من نتاج الماشية ، والحيوانات الغذائية تحتل مكاناً هاماً في
 التصدير العربي الى الخارج (١) . وقد جاء في تقارير المغرب الفلاحية لعام

(١) ليس لجميع الدول العربية احصاءات شبه موثوقة عن عدد الماشية . والارقام

المتوفرة لدينا هي :

الدولة	غنم وماعز	ابقار وجواميس	الدولة	غنم وماعز	ابقار وجواميس
سورية	٧,٢٧٠,٠٠٠	٥١٢,٠٠٠	ليبيا	١,٥٠٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠
المغرب	١٩,٠٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠	الاردن	٩١٠,٠٠٠	٥٢,٠٠٠
تونس	٥,٢٠٥,٠٠٠	٤٨٣,٠٠٠	العراق	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
الجزائر	٩,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	السودان	١١,٠٠٠,٠٠٠	٥,٥٠٠,٠٠٠
اقليم مصر	٢,٠٠٠,٠٠٠	٢,٦٨٥,٠٠٠	لبنان	٥٦٠,٠٠٠	٦٢,٩٠٠
			محمية عدن	٩٨٥,٠٠٠	٦٢,٠٠٠

١٩٥٧ أن في وسع هذه الدولة أن تضع رهن إشارة الاسواق الخارجية في كل سنة ما يتراوح عدده بين ٣٥٠,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ من رؤوس الغنم . والاقليم السوري صدر عام ١٩٥٦ : ٧٣٤,٠٠٠ رأس من الحيوانات الحية واستورد ٢٨٢,٠٠٠ ، فكان رصيده ربحه الصافي ٢٥ مليون ليرة سورية . وليس من شك في ان المغام المستغلة من القطيع ستضاعف اذا هبىء له العلف المزدرع وحمي من العطش والصقيع ووقى من الآفات والامراض . وقد قدر الخبراء عام ١٩٥٢ خسارة الاقليم المصري نتيجة لاصابات القطيع بجوالي ٤٢,٥ مليون جنيه أي بما يفوق عائدات قناة السويس ...

ب - وثروة الوطن العربي بالمعادن والفلزات ومنابع القدرة ليس بالوسع احصاؤها لان معظمها لم يكشف عنه ورغم ان أعمال التنقيب لم تتناول بعد جميع بقاع الارض العربية فمدّخرها بالنفط المؤكد حتى الآن يعادل ٦٥٪ من احتياطي العالم كله أي نحواً من ١٧٢ مليار برميل .

وبلغ منتوج النفط العالمي سنة ١٩٥٧ حوالي ٩١٣ مليون طن ، كان نصيب الوطن العربي منه اكثر من ١٥١ مليون ، أي ١٦,٥٪ وكان على رأس الدول العربية المنتجة : الكويت (٥٧ مليون) والمملكة السعودية (٤٩) والعراق (٣١) وقطر (٧) ، وتأتي بعد ذلك مصر والمنطقة المحايدة والبحرين ومراكش . وكانت الجزائر تنتج قبل عام ١٩٥٧ أربعين الف طن سنوياً ولكن انتاجها تضخم كثيراً بعد استثمار آبار الصحراء التي يقدر مدّخرها بـ ١٧٢ مليار طن . والمقدر ان يبلغ انتاج النفط الجزائري ١٢ مليون طن عام ١٩٦٣ . وقد استغل اليهود مكان النفط في فلسطين المحتلة وهم ينتجون سنوياً ثلاثين الف طن .

ويُعثَر على زيت البترول في الطبقات الارسابية الخفيفة التموّج . والقرائن الكثيرة تدلّ على امكان وجوده في اليمن وليبيا وتونس

والاردن ولبنان والمأمول ان تنتج جيوب « قره شوك » في الاقليم السوري نحواً من مليون ونصف طن في العام

هذه الثروة الثرة لا ينتفع بها العرب اليوم الا اقل الانتفاع ، فهي نهب للشركات الاميريكية والبريطانية والفرنسية ، التي تدفع من حيث المبدأ نصف ربحها الى الدول العربية صاحبة الارض ، ولكنها في الواقع تنظم حساباتها كما تريد وتدفع كما تريد ، بعد ان تسحب من المغنم شطراً ضخماً باسم صيانة المنشآت والايدياع الاحتياطي وغير ذلك ..

وفي النتيجة لا تقبض الدول والامارات العربية المنتجة للنفط سوى ربع الأرباح على اعظم تقدير . وهذا الجعل على ضعف نسبهته يشكل رقماً ضخماً من شأنه ان ينهض بتمويل التصنيع ورفع الزراعة الى مرتبة الصناعة وبث الري في الوطن العربي كله

ان مايصل لايدي العرب من ثمن بتروهم لاينقص في العام عن ٨٠٠ مليون دولار . فماذا يصنعون به ؟ ! ..

تستطيع امارة الكويت وحدها - لو انتزعت حق التصرف بأموالها - ان تضطلع بنفقات « السد العالي » في مدى سنتين ، وتصيب من ذلك مغنماً كبيراً وعزاً خالداً ، بدلاً من ايداع رصيدها في مصرف إنجلترا ..

واذا لم يكن للقومية العربية في امامها الكريمة الآتية سوى حمل الاحتكارات النفطية الاجنبية على التعامل مع العرب دون تحييف او انتقاص لاستحقت ان لا يرضئوا في سبيلها بالجهود والاربعيات .

ويحتل الوطن العربي مكان الصدارة في انتاج الفوسفات للتسميد واستنباط المستحضرات الكيماوية . ومتوسط المنتج سنوياً ٩ ملايين طن (المغرب ٦٢,٨٪ ، تونس ٢٣٪ ، الجزائر ٨٪ ، مصر ٥,٤٪ ، الاردن ١,٧٪) وقد بدأ اليهود باستخراج الفوسفات في فلسطين المحتلة حتى زاد مستخرجهم السنوي عن ٧٢,٠٠٠ طن

اما الفحم الحجري الناضج ، فهو عزيز في الارض العربية لندرة صخورها المتكوّنة في الحقبة الجيولوجية الاولى . ومع ذلك فان المغرب والجزائر يستخرجان نحو ٨٠٠ الف طن في العام ؛ وتستطيع مصر ان تستخرج القليل منه في شبه جزيرة سيناء . ومهما يكن الامر فلا يمكن البلاد العربية ان تعتمد على هذا النوع من الوقود لبناء كيانها الصناعي ، وبوسعها ان تعوّض هذا النقص بالاعتماد على النفط وعلى الفحم الابيض (الكهرواء) المتولد عن المساقط والشلالات

والحديد متوفر ومستخرج في الجزائر وتونس والمغرب ومصر ؛ وجملة انتاجها خمسة ملايين طن تعود ثلاثة ارباعها للجزائر . وتعرفون ان الاقليم المصري عمد الى الافادة من حديد اسوان واستغلال اكثر من ٢٥٠,٠٠٠ طن في العام لرفد معمل الصلب في حلوان .

ان جرد جميع الخيرات المعدنية الدفينة في الارض العربية يقتضي ما سرد الكثير من الاسماء والارقام . وحسبي ان اذكر بان موطننا غني بالهام من مقومات الاقتصاد الحديث كالرصاص والنحاس والزنك والمنغنيز والكبريت والكروم والاميانت والذهب والفضة الخ ..

والتحريات الحديثة سوف تكشف في المستقبل عن خبايا معدنية قيّمة لاتقل عما وجد في البلاد المماثلة لارض العرب من حيث البنية الجيولوجية . وقد نشر الامريائيون الغاصبون لفلسطين انهم اكتشفوا في النقب كثيراً من المعادن واشباهها كالنحاس والمغنيزيوم والحمرّ والقار والكبريت والتونغستين والتيتان ، والزرقون ، بل هم يؤكّدون وجود الاورانيوم ايضاً . ج - ولا يفترق عالم العرب الى الغابات المتنوّعة ، ففي وطننا لا اقل من ١٢ مليون هكتار من الارض الحراجية - اي ما يعادل مساحة بلجيكا وسويسرا والدينمارك مجتمعة - اكثرها في المغرب والجزائر والسودان والعراق وتونس والاقليم السوري واليمن وعمان ولبنان والاردن .. وفي هذا العام انشيء في قرية « سيدي يحيى الغرب » المراكشية اول معمل

نصنع عجين السللوز من الخشب . وتنتج جمهورية السودان نصف انتاج العالم من الصمغ العربي .

د - وبلاتم مزاج بلادنا الملاءمة كلها نمو الزراعات الصناعية ، كالقطن والكتان ، والقنب والتبغ وقصب السكر والشوندر السكري الخ فنحن على ضعفنا الحاضر ننتج من القطن اكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ طن (مصر ٤٠٪ ، سورية ٢٨٪ ، السودان ٢٨٪ وما يتبقى للعراق ومحمية عدن والمغرب) .

هـ - هذا وان المطاط ينجح في جنوب السودان والصوف سلعة مبدولة في كل بلد عربي ، واذا اجريت عمليات تصالب مع ضان المرينوس امكن الحصول على صوف ناعم غزير ، وضان المرينوس 'تنسب في الاصل الى قبيلة بني مرين في الجزائر .

و - هذه الصورة التي رسمناها تقطع بأن مواردنا وفيرة ولكنها ضعيفة الاستغلال ، وبالتالي فهي قابلة للاثاء .

وينعكس ضعف الاستغلال على آفاقنا الصناعية فيجعل واقعنا الاستهلاكي اوسع من مقدرتنا الانتاجية الا في صناعات تحويلية محدودة . ولا ريب في ان الجمهورية العربية المتحدة باقليمها من اسبق الدول العربية في حلبة التصنيع ، ومع ذلك فهي لاتوفر للاسواق الداخلية كفايتها في اكثر من صناعة .

ونستدل على تخلفنا في الانتاج الصناعي ببعض الامثلة :

الانتاج بالنسبة للفرد من الطاقة الكهربائية :

الولايات المتحدة الاميريكية	٣٣٥٠	كيلووات ساعي عام	١٩٥٦ (١٩٢٤-١٩٤٨)
فرنسا	١٠٦٠	»	»
بلغاريا	٣٩٠	»	» (١٩٥٧-٤٢ عام ١٩٣٩)

١٩٥٥	»	»	١٤٧	لبنان
١٩٥٦	»	»	٠٩٦	المغرب
»	»	»	٩٠	الجزائر
١٩٥٧	»	»	٦٤	الاقليم السوري
»	»	»	٦١	الاقليم المصري
١٩٥٦	»	»	٦٠	تونس

الانتاج بالنسبة للفرد من الاسمنت :

١٩٤٨	كغ عام	٢٤٠	الولايات المتحدة الامريكية	
١٩٥٧	»	»	٧٩,٢	الاقليم السوري
»	»	»	٦١	الاقليم المصري
١٩٥٦	»	»	٦٠	المغرب
»	»	»	٤٤	تونس

الانتاج بالنسبة للفرد من نسيج القطن :

١٩٤٨	متر مربع عام	٦٠	الولايات المتحدة الامريكية	
١٩٥٧	»	»	٢١,٤	بلغاريا
١٩٥٧	متر مربع عام	١٨	الاقليم المصري	
»	»	»	١٦	الاقليم السوري

والبلاد العربية كلها تحت الخطو نحو التصنيع ، وتدعم حكوماتها ذلك السير بالتشجيع والحماية والمبادأة والتخطيط والمساهمة .

ولكن الخطو كل الخطو يكون في افامة هذا للتصنيع على أساس الكيانات العربية المجزأة ، وبذا تتبعثر رؤوس الاموال في مؤسسات صغيرة متائلة ، وبالتالي تزداد اكلاف الانتاج ويعود ذلك بالغبن على المستهلك ورب العمل معا .

اية حماقة أمعن في الحق من ان تتنافس الدول العربية في مجال الصناعة ،

فيضيق ميدانها الاستهلاكي وينكمش انتاجها وتتهاوى امام المزاومة
الاجنبية القوية !

معنى الاقليمية الضيقة في الاقتصاد العربي هو للتبذير والضمور وارتفاع
الثلث والعجز عن مضاهاة الاقتصاد الاجنبي . وهؤلاء الذين يحرصون على
الاستقلال الاقتصادي ضمن الحدود الزاهنة للدول العربية يجنون اول
ما يجنون على اقتصاد دولهم بالذات .

ان الوحدة الاقتصادية للوطن العربي ضرورة حيوية تفرضها المصلحة
قبل العاطفة . ويجب ان تبني هذه الوحدة منذ الآن على اساس لم الجهود
وتوزيع الاختصاص وتوسيع مدى الاستهلاك .

ز - ومن مظاهرها الوهن الاقتصادي تخلل طرق الاتصال وقصر مداها .
فالوطن العربي كله لايشتمل الا على ٢٣٣٠٠ كم من سكك الحديد (١)
وهو رقم لا يصل الى نصف ما تمتلكه فرنسا وحدها (٥٠٠٠٠ كم) ويعني
ذلك ان لكل ١٠٠ كم^٢ من ارضا ٢٠٠ متر فقط من الخطوط الحديدية ؛
وفي فرنسا ١١ كم^٢ والمجملترا والمانيا ١٣ كم^٢ وبلجيكا ٣٠ كم^٢ ...
وإذا قسنا حاجة السكان الى سبل المواصلة بنسبة عددهم وجدنا ان
الكيلو متر الواحد من الشبكة الحديدية يقابله في فرنسا ٨٨٠ شخصاً ،
والنسب في الدول العربية هي التالية .

الدولة	ما يقابل الكيلو متر الواحد من سكك الحديد
تونس	١٧٦٠ نسمة
الجزائر	٢٠٤٤)

(١) اطوال الخطوط الحديدية في الدول العربية :

القلي مصر ٧٠١٢ كم ، الجزائر ٤٠٢ ، السودان ٣٤٤١ ، تونس ٢١٦٠ ،
المغرب ١٧٦١ ، العراق ١٦٤٨ ، اقليم سورية ٨٥٤ ، المملكة السعودية ٥٧٠ ، ليبيا
٥٤٧ ، لبنان ٤٠٠ ، الاردن ٣٦٧ .

»	٢٨٠٠	ليبيا
»	٣٠٥١	السودان
»	٣٤٢٣	اقليم مصر
»	٣٧٥٠	لبنان
»	٣٩٤٥	العراق
»	٤٠٨٧	الاردن
»	٤٨٠٠	اقليم سورية
»	٥٦٧٠	المغرب
»	١٢,٠٠٠	المملكة السعودية

وفي فرنسا كيلومتر واحد من الطرق المرصوفة وغير المرصوفة لكل ٧٠ من المواطنين ، وتراوح النسب في البلاد العربية كالاتي :

اقليم مصر	١٣٦٠	نسمة لكل ١ كم
العراق	٥٦٥	»
اقليم سورية	٣٨٣	»
لبنان	٣٧٥	»
ليبيا	٣٥٤	»
الجزائر	٣٠٠	»
تونس	٢٦٢	»
المغرب	٢١١	»

ح نعود في خاتمة المطاف الى ما بدأناه به ، نعود الى «الدور الفاسد» الذي صورناه بقولنا : ان تنمية الانتاج تفتقر الى المال ، والمال لا يجتمع الابتنمية الانتاج ..

والدور الفاسد هنا شكلي ، أثبتت ذلك وثبته كل يوم الدول المتخلفة التي أجرت انقلاباً شاملاً في تركيبها الاقتصادي بع الحرب العالمية الثانية . صحيح ان كل تنمية اقتصادية تبدأ من المال ؛ ولكن هذا المال لا يتعدى جمعه اذا عمدت الدولة الى التعمية والتنهيج .

والواقع ان تمويل المشروعات الانتاجية يتحقق من الخارج ومن الداخل .
فالسبيل الاول هو الاستقراض الخارجي غير المشروط . والمشاريع
الجديدة تسدّد القروض وفوائدها بعد دخولها معترك الانتاج .
والطريق الثاني يعتمد على الادخار الاهلي وتشجيع استثماره في
المشروعات المصنّمة مع ضمان حد أدنى من الربح له .

فلنفرض ان الاقليم السوري بحاجة الى ٥٧٥ مليون ليرة لكي يشيد
هيكله الانتاجي على قواعد جديدة في مدى خمس سنوات .
ولنقدّر ان ٤٠٪ فقط من سكان الاقليم قادرون على كسب معيشتهم
عن طريق العمل .

فاذا استطعنا اقتناع هؤلاء السوريين العاملين - وعددهم ١,٦٠٠,٠٠٠ -
ان يودع كل منهم في صناديق التوفير ٢٠ قرشاً في اليوم نحصل في آخر
العام على ١١٥ مليون ليرة فيجتمع بين ايدينا ٥٧٥ مليون ليرة في غضون
خمس أعوام (١) .

ومن الثابت ان كل دولة تستطيع الانفاق على مشروعات التنمية في
حدود ١٠ الى ٢٠٪ من الدخل القومي العام . وقد دلت الدراسات العميقة التي
قامت بها دوائر الاحصاء في الاقليم السوري ان الدخل القومي العام لسنة
١٩٥٦ لا ينقص عن ٢٢٠٠ مليون ليرة .

هذا وان حسن استيفاء الضرائب وبناءها على اساس متصاعد من
الضرورات الملحة لتنهض الدولة بعبء تجديد الاقتصاد وتطويره .

ثم ان الشعوب الجديدة بالعيش الكريم لا ينعصها أن تلتزم التقشف
ومجانبة الترف خلال سنوات معدودات لتنعم بعد ذلك بالرفاهة والرغد .

ونجزم أخيراً بأن تنسيق الدول العربية لمشاريعها الانمائية وتوحيد
تمويلها وتوزيعها على اساس التكامل والتكافل ، كل ذلك سيختصر مرحلة
المصاعب ويجتنب تبديد المال والجهد ويقرب أوان الجدا والاكتفاء .

(١) استطاع الاقليم المصري ان يحصل على ٤٢ مليون جنيه عام ١٩٥٨ من رصيد
صندوق توفير البريد ، وكان هذا الرصيد ٣٣ مليون جنيه عام ١٩٥٦ و ٣٨ مليون
عام ١٩٥٧ ، فهو يزيد سنوياً من ٤ الى ٥ ملايين .

خاتمة

العرب واسرائيل

وهم متعلّل به عن اسرائيل ، بل عجاج نثيره لنعجب بصرنا عن رؤية الحقيقة ، ونصطلي بالامل الحامل وتلمّس بالسراب الخادع .
ارتحنا الى طمأينة البال حين احطنا العصابة الغاصبة بسياج متواف من الحصر الاقتصادي ، وخلصنا ان اللصوص لا بد ميتون في زريبتهم الضيقة اختناقاً وهلعا .

الحقيقة ان اليهود في فلسطين المحتلة لا يتناقصون في العدد لقتير العيش والاسحات ، بل هم يزدادون مائة الف وسطياً في كل عام ، فكانوا ٦٥٧,٠٠٠ عام ١٩٤٨ وغدوا ١,٧٢٧,٠٠٠ عام ١٩٥٧ .

والحقيقة ايضاً انهم لا يجيئون على المسكة من الرزق ، بل ان دخلهم القومي السنوي ينمو باضطراد حتى زاد متوسط نصيب الفرد عن ٦٥٠ ليرة اسرائيلية .

وهم قد صموا كيانهم على التصنيع ، فأرابت قيمة منتوجاتهم الصناعية عن ١٠٠٠ مليون ليرة .

وهم يشغلون في الصناعة والانشاءات وتوليد القوى المحركة والمضيئة ٣١,٨٪ من سواعدهم العاملة ، ويتروكون للزراعة ١٨٪ فقط ، وللتجارة

والصيرفة ١٣,٩٪ وللتنقل والمواصلات ٦,٦٪ وللخدمات العامة ٢,٢٩٪ .
لاشك ان ميزانهم التجاري في عجز دائم ، يبلغ في المتوسط ٣٠٠ مليون
دولار في العام ، ولكننا اذا حللنا هذا العجز الى عناصره وجدنا الاستيراد
يتناول الآلات والسلع المنتجة والمواد الاولية والعدد الحربية ، بينما يكاد
يكتفي اليهود من المواد الاستهلاكية بنتائجهم المحلي .
وما قيمة هذا العجز !

ان يهود العالم يسددونه خراجاً واثابة لموئلهم القومي والروحي .
والتعويضات الالمانية وحدها (٨٢١ مليون دولار) لو وُزعت
بالعدل على يهود فلسطين لاصاب الواحد منهم ٤٨٣ دولاراً .

ينشر حكام امراييل عن تصميم مركز ان مواطنهم يعانون الشظف
والبوار بنتيجة الحصر العربي .. ولا يمكثون عن اذاعة عدد المؤسسات التي
اصابها الافلاس أو أوسكت عليه ..

ولا يقصدون من ذلك الا شيئاً واحداً وهو استدامة سيل التبرعات
من اثرياء بني قومهم ، ولا سيما في امريكا .

وليس من خطر على الامة العربية أشد من الاستراحة الى الاعتقاد بان
اسرائيل قد انهارت او بسبيل ان تنهار ، وبأن صهاينة العالم قد اكتفوا
بجوزة ٢١ ألف كم^٢ من فلسطين بعد ان جهدوا قرناً ونيف في التمهيد
لاقامة الوطن اليهودي الاكبر .

والواقع ان نواة الهجرة اليهودية الى فلسطين نبتت تحت حكم محمد علي
باشا ، بتأثير صديقه مونتغموري . ومنذ ذلك العهد واليهود يحشدون
مواهبهم ونفوذهم ليجعلوا من فلسطين دولة يهودية عظمى تسيطر بعد
تأسيسها على الشرق الاوسط بكامله وتجعل منه مدي حيويلاً لرخاءها .

واليهود اليوم يبنون اقتصادهم على اساس ديناميكي عقلاني لبلوغ تلك
الغاية ، وهم يسخرونه لتنمية آلة الحرب تحقيقاً لتلك الغاية أيضاً .

حقاً أنهم يقيّدون الهجرة ، لانهم يتخيرون من المهاجرين الشبان
الاشداء القادرين على العمل وعلى الحرب .

انهم منذ عشرات السنين قد حسبوا قدراتهم كلها على استباحة الوطن العربي . ركبوا هيكل تفكيرهم من ذرات ذلك العزم ، وخططوا بنية اقتصادهم على ذلك الاساس .

وأقل ما يقتضينا وعي الخطر ان نضع تفكيرنا السياسي ونضع تخطيطنا الاقتصادي على قاعدة الدفاع عن النفس .

انهم يزدادون صلادة وقوة ومنعة كل يوم ، ويدنون كل يوم من هدفهم الكبير .

وعندما يحدث اليهود الساعة المؤاتية لبدء مغامرتهم الميئنة لن يحمى الكيانات العربية المشتتة جزع الحريصين على هذه الكيانات وثباتهم المرضى على استدامة تبعثرها وتفككها .

شارل مالك - على ولائه الخالص لا امريكا وحبها الواله له - لن يستطيع دفع الاحتلال الصهيوني عن بلاده . الولايات المتحدة بالذات لا تستطيع صون استقلال لبنان ، لان سياستها يسيرها اليهود ، ولان امريكا وانجلترا وفرنسا شريكة بأموالها في الاقتصاد للصهيوني القائم على التوسع .

لن نستطيع ، بل لن نريد ، الولايات المتحدة ان تحمي سيادة الاردن وتدافع عن عرش الحسين .

السبيل الى الحفاظ على الكيان العربي هو بعث اليأس في قلوب الصهيونيين من إمكان السيطرة على هذا الكيان ، وتعميق ذلك اليأس وتمكينه .

السبيل ، ولا سبيل غيره ، هو قوة الكيان العربي وقوته في وحدته^(١) .

(١) ان الجمهورية العربية المتحدة هي منار الوحدة العربية ، ومن المؤذي لعروبة ان تعود في العراق الشقيق نعمة التجم على هذه الجمهورية ، بينما لم تعلن حكومة الثورة في العراق حتى اليوم عن انسحابها رسمياً من حلف بغداد ، كما انها لم تطلب الى البريطانيين المتمركزين في الحبانية ان يجلوا عن ارض العراق الطيبة .

تعقيب

ثورة السودان

قام الفريق ابراهيم عبود ، القائد العام للجيش السوداني ، بانقلاب عسكري فجر يوم الاثنين ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٨ ، وأصدر البيان التالي :

« ايها المواطنون : احبيكم جميعاً اطيب تحية . وكلكم يعلم ويعرف تماماً ما وصلت اليه حالة البلاد من سوء وفوضى . فقد امتدت الفوضى والفساد الى اجهزة الدولة والمرافق العامة دون استثناء . كل هذا يرجع اولاً واهيراً الى ماتعانيه الدولة من الازمات السياسية القائمة بين الاحزاب جميعاً . كل يريد الحكم لنفسه بشتى الطرق ، بالاساليب المشروعة منها وغير المشروعة واستخدام بعض الصحف والاتصال بالسفارات الاجنبية .

كل ذلك ليس حياً في استقلال السودان وتقدمه ، ولا رغبة في صالح الشعب المفتقر للقوت الضروري ، ولكنه جري شديد وراء كراسي الحكم والنفوذ والسيطرة على موارد الدولة وامكانياتها .

وقد طال ذلك وكثر . وصبرنا على تلك الحكومات الحزبية حكومة تلو اخرى ، آملين ان تتمسك الاحوال ويسود الاستقرار وتطمئن النفوس وتزول الكراهية السارية في النفوس والقلوب . ولكن مع الاسف الشديد

ازدادت الحالة سوءاً على سوء ، وعبث كل حزب بسلامة السودان ، وشكا كل فرد من تدهور الحالة وما آلت اليه البلاد من الفوضى والفساد حتى خاف ان تتودى الى هاوية سحيقة لا يعلم مداها الا الله .

ونتيجة لذلك ، ومن المسلك الطبيعي ، ان يقوم جيش البلاد ورجال الامن بايقاف هذه الفوضى ووضع حد نهائي لها واعادة الامن والاستقرار لجميع المواطنين والنزلاء

لقد قام جيشكم المخلص في هذا اليوم - السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٨ - بتنفيذ هذه الخطوة السديدة المباركة والتي ستكون باذن الله نقطة تحول من فوضى الى استقرار ومن الفساد الى النزاهة والامانة . واني واثق بأن كل مخلص لهذا البلد سيتقبلها بصدق وحب .

ايها المواطنين : اننا اذ نقوم بهذا التغيير للوضع الحالي لاتبغى من وراء ذلك نفعاً ولا كسباً . كما اننا لانضمر لاحد عداؤاً ولا نحمل حقداً لاحد ، بل نعمل ونسعى للاستقرار .

واني اُهب بجميع المواطنين ان يلزموا السكينة والهدوء . كل يقوم بعمله باخلاص . الموظف في مكتبه والعامل في مصنعه والمزارع في حقله والتاجر في متجره .

وبما ان قوات الامن تسلمت مقاليد الحكم . لكي تستطيع ان تقوم بمهمتها خير قيام فاني آمر بالآتي كي ينفذ فوراً :

أولاً - حل جميع الأحزاب السياسية .

ثانياً - منع جميع التجمعات والمظاهرات والمواكب .

ثالثاً - وقف الصحف حتى يصدر بذلك أمر من وزير الداخلية .

وسلطات الامن تطلب من جميع المواطنين تنفيذ ذلك بروح خيرة ، كما انما لن نتوانى قط في توقيع الجزاءات الصارمة الرادعة عليهم .

وقبل أن اختتم كلمتي هذه أود ان اطمنن السادة السفراء وقناصل الدول والجاليات الاحثية على سلامة انفسهم وأمورهم ، كما وانه يطيب لي

ان اؤكد ان السودان الحر المستقل سيبني علاقات مع جميع الدول عامة
والعربية الشقيقة خاصة على اساس من الود والاحترام وتبادل المنفعة .
أما شقيقتنا الجمهورية العربية المتحدة فسنعمل جاهدين لتحسين
العلاقات وحل المسائل المعلقة وازالة الجفوة المفتعلة التي كانت تسود
للبلدين الشقيقين .

وختاماً أسأل الله التوفيق وللشعب كل الاستقرار والامن والرفاهية
والسلام عليكم .

وبعد الانقلاب أصدر المجلس الاعلى للقوات المسلحة السودانية عدة
اوامر دستورية لتنظيم شؤون الحكم اهمها :
الامور الدستوري رقم ١ وهذا نصه :

عملاً بالسلطات المخولة للمجلس الاعلى للقوات المسلحة بموجب بيان ١٥
بتاريخ ١٧/١١/٩٥٨ قرر المجلس بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٨/١١/١٩٥٨
اصدار البيان الدستوري الآتي :

اولاً - السودان جمهورية ديمقراطية والسيادة فيها للشعب ، وباسمه
تصدر جميع التشريعات .

ثانياً - المجلس الاعلى للقوات المسلحة هو السلطة الدستورية العليا
في السودان .

ثالثاً - يجوز للمجلس الاعلى لرئيسه جميع السلطات التشريعية والقضائية
والتنفيذية وقيادة القوات المسلحة .

وقد قام زعيم الانقلاب بتشكيل وزارة ثورة تضم ٧ من ضباط المجلس
الاعلى للقوات المسلحة و ٥ من المدنيين .

وكانت الجمهورية العربية المتحدة اول دولة اعترفت بنظام الحكم
السوداني الجديد .

و كتبت جريدة « الاهرام » القاهرية بتاريخ ١٩ نوفمبر التعليق التالي
عن الموقف السيامي في السودان قبل الانقلاب :

« بلغت الازمة السياسية في السودان حداً من السوء لم يحدث ان بلغته من قبل .. وقد أطاحت الازمة بكل عوامل الاستقرار السيامي .. وكان الاضطراب واضحاً في دوائر الحكومة .. وانعكست عوامل الاضطراب على الشعب السوداني فأصبح يلتمس مخرجاً من سوء الحال .

وقد اجتاحت السودان ازمة اقتصادية اثرت على جميع الفئات .. فعمت الشكوى من سوء الاوضاع الاقتصادية .

وانتهزت الولايات المتحدة الامريكية سوء الحالة الاقتصادية وعرضت ان تقدم معونة لحكومة السودان .

وقرر السيد عبد الله خليل رئيس حكومة السودان قبول عرض الولايات المتحدة . ولكنه جابه معارضة قوية من الشعب السوداني الذي رفض الشروط المقرونة بالمعونة وظلت مسألة المعونة الامريكيه للسودان مسألة شائكة حرجة .. فرغم الازمة الاقتصادية اجتمعت كلمة السودانيين على رفض المعونة بشروطها ..

وزاد الاضطراب بعد قبول المعونة الامريكيه حينما صدر بيان من الحكومة منذ ثلاثة اسابيع يعلن ان المساعدة الامريكيه ستخصص سلفاً للاستيراد ، وان على المستوردين ان يحصلوا على تصديق مكتب المعونة الامريكيه على تراخيص الاستيراد . واعتبر التجار في السودان ان هذا يعنى فرض وصاية الولايات المتحدة على تجارة السودان الخارجية ..

وقوبل هذا الاعلان بمعارضة جارفة مما دعا الحكومة الى ان تصدر بياناً آخر تقصر فيه موقفها .. وصحب هذا الموقف اشتداد التذمر من تدخل بريطانيا وامريكا .

وتكثرت القوى الوطنية ضد تسهيل النفوذ الاستعماري .

وخلال الاسبوع السابق لافتتاح البرلمان الذي كان مقرراً له يوم ١٧ نوفمبر وجهت اتهامات الى السفارة الامريكيه انها تحاول شراء النواب .. وانما صرفت في يوم واحد عشرة آلاف جنيه .. وذلك حتى لا يعارض

النواب المعونة الامريكية .. ويقروها .. ويتخذوا موقفاً موالياً للغرب .
حدث ذلك في الوقت الذي كان الرأي العام السوداني قائماً على مساوية
الحكم القائم .. ويطالب بقيام وضع سياسي جديد في السودان .. يحميه
من تسلل النفوذ الاستعماري الذي ركز جهوده في الخرطوم بعد ثورة العراق
وقد تكتل الشعب السوداني رافضاً السير في ركاب الغرب مطالباً
بحكومة تحس باحساسه وتعمل على تنفيذ مطالبه ورغباته .
واستطاع عبد الله خليل ان يؤجل انعقاد البرلمان الى ٧ ديسمبر واستقال
بعض وزراء حزب الامة حتى يمكن لعبد الله خليل ان يؤلف وزارة جديدة
ولكن الجيش السوداني انهم هذا الوضع المقلقل في صباح ١٧ نوفمبر ..
فقام الفريق ابراهيم عبود بانقلاب ناجح واسقط وزارة عبد الله خليل ..
والغى الدستور الموقت .. وحل الاحزاب .. وحل البرلمان .. وبذلك
يبدأ للسودان مرحلة جديدة بعد ان عمت الشكوى في كل مكان .

تصويب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
والمؤلف في	والمؤلف من في	٢٤	١٣
يجود به من لطائف	يجود به لطائف	٢٥	١٣
امرأة	أمرأة	١٦	١٤
الذنان	الذين	٧	٣٢
جارة	جازة	٥	٧١
٥٢٠٠ كم ^٢	٥٧٠٠ كم ^٢	١٠	١٢٣
قلب الجزيرة العربية	قلب العربية	١٠	١٢٨
التاريخ لقب « ملك »	التاريخ « ملك »	٥	١٣٤
وأقرت	وأقرت	١٦	١٣٤
وخلال	وجلال	٢٣	١٣٥
سوكوني فاكرم ٣٠٪ سوكوني فاكرم ١٠٪	سوكوني فاكرم ٣٠٪ سوكوني فاكرم ١٠٪	١٧	١٤٨
اقتصادياتنا	اقتصادياتنا	١٧	١٧٧
يصحبوا	يصحبوا	١٧	١٧٩
أخذه	أخذه	٧	١٨٨
العراق	العراق	١	٢٠٤
شمعون	شمعوم	٣	٢٣٢
وكان	وكاد	١١	٢٣٢
٢٠ تموز	٥ تموز	٢٠	٢٥٧
لذاته	لذاته	٧	٢٥٩
بلغ	بلغ	١٠	٢٦١

فهرس

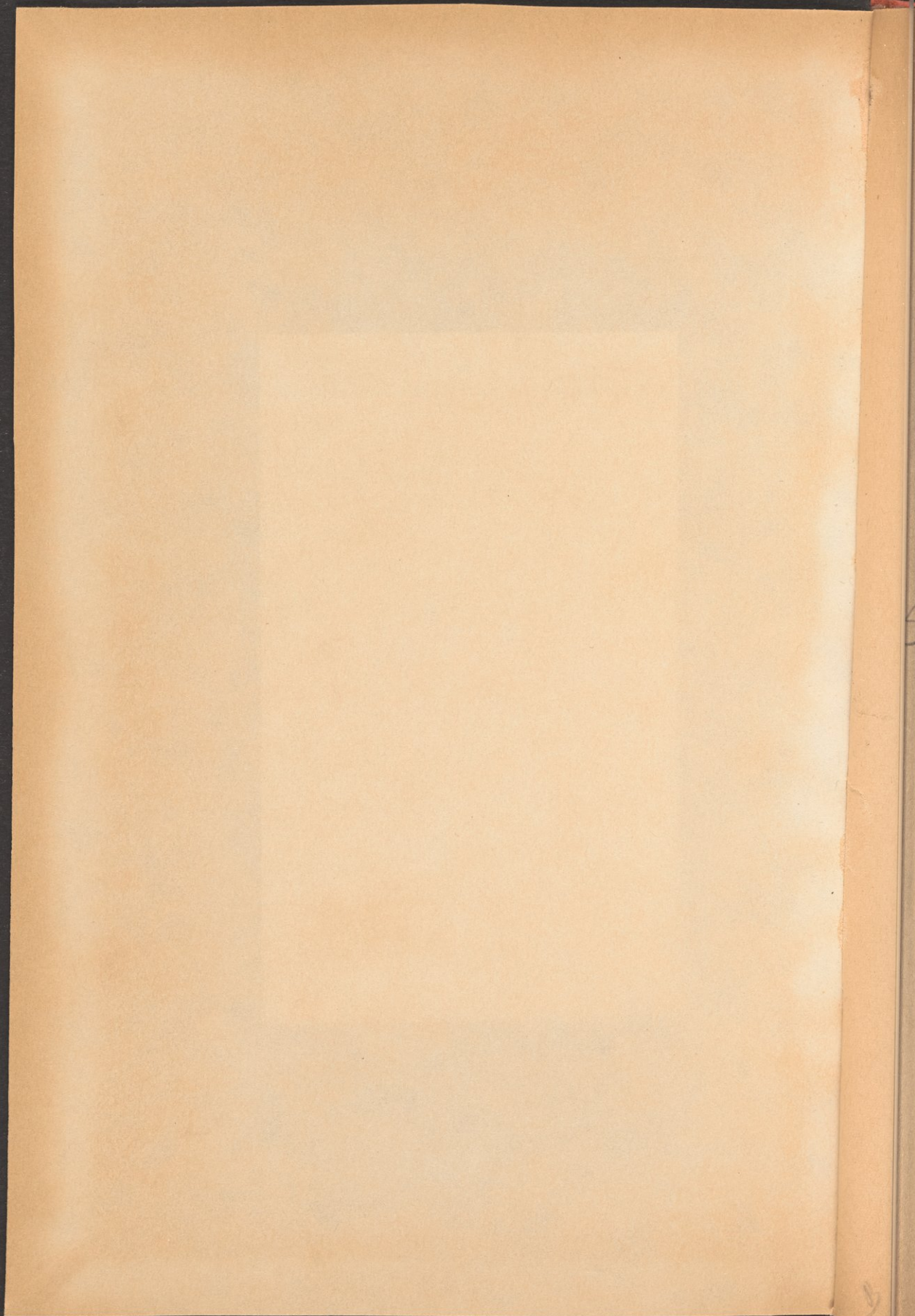
صفحة	
	تصدير
٧	أ - رأسمالنا البشري
٢٠	ب - نحن والطبيعة
٢٧	ج - دنيا العرب تتحرر وتتوحد
٣٢	١ - مملكة المغرب
٤٢	٢ - الجزائر
٥١	٣ - الجمهورية التونسية
٧١	٤ - المملكة الليبية
٧٨	٥ - جمهورية السودان
٨٥	٦ - المملكة اليمنية
٩٣	٧ - عدن والجنوب العربي
١٠١	٨ - مسقط وعمان
١٠٧	٩ - امارات الخليج العربي
١٠٧	آ - الساحل المتحاذن
١٠٩	ب - قطر
١١١	ج - البحرين
١١٧	د - الكويت
١٢٥	١٠ - المملكة العربية السعودية
١٧٤	١١ - الجمهورية العراقية
٢١٧	١٢ - جمهورية لبنان
٢٤٠	١٣ - المملكة الاردنية
٢٦٧	١٤ - الاقتصاد العربي بين الواقع والامكان
٢٨٨	خاتمة : العرب واسرائيل
٢٩١	تعقيب : ثورة السودان
٢٩٦	تصويب

Sack

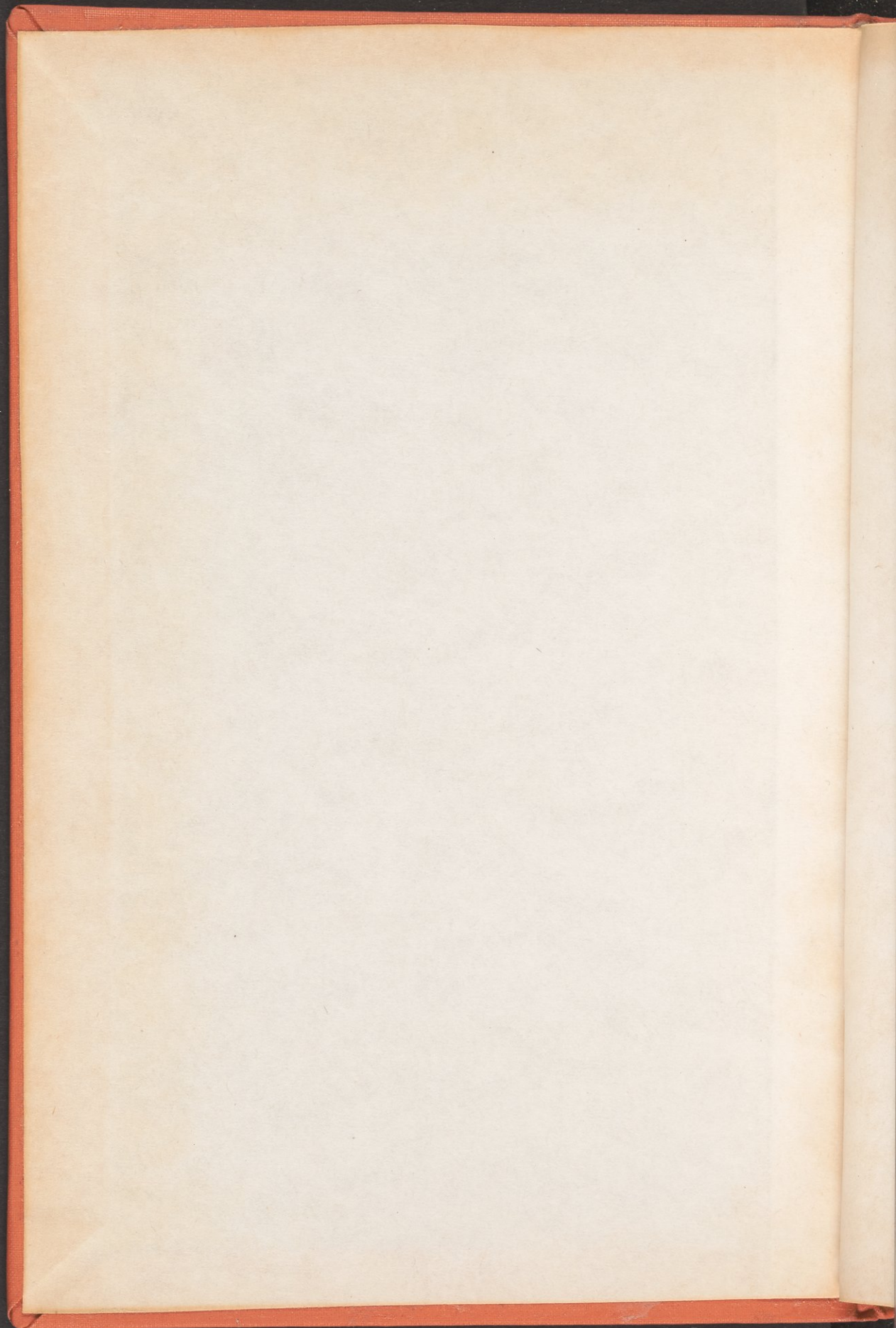
5

PB-38413-SB
538-18
5-cc

7113



DATE DUE



NYU - BOBST



31142 02841 0036

HC498 .N8

al-Wa'zan